الإرساليات التبشيرية

كتاب يبحث في نشأة التبشير وتطوره
وأشهر الإرساليات التبشيرية ومناهجها

دكتور
عبد الجليل شلبي
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية (سابقا)

الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية
جلال حزى وشركاه

الإرساليات التبشيرية

كتاب يبحث في نشأة التبشير وتطوره
وأشهر الإرساليات التبشيرية ومناهجها

دكتور
عبد الجليل شلبي
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية (سابقاً)

الناشر المعارف بالإسكندرية
جلال حزى وشركاه

الكتــاب الأول

فى

نشأة التبشير وأشهر مدارسه وإرسالياته

فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين » (آمين)

وصلى الله على سيدنا محمد خاتم أنبياء الله ورسله ، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين ، ولو كره المشركون .

بسم الله الرحمن الرحيم

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم
قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى
جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير »

(قرآن كريم)

البقرة ١٢٠

تمهيد

هذه محاضرات ألقيت على طلاب الدراسات العليا فى كليات أصول الدين والدعوة الإسلامية من جامعة الأزهر ، ألقيتها فى سنوات مختلفة ثم رأيت أن أزيد عليها وأن أجمعها فى كتاب واحد تيسيراً على الدارسين فى الجامعات واتاحة لغير الجامعيين من محبى هذه الدراسة أن يطلعوا عليها .

وقد كنا بدأنا دراسة التبشير والاستشراق بجمعهما معاً فى درس واحد لما بينهما من ارتباط وثيق ، لأن الاستشراق وليد التبشير ، ولأن عمل المبشرين والمستشرقين قد يكون عملا واحداً فى مواضع كثيرة أهمها وحدة المنهج الدراسى للغات والأمم الشرقية والنظرة إلى الإسلام واثارة الشكوك والشبهات حوله ، وفى حديث الاستشراق والتبشير سنجد مبشرين تركوا حقول التبشير ليتخصصوا فى الدراسات الاستشراقية ، كما نجد المستشرقين يلجأون إلى الارساليات التبشيرية ليستفيدوا من دراساتها ... كل ذلك يجعل درس أى من الموضوعين مرتبطاً بالآخر ، وبتوالى الدراسة تشعب الحديث واتسعت جوانبه فرأيت من الأوفق أن أضع لكل موضوع حديثاً مستقلا ، ويمكن أن تدرس كل سنة من سنى الدراسات العليا موضوعاً واحداً أو ما يتسع زمنها لدراسته منه ، وأوثر أن تدرس السنة الأولى موضوع التبشير وتدرس السنة الثانية موضوع الاستشراق . وما قدمته فى أى من الموضوعين لايعدو أن يكون بداية بحث يستطيع الدارس بعدها أن يختار موضوعا منها يستقصى جوانبه ، ويبحثه بحثاً مستوفى .

والجديد فى هذا المنهج أنه عنى بالدراسة الأدبية لمدارس التبشير ، فعرض تاريخ كل جماعة ومنهجها الفكرى ، وتطورها التاريخى ، ومنه تتبين السمات المميزة للارساليات العديدة ، والأسباب التى جعلتها منفصلة بعضها عن بعض ، وهى دراسة لابد منها لكل درس أكاديمى . وقد قضينا من قبل معظم وقتنا الدراسى فى عرض شبهات المبشرين والمستشرقين . ثم تفنيدها ودحضها وبيان الأسباب التى

أثارت هذه الشبهات فى أذهانهم . وهى دراسة مفيدة وحتمية ، غير أنها كانت تهمل الجانب الأدبى فى دراسة التبشير والاستشراق جميعاً وكانت تجعل الدرس درس تفسير أو عقيدة أو نحو أو تاريخ أديان ... أو غير ذلك تبعاً للشبهة التى تثار . فهى دراسة فنية بحتة ، وقد سبق أن أخرجت فى هذا كتاب « مفتريات المبشرين » (١) عرضت فيه عدداً كبيراً من هذه الشبهات وفندتها تفنيداً علمياً وفى دراسة مقارنة ، ولهذا لم أعرض فى هذا الكتاب شيئاً من هذه الشبهات اكتفاء بما كتبته هناك .

بدأت فى حديث التبشير بعرض بدايته فى حياة السيد المسيح — عليه السلام — ثم عمل حوارييه وعمل بولس ثم امتداد النشاط التبشيرى وتنوع مدارسه ، وهو النظام الذى رأيت مؤرخى التبشير الأجانب ينهجونه ، وقد يكون من الأطالة أن نعرض شيئاً من الأحداث التى ليست فى صميم التبشير ، ولكن هذا ما لابد منه استيفاء للدراسة من جهة ومن جهة أخرى لا تعرف اتجاهات الفرق التبشيرية واختلاف مذاهبها إلا بهذا الطريق .

وكان من أهم ما اعتمدت عليه فى جمع المعلومات هو كتب التبشير وتاريخه التى قرأتها فى اللغة الانجليزية ، منها ما كان من المراجع التى فرضتها علينا مناهج الدراسة فى معهد « مارى ليبون » — التابع لجامعة لندن ، ومنها ما هدتنى اليها القراءة ، ورجعت أيضاً إلى بعض البحوث التى ألقيت فى المؤتمرات المسكونية وإلى دوائر المعارف ، وإلى كتب التراجم ، ومنها لخصت تاريخ الجماعات والارساليات التى ذكرتها . والكتب العربية مع قلتها لا تتحدث عن التبشير وتاريخه الا عرضاً ، وبعضها مما صدر عن دور الارساليات .

وأرجو أن يكون فى هذه الخلاصة ما ينير الطريق أمام الدارسين الناشئين . وبعد فليست دراسة التبشير أو الاستشراق عملا هيناً أو قصة سهلة الرواية ولكنها دراسة شاقة تعتمد على دراسة التاريخ عامة ، وتاريخ البيئة التى يتناولها الحديث خاصة ، والكتب الأجنبية التى تتحدث عن أى من هذين الموضوعين تبهر قارئها

(١) نشرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب باسم « رد مفتريات على الاسلام » وقيد البحث كتاب آخر فى هذا الموضوع . اسأل الله تعالى أن يعيننى على اخراجه .

بما تحوى من سعة المعلومات ومهجية البحث ، ولا ينبغى أن يثنيا عن قراءتها مآفيها من جور وتحامل على الاسلام ، ولكن على العكس من ذلك ، علينا — نحن دعاة الدين الاسلامى — أن ندرس الديانات الأخرى ، ودراستها تظهر نصاعة الاسلام وبهاءه ، ولحسن الحظ تدرس كليات الدعوة الآن مقابلة الأديان وتاريخها ، وكل ذلك يمكن أن يؤدى إلى دراسات أوسع وأعمق .

وفى الحق إن المبشرين والمستشرقين رغم ما يسيئون به الاسلام خليقون أن يكونوا نموذجا للداعية المسلم فى حسن الاستعداد وسعة القراءة والاطلاع ، فانى انظر إلى كثرة ما كتبوا عن حركة التبشير المسيحي ،وإلى ما أجده فى كل كتاب لهم من مراجع عديدة منوعة فأشعر بكثير من الأسى والحزن لأنى لا أجد للدعاة المسلمين فى هذا المجال عملا تبشيريا ولا تسجيلا تاريخياً لما فعله دعاتهم ، وسنجد فى هذا العرض الموجز أن الهيئات التبشيرية والمؤرخين الأوربيين يقررون أن الاسلام ليس له مراكز دعاية ، ولا هيئات تعمل على التعريف به ونشره كما لدى المسيحية [1] والدعوة الاسلامية تتمشى رويداً رويداً بدعاية الأفراد ، وبما تمتاز به عقيدة الاسلام من يسر ومنطق ومجاراة لحياة الناس ، ولعلى أستطيع بهذا العمل المتواضع أن أفتح أمام الطلاب فى قسم الدعوة باباً للبحث والتوسع ، وأن يكون فيه حافز لمن يعنيهم نشر الاسلام أن يكونوا هيئة موحدة من جميع المسلمين تقوم بشىء مما يوجبه علينا ديننا وتحتمه الإنسانية والحضارة الصحيحة . ومن يدرى لعل الكثيرين من المبشرين يهتدون إلى الحق ويعرفون عن الأسلام مالا يعرفون ، وليس موريس بوكاى ولا كات استيفن ولا رجاء جارودى ، ولا ابراهيم خليل ولا غيرهم ممن اهتدوا إلى معرفة الإسلام مثلا شاذة فى التاريخ ، والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

والذى رأيت أن أنهجه فى هذا العرض الموجز أن ألم بشىء من تاريخ المسيحية ومناهج دعاتها وما كان لها من أثر فى التاريخ الأوروبى خلال العصر الوسيط وعصر النهضة وأعمال دعاتها مع حملات المستكشفين فى أمريكا وفى البلاد الشرقية، وفى هذا الصدد ذكرت دخول الاسلام هذه البلاد ودخول المسيحية ثم قيام العداء المرير بينهما ، وأفردت فصلا خاصا عن المغوليين وموقفهم بين النصرانية

(١) يقرر ذلك كل من جوستاف لبوبون ، وتوماس آرنولد ، واستيفن نيل وديبور وغيرهم .

والإسلام ، كما تحدثت عن الإسلام والمسيحية فى عدد من الاقطار الآسيوية النائية وبعض الاقطار الافريقية ، ولم استقص فى هذا العرض لأن الحديث عن أى من الدينين وحده يشغل كتابا مستقلا ، ولم يكن من همى إلا أن أضع أمام الداعية المسلم صوراً من هذا النشاط التبشيرى ، فاكتفيت بما أراه هاماً وكافياً .

وأخشى أن يضيق طلابنا بأحاديث تتناول المسيحية أكثر مما تتناول الاسلام أو تتحدث عن شعوب بعيدة عنهم ، ولكنى أقدم معلومات للداعية الذى يعنيه أن يتعرف حقيقة الوضع الذى عليه الاسلام ، ويهتدى من خلال التعريف إلى ما يمكن أن يعمله ازاء دينه ، قياما بواجب يفرضه عليه الدين والضمير والشعور الانسانى ، ولست أعرض معلومات يقرؤها طالب ليؤدى فيها امتحانا ، ويظفر بشهادة ، والقناعة العلمية التى يجنح اليها طلاب الشهادات تستكثر كل شىء ، والرغبة المخلصة فى المعرفة التى ينشدها الداعى الاسلامى لايقنع طموحها الا درس موسع ومعلومات وافية تكون عقلية وروحا ، وتهدى إلى الطرق السليمة الناجحة فى نشر الاسلام .

وآمل فيما عرضت من هذه المعلومات أن أكون قد توسطت بين هذين الطرفين واعتذر إلى الطامحين بأنى فتحت أمامهم باب البحث وأثرت لهم طريق التوسع ، وفى باب الموازنة بين الاسلام والمسيحية وفى المسائل المشتركة وفى الشبه التى تثار موضوعات شائقة لا غنى عن عرضها والتوسع فى درسها وعرضها بطريقة علمية يبدى حقا نصاعة الإسلام ، ويدحض مفتريات المبشرين والمستشرقين ، ولسنا بحاجة إلى ما يسلكونه من شتائم وسباب يرضون هم عنها وتأباها طبيعة الاسلام ، ودراسة الكتاب المقدس بقسميه تبدى ما يرغب فى الاسلام دينا بريئا يجارى المنطق ويسمو بالانسانية ، فليصبر هؤلاء وهؤلاء على هذه القراءة ، فما هى الا خدمة للإسلام والمعرفة .

أما القانعون من طلاب الشهادات ، والذين يتخذون من هذا الدرس وسيلة لاجتياز الامتحانات ، فخير لهم أن يتركوا هذه الدراسة نهائيا ، وأبواب الدعوة متعددة وكل ميسر لما خلق له .

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا . وإن الله لمع المحسنين »

عبد الجليل شلبى

الباب الأول

فى نشأة المسيحية وتطــورها

« ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام »

قرآن كريم (٥المائدة/٧٥)

لمحة من حياة المسيح ــ عليه السلام

جاء ذكر مريم وميلاد المسيح (عليهما السلام) فى غير موضع من سور القرآن الكريم وفى سورتى مريم وآل عمران شىء من التفصيل عن حمل مريم العذراء بالسيد المسيح ووضعه، وما جاء فى القرآن يختلف فى أكثر مواضعه عما جاء فى الاناجيل ، ويتفق معه فى بعض قليل والقرآن يأتى بأخبار مجملة وكل مل عناه اثبات أنه ــ عليه السلام ــ ليس له والد بشرى ، وليس ابنا لله ، وأنه لم يقتل ولم يصلب ، واكتفى من أخباره بذكر عداء اليهود له ، وبأن الله آواه وأمه إلى ربوة ذات قرار ومعين [١] والغرض منها أن الله نجاه من كيد اليهود فى صغره ومن صلبهم اياه فى نهايته . وهذه أهم ما خالف القرآن فيها الاناجيل . وذكر القرآن أيضاً له عديدا من المعجزات أجملها فى أنه يبرىء الاكمه والابرص ويحيى الموتى بأذن الله، وأنه يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرا باذن الله[٢] وهذه المعجزة الأخيرة لم تأت فى الاناجيل[٣] ، ولكنها ذكرت أسماء من شفاهم ومن أحياهم ــ كما ذكرت أنه أصح المجانين وأخرج الشياطين منهم وندع حديث المعجزات الآن إلى أجل قريب .

لم يولد السيد المسيح ــ عليه السلام ــ فى السنة الأولى الميلادية التى يجرى عليها حسابنا الآن . ولكنه ولد قبلها ببضعة أعوام ، والرأى الراجح لدى المؤرخين

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٥٠ ــ وهذه الربوة هى مصر (حسن المحاضرة ١٥/١) .

(٢) سورة آل عمران ٤٨ ــ ٥٠ ، سورة مريم ١٦ ــ ٢٢ ، وسورة المائدة ١١٠ ، واقرأ ما بعدها إلى آخر السورة .

(٣) فى الاناجيل المندثرة : إنجيل الطفولة ، وإنجيل توما . من نوادر طفولته أنه كان يلهو مع أترابه فى صنع طيور من طين ينفخ فيها فتطير . أنظر « يسوع فى زمانه » ترجمه من الفرنسية الأب حبيب باشا البولسى من المنشورات العربية فى بيروت تموز ١٩٦٩ م .

أنه ولد فى السنة الرابعة أو السادسة قبل بداية التاريخ الميلادى[1] وهناك أقوال تذكر سنين أكثر من ذلك وأقل . وكان ميلاده — عليه السلام — فى عهد الامبراطور أغسطس الذى مات فى سنة ١٤ م . وأعلن رسالته فى عهد الامبراطور طيبريوس ، ومعلوماتنا عن نشأته قبل أن يعلن رسالته قليلة جدا ، وما كتب عنه مع قلته ملىء بالمبالغات والأساطير شأن عظماء التاريخ فى كل زمان ومكان ، وليس لدى الباحثين مراجع غير الاناجيل ، وهى لم تحو كل أقواله ، بل جاء فى أعمال الرسل والرسائل أقوال له لم ترد فى الاناجيل[2] .

والاناجيل هى المصدر الأساسى ولكنها مصدر لم يخل من نقد ونقض وأسبقها كتب بعد المسيح بنحو ستين عاما وقيل أكثر من ذلك ، لأن الأناجيل لم تكتب الا بعد قتل بولس بنحو عشرين عاما ، وبولس قتل سنة ٦٥ م على يد نيرون . فاذا كان عمر السيد المسيح على الأرض ثلاثة وثلاثين عاما ، فهذا يعنى أن بولس قتل بعده بنحو اثنين وثلاثين عاما . فأول انجيل كتب كان بعده وكان فى سنة ٩٠ م أو نحوها — وهذا البعد يجعل تاريخها محل نظر[3] .

وتذكر الاناجيل أن مريم ويوسف النجار خطيبها كليهما من سلالة داود عليه السلام ، وأنهما كانا يسكنان بلدة الناصرة ، وبدا على مريم الحمل فى هذه البلدة ، ولما أصدر الامبراطور أمرا باحصاء الامبراطورية ، كان على كل شخص أن يكتب

---

(١) لم يتخذ الميلاد المسيحى بداية للتاريخ الا فى سنة ٥٣٢ من التاريخ الرومانى وكان الذى دعا إلى هذه الفكرة راهب يدعى دينوسيس ، وكان يلقب نفسه بالصغير تواضعا وأدبا ، وهو الذى تولى حساب هذا التاريخ فاخطأ فى بضع سنوات ، وكشف خطؤه بعد أن شاع تاريخه واستعصى اصلاحه (أنظر حياة المسيح فى الكشوف والتاريخ ، وتاريخ سورية جـ ١ .

(٢) بدأ إنجيل متى بذكر نسبه بدءا من ابراهيم — ثم بميلاده فى أيام هيرودس .

(٣) كتبنا موجزا عن تاريخ الاناجيل فى كتاب « مفتريات المبشرين » وأنظر كتاب « محاضرات فى النصرانية » للمرحوم الشيخ محمد أبو زهرة — وما كتبه كل من ديفيز فى كتابه :

Invitation to the new Tertament .

وبوكاى فى كتابه الشهير الذى أعلن به اسلامه ، وأنظر المقدمة التى كتبها القس ابراهيم خليل لكتابنا السابق الذكر ، وفى كتاب Outline of Modern, Belief أن أول انجيل هو انجيل مرقس كتب بعد ٦٠ عاما من نهاية المسيح ، وبعده انجيل لوقا كتب بعد ٨٠ سنة ومتى بعد ٨٥ ، وربما كان انجيل متى نشرة ثانية لمرقس ، عدلت منه وزادت عليه .

فى مدينته فذهبت مريم ويوسف إلى مدينتهما « بيت لحم » مدينة داود فى اقليم اليهودية ، وهناك جاء مريم المخاض « فولدت .. ابنها البكر ، وقمطته وأضجعته فى المذود إذ لم يكن لها موضع فى المنزل » (١) . ونحن نميل إلى أنها لم تلد غيره ، وأنّ اخوته الذين ذكروا فى الأناجيل ليسوا منها .

وبعد ثمانية أيام اختتن وسمى باسم يسوع ، ثم ذهبا به إلى الهيكل فى بيت المقدس طبقا لما كان جاريا مع الذكور الابكار(٢) ثم عادا به ثانيا إلى الناصرة .

وتذكر الاناجيل أن هيرود تخوف المواليد فى هذا الوقت وهم بقتلهم فظهر الملاك ليوسف فى حلم وأمره بالهرب ففر بالصبى وأمه إلى مصر وبقوا بها حتى مات هيرود . وقد قتل الأطفال فعلا حتى الذين بلغوا أربعة أعوام(٣) .

وفى كل سنة كان الجميع يذهبون فى عيد الفصح إلى أورشليم فيمكثون هناك أياما وعندما كان يسوع فى الثانية عشرة من عمره ذهبوا إليها كعادتهم ، ثم انصرفوا مع رفقة لهم بعد قضاء أيامهم ، وتفقدوا يسوع فلم يجدوه ، فرجعوا يبحثون عنه ، وبعد ثلاثة أيام وجدوه فى الهيكل يجادل المعلمين والناس يعجبون من حواره وفصاحته وعلمه (٤) .

وفى السنة الخامسة عشرة من حكم طيباريوس عمد يسوع من النبى يحيى الذى كان يعمد الناس من نهر الأردن (٥) ، ولما قبض على يحيى وسجن قام المسيح باعلان دعوته وتولى رسالة الاصلاح التى كان يدعو لها يحيى .

وليس لدينا معلومات وافية عن تعليمه ومدى ثقافته ، ولكنه كما هو واضح من كلامه ومحاجته خصومه ومن خطبه كان قد درس العهد القديم دراسة جيدة ، وكان يعرف اللغة الآرامية التى كانت سائدة فى الاقليم كله فى هذا الوقت والأمثال التى جاءت فى أحاديثه كثير منها أو معظمها أمثال آرامية كانت معروفة من قبل(٦)

---

(١) لوقا ٢ / ٦ .

(٢) نفسه ٢ — ٤ وطبقا للشريعة إذ ذاك تقدم ذبيحة من حمامتين أو يمامتين .

(٣) متى ٢ , ١١ — ١٥ .

(٤) لوقا / ٢ / ٤١ — ٤٧ .

(٥) متى ٣ / ١٣ — ١٦ ومرقس ١ / ١ .

(6) The yesus of History p 61.

وبطبيعة الحال كان يعرف اللغة العبرية لغة الكتاب الذى كان يدين به ، وقد أدرك حظا أيضا من اللغتين اليونانية والرومانية ، لأن اللغة اليونانية كانت لغة الثقافة والعلم فى هذا العصر ، واللغة الرومانية هى لغة الحكام ، ولكن اللغة الآرامية صاحبة السيادة ، والأحاديث التى دارت بينه وبين بيلاطس فى محاكمته — كما تروى الأناجيل — كانت باللغة الآرامية ، ويقال أنها كانت باللغة اليونانية ، مما يدل على أنه كان يجيد اليونانية . أما من أين حصل على معلوماته وكيف تدرب على لغاته فهذا ما لم تحدثنا عنه الاناجيل [١] ويقال أنه تلقى عن جماعة الصدوقيين .

قلنا أنه بدأ اعلان دعوته عقب القبض على يحيى وايداعه السجن .

وكانت بداية عمله فى كفر ناحوم ، يقول متى أنه لما علم أن يوحنا أسلم ، انصرف إلى الجليل وترك الناصرة ، ودعا اليه حوارييه [٢] ، ومضى يدعو الناس إلى التوبة ويقول « أن ملكوت السموات قد اقترب ، ومضى يطوف جوانب الجليل ، يبشر بدعوته ويشفى المرضى فشاع خبره فى جميع سورية ، وأحضروا اليه جميع السقماء المصابين بأمراض وأوجاع مختلفة والمجانين والمصروفين والمفلوجين فشفاهم ، فتبعته جموع كثيرة من الجليل والعشر المدن وأورشليم واليهودية ومن عبر الأردن . وهكذا ذاع صيته وبهرت معجزاته الناس ، فهذه بداية التبشير المسيحى [٣] .

ولما رأى كثرة الجموع صعد فوق الجبل وتقدم إليه تلاميذه يسألونه ، فدعاهم إلى ايثار الحياة الروحية ، يقول : طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات طوبى للحزانى لأنهم يتعزون ، طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض ، طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون ... [٤] .

(١) يتصل بتعلمه دور التجربة فى البرية ، فقد كان أنبياء بنى اسرائيل يقضون فترات فى الصحراء يدربون فيها على العبادة والتأمل ، وربما تراءت لهم خيالات أو سمعوا أصواتا ، وتذكر الاناجيل هذا الدور للمسيح وأن الشيطان تراءى له ليفتنه ويجربه غير مرة (متى ص ٤) .

(٢) دعا أولا أخوين صيادين هما سمعان الذى سمى بطرس أى الصخرة لصلابته واندراوس — ثم يعقوب ويوحنا ابنى زبدى من الصيادين أيضا ، ثم دعا الآخرين (مرقس ٣ / ١٧) .

(٣) أنظر انجيل متى ص ٤ / ١٢ وما بعدها .

(٤) وردت هذه العبارة أيضا : طوبى لكم أيها المساكين .

وهكذا مضى يبشر تلاميذه بملكوت السماء لصبرهم واتجاهم الروحى ، وقال لهم أنتم ملح الأرض ، ولكن أن فسد الملح فبماذا يملح ... أنتم نور العالم ... لاتظنوا أنى جئت لانقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لانقض بل لأكمل ، إن لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات[1] .

ووصيته هذه طويلة ، وتبدو فيها بوادر الهجوم على بعض الفرق اليهودية وفى هذا الحديث دعا إلى الرحمة والتسامح بما يبدو مخالفا للوصايا العشر بشىء من تضخيم الصغائر من الذنوب ، والعفو عمن يسيئون اليهم :ـ

« قد سمعتم أنه قيل للقدماء : لا تقتل ، ومن قتل يكون مستوجب الحكم ، وأما أنا فأقول لكم : أن كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم ومن قال لأخيه رقا (أحمق) يكون مستوجب المجمع (المحاكمة) ، ومن قال ياأحمق يكون مستوجب نار جهنم ... [2] .

وهذا كما ترى تشديد بالغ على الدعاة « ملح الأرض » ثم يقول :

« كن مراضيا لخصمك سريعا مادمت معه فى الطريق لئلا يسلمك الخصم إلى القاضى ويسلمك القاضى إلى الشرطى فتلقى فى السجن ... » .

وفى هذه الوصية تخويف من عقوبة الدنيا ، ولم تجعل مراضاة الخصم لثواب الآخرة ولكنها تنبىء عن الشعور بالخوف العميق ، ثم يقول :

« قد سمعتم أنه قيل للقدماء : لا تزن ، وأما أنا فأقول لكم أن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه ، فان كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم ، وأن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها عنك ... [3] .

وهكذا مضت هذه الخطبة تعدل وتغير الوصايا القديمة المعروفة . وختمها بتهديد من يخالف وصاياه وشبهه بمن يبنى بيتا على الرمل فتجترفه المياه والرياح

(١) متى ص ٥ جميعه ــ وفى انجيل مرقس اختلافات يسيرة فى عرض الأحداث والوصايا .

(٢) كلمة رقا ربما كانت آرامية .

(٣) متى ص ٥ .

ونهار البيت . وبهت الناس من تعاليمه وتسمى هذه الخطبة خطبة الجبل « جبل الزيتون » الذى كان يتكلم من فوقه ، ثم نزل فانهالت عليه الجموع ، وهو يشفى المرضى بمختلف الأمراض ويحيى الموتى حتى من رَمَّ أو دفن فى القبر ومضت عليه الأيام ، وممن شفاهم ابن قائد مائة .

ثم مضى يتجول فى أرجاء فلسطين ، وأثار عمله ومعجزاتُه طوائف اليهود عليه وكثر اعتراضهم على أعماله وأعمال تلاميذه مما خالفهم به ، ولكن الجموع الغفيرة كانت معه بداياته التبشيرية .

بداياته التبشيرية

بدأ ــ عليه السلام ــ دعوته باختيار حواريه الاثنى عشر ثم السبعين ، وأعطاهم سلطانا على شفاء المرضى وعمل المعجزات ، وقد شفوا مرضى وأحيوا موتى [1] وأرسل السبعين اثنين اثنين أمام وجهه [2] ثم كان لابد له أن يذهب إلى أورشليم مقر الهيكل ومجمع العلماء من مختلف الفرق اليهودية . وكان فى مدخل الهيكل باعة وصيارفة ،فانتهرهم وأمرهم بالخروج منه ، بل قلب موائد الصيارفة وكراسى باعة الحمام ، ولم يدع أحدا يجتاز الهيكل بمتاع [3] ، وأعلن أنه مكان للعبادة خاصة ، وبذا سجل على أحبار اليهود تهاونهم وتفريطهم فى مكانة الهيكل ، فأثار أحقادهم عليه ، ثم كان هو يعلم فى الهيكل فزادهم غضباً على غضب ، ولكن الناس فرحوا به وأحبوه .

وظلت فرق اليهود تدبر له المكايد وتحفيه يالأسئلة المحرجة ، ولكنه كان شديد الذكاء واسع الحيلة ، فكان ينتصر عليهم ويعجزهم .

عابوه أنه يجالس الخطاة فقال لايحتاج الأصحاء إلى طبيب ، بل المرضى[4] ، قالوا تلاميذك لايغسلون أيديهم قبل تناول الطعام ، فأجابهم إن الانسان لايتنجس بما يدخل فى فمه بل بما يخرج منه ، قالوا أتدفع الجزية لقيصر أم لا ، قال أورنى

(١) أنظر متى حى ١٠ / ٥ ــ ١٠ ، ومرقس ١٥/٣ ، ٧/٦ــ١٣ ، وأعمال الرسل .

(٢) لوقا ١٠ ; ١ .

(٣) مرقس ١٧ ; ١٦ ــ ١٧ .

(٤) مرقس ٣ ٣ .

(٥) نفسه ٢ ; ١ ، وهناك أسئلة أخرى واحفاءات كثيرة .

عمله ، وكانت عليها صورة قيصر ، فقال لمن هذه قالوا لقيصر ، قال : اذن دعوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله [1] ، وعابـوا تلاميذه أن أكلوا سنابل القمح يوم السبت لجوعهم ، فقال لهم : السبت للانسان وليس الانسان للسبت ، وهى إجابة ذات مغزى كبير بما فيها من تسامح وعمق لفهم قوانين الشريعة .

وفى آخر أيامه قال لتلاميذه اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم [2] ، وبذا نجد أن فتح باب التبشير للناس جميعا بدأ فى حياة المسيح ، وهو كان قد نهاهم من الذهاب للأمم والسامرين ولكن لما يئس من استجابة اليهود وجههم للناس عامة .

نظرة فى معجزاته :

فى القرآن الكريم وفى الأناجيل فيض من المعجزات والخوارق التى جاءت على يديه ــ عليه السلام ــ وهناك معجزات ذكرت فى القرآن ولم تذكر فى الأناجيل ، وأخرى ذكرت فى الأناجيل ولم تذكر فى القرآن . ويقتضى درس حياته أن نقف لديها وقفة قصيرة .

والمسلمون والنصارى متفقون على أنه ــ عليه السلام ــ ولد من غير أب بشرى . وجاء فى سورة آل عمران : إذ قالت الملائكة يا مريم أن الله يبشرك بكلمة منه ، اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين ... ورسولا إلى بنى اسرائيل أنى قد جئتكم من ربكم أنى أخلق لكم من الطين لهيئة الطير فانفخ فيها فتكون طيرا بإذن الله ، وأبرىء الأكمة والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وماتدخرون فى بيوتكم .

وفى سورة المائدة : إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا ، وإذ علمتك

(١) مرقس ٧ ١٥ ــ ٥٣ .
(٢) نفسه ص ٢ ، ٢١ ــ ٢٧ .
(٣) متى ٢٨ ١٦ ، وفى مرقس ١٦ ، ١٥ ، وقال لهم اذهبوا إلى العالم أجمع ، واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها .
(٤) الآيات ٤٥ ــ ٥٠ والأكمة الأعمى الذى ولد أعمى .

الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى ، وتبرىء الأكمة والأبرص باذنى ، واذ تخرج الموتى بإذنى ... الخ (١).

والمعجزتان ـــ كلامه فى المهد وخلقه من الطين كهيئة الطير ، لم تأتيا فى الأناجيل الأربعة ، ولكن جاء أنه وهو فى الثانية عشرة من عمره حاور الكهنة فى الهيكل وأدهش الناس بحواره وعلمه . واستبعد صاحب المنار خلقه من الطين كهيئة الطير ، لأن الأناجيل ما كانت لتهمل هذه المعجزة ، بل كان ولابد أن تتوسع فى ذكرها ، وتوقع أن تكون معجزة بالقوة لا بالفعل ـــ بمعنى أنه كان يستطيع ذلك لو دعا الأمر إليه ، كذلك لم ير أن احياءه الموتى كان بهذه الكثرة التى جاءت فى الأناجيل ، وأن المعجزة تتحقق باحيائه ميتاً واحداً (٢).

وجاء فى الأناجيل المندثرة ـــ انجيل الطفولة ، وإنجيل توما من نوادر طفولة المسيح أنه كان يلهو مع أترابه فى صنع طيور من طين ، ثم ينفخ فيها فتطير(٣).

أما معجزاته الأخرى فقد أفاضت فيها الأناجيل إفاضة واسعة ، وقد جاء فى متى : وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم فى مجامعهم ... ويشفى كل مريض وكل ضعيف فى الشعب ، فذاع خبره فى جميع سوريّة ، فأحضروا إليه جميع السقماء المصابين بأمراض وأوجاع مختلفة ، والمجانين ، والمصروعين فشفاهم ، فتبعته جموع كثيرة من الجليل والعشر المدن وأورشليم واليهودية ومن عبر الأردن (٤)، كذلك نجد أحاديث مستفيضة عن شفاء المجانين والمفلوجين ، ومن تسكن أرواح الجن أجسادهم . وهذه الكثرة دعت بعض الناس إلى انكارها ودعت الشيخ رضا إلى انكار كثرتها ، ولسنا بصدد مناقشتها ولا محاجّة منكريها ونحن نعلم أن هناك من أنكر وجود المسيح نفسه .

---

(١) الآية ١١٠ .

(٢) أنظر تفسير النار فى الآيتين السابقتين .

(٣) أنظر كتاب « يسوع فى زمانه » ص ٥١ . من المنشورات العربية فى بيروت تموز ١٩٦٩ ترجمه من الفرنسية حبيب باشا البرلسى .

(٤) ص ٤ / ٢٣ ـــ ٢٥ .

وعدا معجزات الطب للمرضى وشفاء المجانين كان يأمر الرياح فتهدأ والبحر المائج فيسكن ، ويمشى على الماء ، وأصبح ابن قائد مائة كان مفلوجا من غير أن يذهب إليه ، وكان القائد واثقا فى قدرته على شفائه وهو مكانه .

وهكذا ظل يأتى بالعجائب والناس دهشون من أعماله ، ولكن الفرق اليهود عارضته وكذبته ، وكما قال هو : لا كرامة لنبى بين قومه ، وأجمل أعماله فى رسالته إلى يوحنا المعمدان فى سجنه قائلا لرسله : « العمى يبصرون والعرج يمشون والبرص يطهرون والصم يسمعون والموتى يقومون ، والمساكين يبشرون ... »[1] .

ومع كل هذه المعجزات كان فى حياته منكرون لها حتى أخوته لم يكونوا به مؤمنين[2] ، وقد تحدوه أن يذهب إلى اليهودية ؛ وقالوا إن كنت تعمل هذه الأشياء فأظهر نفسك للعالم .

---

(١) متى ص ١١ / ٢ — ٦ .

(٢) يوحنا ص ٧ / ٥

الظروف العامة التى ظهرت فيها المسيحية

قلنا أن المسيح أعلن دعوته فى عهد الامبراطور تيبريوس (١٤ — ٣٧م) وفى عهده أيضا كانت نهاية المسيح وانتقال التبشير بدعوته إلى أتباعه ، وحديثنا عن الظروف التى ظهرت فيها المسيحية لايعنى مدة قيام المسيح بدعوته ، بل يعنى أيضا ظروف الحياة التى سبقتها ، وكانت هى طِبًّالُها ، وأيضا الظروف التى واجهته وواجهت دعاته من بعده ، ودراسة الأناجيل تعكس من طريق مباشر وغير مباشر — آثار هذه الظروف ونعى المسيح على الناس مساويها وطلبه باصلاحها. ويكفى ونحن بصدد الحديث عن التبشير أن نلم بها الماما مجملا، ولمن شاء أن يرجع إلى المصادر المطولة [1] .

ولسير الدعوة بعد المسيح مباشرة نجد صورة لا بأس بها فى أعمال الرسل والرسائل التى مع هذا السفر ، ونجمل هذه الظروف فيما يلى :—

١ — الظروف السياسية :

كان الاسرائيليون منذ عودتهم من منفاهم فى بابل يقيمون فى فلسطين فى حياة متواضعة ولم يكن لهم ملك بل كانت حكومتهم تحت رياسة دينية . ولم يكن لهم علاقة بالدولة الرومانية التى كانت تمتد وتتسع تدريجيا لتخلف الأغريق فى سلطانهم ومستعمراتهم .

وفى القرن الذى ولد فيه المسيح كانت روما قد استهدفت لثورات متتالية حتى سميت السنوات التى سبقت ميلاده (١٤٦ — ٣٠ ق م) عصر الثورات . وبينما كانت الدولة تعانى انقسامات داخلية كان الارقاء والقراصنة يثيرون تمردا عنيفا يوشك أن يقتص أطرافا من الدولة .

وفى سنة ٧٦ ق م استطاع القائد بومبى أن يقضى نهائيا على ثورات العبيد ،

(١) كتب تاريخ العصور الوسطى تصف هذه الظروف بسعة وأيضا كتب التاريخ القديم .

ومضى يتتبع أوكار القراصنة فى جزر وخلجان بحر ايجه حتى طهره نهائيا وأعاد البحر الأبيض إلى حالته الأولى الآمنة ، وكافأته الدولة بتعينه قائدا على الجيش الرومانى فى آسيا الصغرى فقضىٰ أيضا على أعداء الدولة هناك ومدَّ حدودها إلى أعالى الفرات واستولى على سوريا ، فصارتْ مقاطعة رومانية وأصبح رئيس الهيكل الاسرائيلى خاضعا للدولة الرومانية وتحت سلطان حاكمها .

ثم ظهر يوليوس قيصر فطارد بومبى حتى الجأه هاربا إلى مصر فاغتيل بها ، وأخضع القيصر مصر وتزوج كليوباترا فى تاريخهما المعروف ، وتزوجها بعده أنطونيو ثم قضى عليهما أوكتافيو فى تاريخ لا يعنينا ذكره .

وكأفأت الدول أوكتافيو بجعله حاكمها الأعلى وخلعت عليه لقب أوغسطس أى العظيم ، وفى عهد هذا الامبراطور ولد المسيح عليه السلام ، ومات هو سنة ١٤ م .

ولم يكن لأوغسطس عقب فتولى الحكم بعده ابن زوجته تيبريوس الذى أعلن المسيح دعوته فى عهده ، وكان بغيضا لدى شعبه ، وكان يحس بهذا البغض ويخشاه حتى انتابته الشكوك والمخاوف فقتل عددا كبيرا من الناس لذلك . ثم اعتزل الناس وعاش فى جزيرة كابرى[1] ومات سنة ٣٧ م .

ولد المسيح اذن وفلسطين مقاطعة رومانية .

ولم يكن استقرار الرومان فى فلسطين أمرا هيناً ، فالشعوب التى كانت فى سوريا كلها كانت تبغضهم ، وازاء ما بين الروم وبين الفرس من عداء وحروب كان الاسرائيليون بطبيعة الحال فى جانب الفرس ، ولكن رئيس الادوميين هارود كان فى جانب الرومان ، فلما تم لهم النصر كافأوه بتنصيبه ملكا على اليهودية والسامرة والجليل مسقط رأس المسيح ، وكان مغضوبا عليه من اليهود بوجه عام ، ولم يغن عنه ما بذله من أعمال دينية منها العناية بالهيكل أو اتمام بنائه على نفقته ، وثار عليه جمع من أعدائه وهو مريض فعقد لهم محكمة وحمله جنوده ليحاكمهم فيها فحكم باحراقهم ، وحبس عددا من الزعماء ، وأمر أن يقتلوا وأعيد إلى بيته وهو

(١) وأقدم المراجع لوصف حياته فى معتزله ما كتبه المؤرخ الرومانى تاسيتوس :

The Ancient world by Mowat & Kelly : Mayflwer history186 - The story of the ancent world by H: A. Clement. London - 174

يتوقع الموت ، فأوصى أخته أن تخفى موته إذا مات إلى أن تقتلهم كيلا يشمت به الشعب . إذ يذهب حزنهم على القتلى بفرحهم بموته [1] .

وقسمت الدولة بعده بين أبنائه على ما كان جاريا فى تلك العصور ، وكانوا بغيضين أيضا لدى الاسرائيلين وكانت أخلاقهم تثير كراهية ضدهم أشد ، ولم يكونوا هم على وفاق فيما بينهم .

وكانت أصول الدين اليهودى مبعث عداء أعمق للدولة الرومانية ، فالديانة اليهودية لا تدين للملك غير « يهوه » أو من يكون من أنبيائه وخضوعهم للامبراطور الرومانى الوثنى اثم وكفر ، وقد قامت لهم ثورات عديدة كان آخرها الثورة التى هدم تيطس من أجلها معبد أورشليم سنة ٧٠ م .

هذه فكرة موجزة عن ظروف السياسة فى عهد المسيح ، وفى الاناجيل لمحات تشير اليها .

٢ ـــ الظروف الاجتماعية :

كانت نظم الحكم الرومانى المعمول بها فى الدولة تخالف ما شرعته فى قوانينها ، وكانت الفوارق الواسعة بين الطبقات تثير فى النفوس نفورا وكراهية تكبت أحيانا وتنبعث عنها الثورات أحيانا أخرى ، العبيد الذين كثروا كثرة فاشية ، والزراع الذين يعانون الكدح الدائب والاملاق والذلة والهوان كانوا أيضا أكثر عددا وأشد ضيقا وكانت قوة الدولة العسكرية هى التى تكبت هذه المشاعر ، وإلى جانب ذلك كانت الضرائب الفادحة ونظام جمعها مما أرهق الشعب وأثار فى نفسه ضيقا أكثر .

وكانت رسالة المسيح ـــ كما أشرنا لذلك فيماسبق ـــ محاولة لاصلاح هذا الفساد ونعيا على الدولة ورجال الدين جميعا ما سكتوا عنه من فساد وما أثاروه من مخالفات للقوانين ، وتبشيرا للفقراء والمحرومين بعوض فى الدار الآخرة .

(١) راجع تاريخ سورية جـ ١ ، وفيه أنه تزوج عشر نسوة وقتل بعضهن وبعض أفراد من أسرته
The Life & times of Jesus Messiah - 111 - 141 V : VI, Ninuans
وأنظر عبقرية المسيح .

٣ ـ الحالة الدينية :

لكى نتبين بوضوح حال اليهود الدينية حين اعلان المسيح دعوته نرجع إلى حادث النفى البابلى وما ترك بينهم من آثار دينية ، فغداة سيقت وفود الاسرى منهم إلى أرض الرافدين أرسل الملك البابلى جماعات اشورية لتقيم فى فلسطين سدا للفراغ الذى حدث ورغبة فى تحويل البلاد أو صبغها بصبغة بابلية ، وقد اختلط هؤلاء باليهود الباقين فى فلسطين ، كما اختلط اليهود المنفيون بالبابليين هناك ، ولكن يبدو أن البابليين هناك كانوا أكثر تأثيرا على اليهود الذين نقلوا فأدخلوا عليهم عادات وتقاليد دينية لَمْ يرضها الآخرون ، ولما أذن الملك الفارسى كورش للاسرائيليين بالعودة لم يعودوا جميعا ، إذ كان منهم جماعات اتخذوا لهم هناك مزارع وممتلكات وارتبطوا مع سكان البلاد بالمصاهرة والتجارة وبثوا دياناتهم بين البابليين ، فآثروا البقاء ، وكان البابليون فى فلسطين قد استقروا فى القسم الشمالى أخصب الاقليمين والذى ناله سبى نبوخذ ناصر قبل القسم الجنوبى . وقد كانت الطائفة السامرية تحوى خليطا من الاشوريين والبابليين . واتخذوا لهم عادات وعبادات لم يقبلها الاسرائيليون الآخرون .

والذين عادوا من النفى أنكروا أيضا عملهم هذا واعتبروهم غير يهود أصلا ، ولما أخذوا فى اعادة الهيكل فى أورشليم أراد هؤلاء مشاركتهم فى بنائه فلم يقبلوا لأنهم اعتبروهم عباد أوثان لايصح لهم الدخول فى زمرتهم ـ فذهب السامريون يقيمون لهم هيكلا فى « جرزيم » وظل هيكلهم ينافس الهيكل الاصلى نحو مائتى عام[1] ، وكانوا يريدون صرف الناس اليه وحده فيتعمدون تدنيس هيكل أورشليم.

(١) راجع سفر الملوك الثانى اصحاحات ١٩ ، ٢٥ ومنذ عهد سليمان أخذ ، الاسرائيليون بمدنية الأمم المجاورة ولم تعد حياتهم رعوية بسيطة ، وأكثر من ذلك أنهم عبدوا آلهة الكنعانين وغيرهم ، بل يذكر هذا السفر أن سليمان نفسه أمال النساء الأجنبيات قلبه فعبد آلهتهم وهو قول لايقبل ولكنه يدل على شيوع هذه العبادة بين بنى اسرائيل وتبنيهم عادات الكنعانيين لأنهم أرق منهم حضارة وكانت آلهتهم ذات تماثيل فى مختلف المدن خصوصا الإلهين بعل وعشتروت ، وكانت المدن الشمالية ذات الحظ الكبير من الحضارة هى التى انغمست أكثر فى هذه الموبقات ـ أما الأجزاء الصحراوية والأقل خصوبة فكان بها قوم لايزالون على بداوتهم وعلى دياناتهم ، ومن بين هؤلاء قام الأنبياء اليجا إليشا وعاموس وغيرهم ، وهؤلاء قاموا بالوعظ والانذار بين سكان المدن الشمالية ولهم فى هذا خطب وأحاديث مروعه . وكان النبى عاموس يعيش بين الرعاة فى عهد عزيا ملك يهوذا ، وفى أيام يربعام ملك اسرائيل ، وجاء فى كلامه: =

ـــ هيكل بيت المقدس ـــ مما حدا بأحد رؤسائه أن يأمر بهدم هيكلهم فى جرزيم فهدم قبل ميلاد المسيح بنو مائة عام ، ولكنه أعيد بعد ذلك ، ولم يهدم إلا بعد زوال الهيكل الأصلى ـــ هدمه الرومان عقب ثورة لهم [1] وبلغ العداء بين اليهود والسامريين غايته فى عصر المسيح ، وقد مر ببئر يعقوب فطلب من امرأة سامرية أن تسقيه فعجبت أن يقبل شرابا من يدها ، وقالت : كيف تطلب منى لتشرب وأنت يهودى وأنا امرأة سامرية [2] وكانت البئر بئر يعقوب ، والسامريون يرون أنهم وحدهم أبناؤه وكانوا يعادون داود وذريته ، ولا يرون كهنة الهيكل فى أورشليم جديرين بالقيام على دعوة التوراه ، ولا أنهم إذا حان الوقت لقيام ملك على بنى اسرائيل يصلح منهم من يستحق مُلكا ، وللسامريين توراتهم الخاصة ولا تزال موجودة وكانت مكتوبة بلغتهم ، وهى تقتصر على كتب موسى الخمسة لأنهم لايؤمنون بما بعدها .

الفرق اليهودية :

ربما كان من الأنسب أن نذكر شيئا موجزا عن الفرق الدينية اليهودية فى عصر المسيح لأن عرضها كاملة مما يستدعى حديثا مطولا ، ومن أشهرهم طائفة الصدوقيين « أتباع صدق » الذى كان وأسرته يتولون الكهانة والقيام على الهيكل فى عهد سليمان ـــ وكانوا شديدى التمسك بحرفية النص ، وكانوا لا يؤمنون بالبعث

= « ... أن الرب يزمجر من صهيون ويعطى صوته من أورشليم فتنوح مراعى الرعاة ييبس رأس الكرمل ص ١ / ٢ ، ويتابع قول الرب : من أجل ذنوب دمشق ، من أجل ذنوب غزة من أجل ذنوب صور من أجل ذنوب آدوم ... وهكذا يذكر عقب كل اقليم ذنوبه مما يوضح أنها كانت ذنوبا مستفيضة شائعة ، وفى الاصحاح السادس : ويل للمستريحين فى صهيون والمضطجعين فى جبل السامرة ... المضطجعون على أسرة العاج ... الاكلون خرافا من الغنم وعجولا من وسط الصيرة .. المخترعون لأنفسهم الات الغناء كداود ، الشاربون من كؤوس الخمر ... المدهنون بأفضل الأدهان ... » والسفر كله يفيض بوصف ما كان لهم من مظاهر ثم ينذرهم بالويل والثبور (راجع سفر عاموس) ص ٦ ـــ وكانت رسالته حوالى ٧٥٠ ق م ، وكان أميا ، وقيل يقرأ ولا يكتب (تاريخ سورية) ٢٣٣/١ .

(١) أنظر حياة المسيح فى الكشوف والتاريخ ص ٤٨ ، ٤١ ط دار الهلال وتاريخ سورية ٢١٤/١ .

(٢) أنظر يوحنا ص ١٤ / ٤ ـــ ١٣ .

بعد الموت ولا بالحياة الأخرة[1] وإنما هو نعيم هذه الحياة ثم مملكة اسرائيل التى تشمل العالم كله ، هذا لأن كتب التوراة الخمسة لا تذكر بعثا ولا حسابا ، كما كانوا ينكـــرون كل تفسير مستحدث لأنهم محافظون ـــ وكانوا على وفاق مع أصحاب السلطان من الرومان واليونان ، وكان عداؤهم للمسيح بارزا جدا .

وتولى محاكمته اثنان من كهنتهم هما « حنانيا » و « قيافا »[2] ـــ وكانوا يرون دعوته إلى التسامح ومناداته بما يخالف الوصايا العشر خروجا على نظام الهيكل لأنهم كانوا شديدى التمسك بحرفية النصوص ، ولكنهم فى عاداتهم العامة وظروف معيشتهم لم يكونوا يتحرجون من الأخذ بمظاهر الحضارة اليونانية والرومانية ، وكانوا من ذوى الثراء وأصحاب الأعمال مما جعلهم يتصلون بالأجانب ولا يرون فى ذلك حرجا .

ويلى الصدوقيين طائفة بارزة أيضا تسمى طائفة الفريسيين ، وهى تسمية تعنى الفرز والتمييز ، ولعلهم كانوا يرون أنفسهم هم المستحقين وحدهم أن يكونوا بنى اسرائيل لأنهم كانوا يرجعون بهذه التسمية إلى ما جاء فى سفر اللاويين بعد أن سرد الوصايا العديدة التى كلم الرب بها موسى ، فقال : « وتكونون لى قديسين لأنى قدوس . أنا الرب ، وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لى »[3] ، وهى تعنى الانعزال عن الوثنيين .

وكان لهم أتباع أكثر من الصدوقيين ، وامتازوا بالمحافظة على مبادىء اليهودية واستعدادهم للتضحية فى سبيلها ، وأشهر حادث لهم فى هذا وقوفهم فى وجه أنطوخيوس سنة ١٦٨ ق م ، إذ أمر كاهن الهيكل أن يضحى بالخنازير فثاروا عليه ثورة جامحة غير مبالين بموتهم فى سبيل هذه البدعة ، وكانوا على هذا الاستعداد دائما . ويقال أن المسيح فى صباه تلقى عنهم ، ولكنا نجد له ثورة عليهم فى غير موقف وتوبيخا لهم لانكارهم بعض ما يفعل ، ثم يحذر الناس من إتّباعهم . وهم بدأوه بالعداء وعابوا أكله مع العشارين والخطاة وتلمذ عليهم بولس أيضا ، وقد ورث أتباع المسيح عنهم الاستعداد للتضحية ، وتحمل المشقات فى سبيل الدعوة .

(١) متى ص ٢٢ / ٢٣ .
(٢) قيافا كان رئيس الهيكل وحنانيا صهره زوج امرأته .
(٣) ص ٢٠ / ٢٦ .

ويلى هاتين جماعة الآسينيين ، وكانوا ذوى طريقة خاصة فى عبادتهم ، وكانوا ينفرون من الآخرين ، ولا يربطهم بالقائمين على الهيكل وفاق . وبداية نشأتهم فى مدرسة الاسكندرية فاقتبسوا كثيرا من الفلسفات التى كانت تدرس بها وخصوصا مذهب فيثاغورس فكانوا يحرمون ذبح الحيوانات احتراما للأرواح التى تنتقل من جسم لآخر ، وكانوا يدينون بالتقشف البالغ الذى لا يبيح للشخص أن يملك ما يزيد على حاجته ، وكان انتظامهم فى نحلتهم على درجات يتلو بعضها بعضا ولهم نظام خاص فى احتفالهم بيوم السبت (١) .

وكان هناك طوائف أخرى ذات مذاهب خاصة ، وهذه الفرق على تعددها يحارب بعضها بعضا ، وكل يدعى أنه على الحق وأن له فى مذهبه سندا من الكتاب ، وازاء هذا الاضطراب والبلبلة أثر كثيرون أن يعتزلوا كل هذه الجماعات وأن يكتفوا بالعبادة والرياضة الروحية فى الكهوف وفى جوف الصحراء .

وبسبب هذا الضيق البالغ بات الناس يترقبون ظهور النبى المخلص ، وكان موعد ظهوره فى حساب الفلكيين قد أظل أيضا ، فلما أعلن المسيح دعوته وظهرت على يديه معجزات خارقة كان خليقا أن يستهوى جماهير الناس وأن يلتفوا حوله وكانت دعوته مع هذا خليقة أن تثير غضب الطوائف العديدة عليه ، وأخيرا انتصر اعداؤه على محبيه .

ومهما يكن من أمر هذه الخلافات فانها ورثت المسيحية أيضا آراء وأفكارا متباينة وكانت بطبيعة الحال من لبنات بنائها ، ومن أسباب تعدد فرقها .

والواقع أنه لم تكن هناك يهودية مخلصة للدين ، ولم يكن الأحبار يخلون من نفاق ، هذا فضلا عما كانوا عليه من تحجر العقيدة والوقوف عند قوالب الألفاظ ، وهذا فى الواقع من أهم أسباب العداء بينهم وبين السيد المسيح (٢) .

والعهد الجديد يعكس صورا محزنة عما فعل اليهود معه ، وقد وقفت فرقهم

---

(١) أنظر متى ص ٩ / ١٠ ، ص١٥/١. محاورته مع الكتبة والفريسيين ، ص ١٦ / تجربة منهم من الصدوقيين وأنظر مرقس ص ١/٧ ، ٨ / ١٤ .

(٢) راجع عن الفرق اليهودية ـــ عبقرية المسيح (حياة المسيح فى الكشوف والتاريخ) . وأنظر :
The Religious Experience of mankind pp 376 - 79 ; The legacy of the Ancent world. p. 320 p. 320, and Jesus in the background of History p. 14.

كلها ضده ، ولم يتورعوا عن طعنه فى نسبه فقالوا أنه ابن يوسف النجار فكيف يكون نبياً ، وترصدوه فى كل مكان ، يواجهونه بالاعتراضات ويحفونه بالاسئلة المحرجة والتحديات [1] وإزاء هذا الاعراض تحول بدعوته إلى الأمميين [2] وضرب لذلك مثلا صاحب الوليمة الذى تغيب مدعووه ولم يحضروا لتناول طعامه ، أنه لايرمى الطعام ولكن يدعو له آخرين [3] ولكن اليهود لكى يتخلصوا منه ألقوا عليه تهمة أكبر ، قالوا أنه يريد أن يكون ملك اليهود وقدموه للمحاكمة على هذه التهمة [4] ولم يجد بدا من الهرب فهرب ، ويعتقد المسيحيون أنه صلب ليغسل بدمه خطيئة آدم حين عصى الله وأكل من الشجرة فى الجنة ، فبقيت الخطيئة فى عقبه حتى محاها المسيح.

كانت المدة التى قام خلالها بدعوته قصيرة ، قد تكون ثلاثة أعوام أو أقل تنقل بها فى أرجاء فلسطين ، واستجاب له جماعة من اليهود كانوا يسمون اليهود المسيحيين واختفوا بعد سنة ٧٠ م عندما حطم الهيكل ولكنهم لم يفنوا نهائيا . وكانت دعوته خليقة أن تجتذب عدداً أكبر لولا قصر مدته ، ولم يكن تلاميذه حتى أخريات أيامه يعرفون أنه المنقذ الموعود ، ولكن حيث ألقى عليهم واجب القيام بالدعوة بعده ، بذلوا فى سبيلها كل ما استطاعوا ، وتحملوا كما تحمل مشقات القيام بها ، ودعا بعض المتحمسين أمثال ريمون لول أن يعمل كل مبشر بجرأة وقوة حتى ولو كان فى ذلك حتفه ، وواجب المبشرين اذن أن يُنَصِّرُوا العالم كله قياما بالواجب الذى ألقى على عاتقهم واكما لا لرسالة المسيح كما أمرهم[5] .

(١) للدكتور جول كارمينيكال Jol Carmickal أستاذ الدراسات العبرية واللاهوتية بجامعة نيويورك ، كتاب « وفاة المسيح » The Death of Jesus دافع فيه عن اليهود ، وحاول تبرئتهم من محاكمة أو التحريض عليه ، وهو يرى أنه ادعى — فى نظر الرومان ما يجعله ملكا لليهود ، فهو حين دخل أورشليم ، أمر باحضار اتان وجحش ليدخلها راكبا ليحقق ما قاله زكريا ٩/٩ ، قولوا لابنة صهيون هوذا ملكك يأتيك وديعا راكبا على اتان وجحش ابن اتان (متى ٥/٤/٢١ ، ومرقس ١/١١ـــ١١) وكان الجميع يهتفون مباركة مملكة أبينا داود الآتية باسم الرب .

(٢) الأمم الأخرى غير اليهود The Jentil . (٣) متى ص ٢٠ وقد سبق هذا ولم نر بأسا بإعادته هنا .

(٤) بالرغم من كل ما بذل د. كارمينكايل من محاولات لتبرئة اليهود لاتزال الأدلة قائمة على عدائهم له ، والأسئلة الكثيرة التى كانت الفرق اليهودية تتحداه بها واضحة الدلالة فى عدائه ، ثم هم أصروا على عدم العفو عنه .

) أنظر متى ١١/١٨ — ٢٠ ، مرقس ١٤/١٦ — ١٨ ، ويوحنا ١١/٢٠ — ١٣ ، ولوقا ٤٨/٢٤—٨ وأنظر أعمال الرسل ٤/١ — ٨ .

الصلب والفــــداء

تصور الأناجيل نهاية المسيح بصورة محزنة، إذ انتهت بتعليقه على الصليب وإهانته وسخرية الناس منه ولكنه تحمل كل هذه الآلام لفداء البشر . فما شرح هذا ؟

تقوم عقيدة الصلب والفداء على أن آدم أبا البشر ورث ابناءه إثم المعصية الأولى ، وهى معصيته هو حين أكل من الشجرة المحرمة فى الجنة . وظلت هذه الخطيئة عالقة فى ذريته حتى جاء يسوع ، وهو ابن الله وابن مريم ، فجمع بين الألوهية والبشرية ، وصلب جسمه البشرى ليمحو الخطيئة من أبناء آدم .

والاسلام يفترق عن المسيحية فى هذين الأمرين ، فمن بادىء الأمر ينفى بنوة المسيح لله ، وقد أكد القرآن هذا النفى فى آيات كثيرة ، كما نفى أن تكون الملائكة بنات الله ، وقرر أن الله سبحانه . لم يلد ولم يولد ، وأنه تفرد بالألوهية وتنزه عن الشبيه والولد . كذلك لايقبل تحمل شخص إثم شخص آخر ، إذ لاتزر وازرة وزر أخرى ، وكل امرىء بما كسب رَهِين .

أما الصلب فظل مثار جدل بين الكثيرين مسلمين وغير مسلمين ، نفى الاسلام صراحة أن يكون المسيح قد صلب ففى القرآن : « ... وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وأن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، مالهم به من علم الا أتباع الظن وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما » [1] .

وفى آية أخرى : « إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا » [2] .

وقال المفسرون إن الرفع فى الآيتين يعنى أنه يجعله أرفع مكانة وأسمى من أن تنال منه يد البشر ، وأما كلمة « متوفيك » فى الآية الثانية ، فتعنى موفيك الأجل الذى لك على الأرض لبلاغ رسالتك فلن يقتلوك .

(١) سورة النساء الآيات ١٥٦ — ١٥٨ .

(٢) سورة آل عمران ٥٥

وفى كتب التوحيد الاسلامية أنه رفع إلى السماء ، وأنه باق على حياته حتى ينزل فى آخر الدنيا وقريبا من الساعة . فيقتل المسيخ الدجال ، ويبشر الناس برسالة النبى محمد ﷺ وقد ناقش الشيخ رشيد رضا هذه الفكرة ، وقرر أن المسيح بعد إذ نجا من الصلب مات كما يحدث للناس جميعا . وأن فكرة رفعه إلى السماء منقولة من المسيحية [1] . مخالفا فى ذلك ما فى الأناجيل من أنه انبعث بعد دفنه وودع تلاميذه ثم حملته سحابة أرجوانية إلى السماء ليجلس عن يمين أبيه، ثم ينزل فى آخر الزمان يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا [2] .

وفكرة نزول هاد فى آخر الزمان ، وظهور مخلص للناس من الفساد فكرة شائعة فى كثير من الأديان ، ولايزال اليهود ينتظرون ظهور المسيح .

والدارسون المحدثون — خصوصا من لم يتقيد بدين — يردون عقيدة صلب المسيح ثم قيامه من قبره بعد دفنه إلى ما كان شائعا من قبل عن موت الآلهة فى موسم معين ثم بعثهم بعد ذلك ، فاله الخصوبة يموت فى فصل الخريف ، ثم ينبعث ثانيا فى فصل الربيع ، والاحتفال بعيد استير فى الوقت الحاضر امتداد لهذه العقائد القديمة ، والآلهة فى الشرق الأدنى كانت آلهة زراعية . وامتصت المسيحية منها ضمن ما امتص هذه العقيدة ، وكذلك فكرة صعود الروح إلى السماء التى توارثها العالم منذ عهد أفلاطون صورت فى صعود المسيح وجلوسه عن يمين أبيه فى السماء . وفكرة الخلاص كانت موجودة من قبل ، ولكن الكتاب المسيحيين مع تسليمهم بسبق هذه العقائد يرون المسيحية جاءت بشىء فريد جديد[3] .

وفى القرن الثامن عشر — عصر الشك والشكاكين — أنكروا معجزات المسيح كلها بما فيها صلبه وقيامه بل هناك من أنكر وجود المسيح وموسى وبعض الأنبياء أصلا ، وهؤلاء لا يلتفت إليهم فى شىء .

وأثار بعض الدارسين المحدثين شكوكا أخرى حول حادث الصلب لأن

---

(١) راجع فى هذا تفسير الآيات السابقة فى المنار ، وكتابه عقيدة الصلب والفداء .

(٢) تجد توضيحا لهذا الفصل الذى عقده هنرى دى لوباك فى كتابه Catholism p 67. وقد ترجم إلى الانجليزية ، ونشرته دار Burns & Oates فى لندن .

الأسباب التى من أجلها حوكم المسيح وحكم عليه ليست واضحة ، وقصة محاكمته ونهايته ليست متفقة فى الأناجيل،ولأن العداء له وطلب عقوبته كان من الصدوقيين لأسباب دينية ، وهى لا تكفى لمحاكمته وصلبه . فاتهموه بتهمة سياسية هى ادعاؤه الملك ، وهذا لم يثبت ولم يقبله الحاكم ، ثم أن باراباس الذى ظفر بالعفو [١] لم يذكر له اسم من قبل ولم يذكر فى غير هذا الوضع ،..ومن الشذوذ أن يطلق سراح ثائر سياسى ويصلب صاحب دعوة دينية [٢] .

والموقف الشاذ حقا هو اصرار الشعب على صلبه بعد كل الذى قدمه له من شفاء المرضى واحياء الموتى ، وقد كان قائد المائة الذى أصح المسيح ابنه المفلوج خليقا أن يكون هناك ، وكان هناك نساء كثيرات[٣]. وكان المارة يسخرون منه ويقرعونه ، والجند أيضا يهزأون به ، وكان له عنوان كتب فيه بالأحرف اليونانية والرومانية والعبرانية هذا ملك اليهود[٤] .

وحيث أبدى الوالى رغبته فى إطلاق سراحه وأبدى براءته من دمه لم يكن شيء يخيف أنصاره ، وكان من المنطق الطبيعى أن يقول واحد أو عدد أطلق يسوع ، فباراباس لا نفع وراءه أما يسوع فانه يحيى موتاهم ويشفى مرضاهم ويزيل آلامهم... فهو أولى أن يطلب العفو عنه .

هذا الموقف الشاذ هو الذى أوحى بنكران معجزاته،أو انكار كثرتها،وهو أيضا يوحى بانكار حادث الصلب .

. أما رفعه إلى السماء وبقاءه حيا على يمين أبيه ، فهو أمر ناب عن العقل والعلم، وجاء فى كتب التوحيد الاسلامية قريب من هذا — كما ذكرنا — وهى فكرة منقولة عن المسيحية ، وتبناها الشيعة ونحلوها الامام المنتظر .

---

(١) كان يهوديا ثائرا سبب اضطرابا بين الشعب . وسجن ، وكان معتادا أن يطلق الوالى فى عيد الفصح سجينا حسبما يطلب الشعب . فطلبوا جميعا اطلاق باراباس وصلب عيسى .

(٢) يمكن مراجعة هذا الوضع فى كتاب The Religicus Experience of Men world by Nanien Smart وله هناك أدلة أخرى ص ٤١٢ — ١٣ .

(٣) أنظر مرقس ص ١٩ ، ومتى ٢٧ آ

(٥) أنظر لوقا ص ٢٣ / ٣٥ آ

ما الملك الذى ادعاه

جاءت فى العهد القديم عبارات توهم كونه ملك اليهود ، فعند ما بشر به الملاك أمّه قال لها : يعطيه الرب الاله كرسى داود أبيه ، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية (١) . وقد كان داود ملكا على بنى إسرائيل ، وهو عند اليهود ملك لا نبى ، أما يعقوب فهو رأس الأسرة كلها ، وأب للاسرائيليين جميعا .

وجاء فى سفر زكريا : ابتهجى جدا يا ابنة صهيون ، اهتفى يا بنت أورشليم ، هوذا ملكك يأتى إليك ، هو عادل ومنصور ، وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان (٢) وعندما دخل المسيح أورشليم : نزل على بعض الناس عند جبل الزيتون وأرسل اثنين من تلاميذه ليحضرا له أتانا وجحشا : « ليتم ما قيل بالنبى القائل : قولوا لابنة صهيون ، هو ملكك يأتيك وديعا ، راكبا على أتان وجحش ابن أتان » (٣) .

وفى حواره مع بيلاطس أنكر هذه التهمة ، فلما قال له : أنت ملك اليهود قال يسوع : أنت تقول ، وقد أنكر ذلك أيضا أمام مجلس الكهنة والشيوخ . والتوفيق بين هذين الموقفين ليس عسيرا ،فإرث مملكة داود ويعقوب لايعنى الا الدعوة الدينية ومملكة الروح ، لأن الملك على بيت يعقوب إلى الأبد ، والملك الذى لا نهاية له لايكون ملكا سياسيا .

قامت قبل المسيح ثورات يهودية عديدة ، أريقت دماء فيها وأزهقت أرواح ، ولم يكن من سمات المسيح ولا من خصائص دعوته مثل هذه الثورات ، بل تقوم دعوته وحياته كلها على السلام والمحبة ، ولم يرد فى الأناجيل ولا غيرها أنه ثار ضد الرومان ولا حرض على ذلك ، ولكنه بدأ دعوته مهاجما للفرق اليهودية ، فلفقوا له هذه التهمة ولم يقربها ولم تثبت .

وجاء فى مرقس أن الجميع كانوا حوله يهتفون : مباركة مملكة أبينا داود باسم الرب ، وربما أرادوه هم ملكا سياسيا ، ولكن جاء أنه هرب ولم يقبل ذلك

(١) لوقا ص ١ / ٣٠ — ٣٢ .

(٢) زكريا ٩ / ٩ .

(٣) متى ٢١ / ٤ — ٥ ، مرقس ١١ / ١ — ١٠ .

وأنظر 65 Jesus in the back ground of History by A.I. Pelack & W.W: Simpson.

وكل ذلك يجعل حادث الصلب غامضا .

وبدا الخلاف فى صلب المسيح وقيامه منذ وقوع الحادث ، ووجد فى لفائف البحر الميت أن من المسيحيين من ينكر الحادث .

ولست أريد فرض عقيدتى الاسلامية ، ويكفى ونحن بصدد بحث أكاديمى أن أعرض آراء الدارسين .

ففى انجيل برنابا أن الذى صلب هو يهوذا الاسخريوطى ، وأنه خان المسيح ودل عليه لقاء ثلاثين قطعة ذهبية . وأنه ذهب إلى المكان الذى كان المسيح مختبئا فيه مع الأحد عشر تلميذا الآخرين ، فلما سمع عيسى جلبتهم انسحب خائفا وأمر الله الملائكة فأخذوه من النافذة المشرفة على الجنوب ، وألقى شبهه على يهوذا ، فأخذه الجنود للمحاكمة ، وهو يصيح : أنا الذى أرشدتكم لتجعلونى ملكا ، إنكم جئتم بسلاح ومصابيح لتأخذوا يسوع ، ولكن الجنود لم يصدقوه . وقالوا مستهزئين به : لا تخف جئنا لنجعلك ملكا على اسرائيل ، ثم خانهم صبرهم فشرعوا يمتهنونه « بضربات ورفسات ، وقادوه بخنق إلى أورشليم .

والتأم المجلس الكبير للكتبة وشيوخ الشعب وحاكموا يهوذا على أنه يسوع ، وهى محاكمة أشبه بمحاكمة سقراط . وبخه رئيس الكهنة قائلا : أيها الضال المضل، لقد ضللت كل إسرائيل بتعليمك وآياتك الكاذبة ، مبتدئا من الجليل حتى أورشليم هنا » وكلما قال إنه يهوذا قالوا له أنت تتظاهر بالجنون لتنجو — وتمضى القصة فتذكر أن الوالى — بيلاطس — أراد أن يتخلص من هذه الدعوى فطلب أن يحاكم فى الجليل موطنه وكان أخوه هيرودس (الصغير) حاكمها ولكنه رده ثانيا إلى بيلاطس ... الخ .

وهذه القصة . قصة ارساله إلى هيرود وردِّهِ . ذكرها أيضا لوقا فى انجليه . وذكر الجميع اهانته وضربه وسخرية الناس منه حتى اللذين صلبا معه ، وكان المارة أيضا يسخرون منه .

وتعبيرات برنابا فى انجيله لا تكاد تختلف عن لهجة الأناجيل الأخرى[1] .

---

(١) انجيل برنابا ترجمه الدكتور خليل سعادة وقدم له بمقدمة ضافية وتحدث فيها عن النسخة الوحيدة الايطالية.

طبيعة الدعوة المسيحية

قلنا أن الدعوة المسيحية كانت استجابة لمتطلبات الحياة فى ذلك العهد ، أو هى رد فعل لما شاع فى حياة الناس ودعا إلى حتمية تغييرها ، وأساس كل انحراف كان فى هذه الحياة هو جفافها الروحى ، وضآلة الشعور بالمعنويات والقيم الأخلاقية ، ولاشك أن الحكم الرومانى هو المسئول الأول عن هذه الظاهرة ، ويليه رجال الدين اليهود ، إذ بينما هَمُّ الحكامَ الرومان أن يثبتوا أنفسهم ويبسطوا نفوذهم عنى أحبار اليهود ورؤساء فرقهم بتوافه الشريعة وقوالب الألفاظ ، ولم ينفذوا إلى ماوراء النصوص من حكمة وما لقواعدها من مغزى ، وما تهدف اليه من اصلاح.

وكان المجتمع الرومانى فى الشرق يسوده التفكك ، كبراؤه يحقد بعضهم على بعض وصغاره يعانون الظلم والفاقه ، ويحز فى نفوسهم سوء المعاملة والمبالغة فى الاحتقار ، ومن الرومان واليهود معا تجمعت عوامل الفساد وتجمعت بواعث الشكوى، اليهود يعتبرون أنفسهم الجنس الثانى فى الدولة [1] بعد الرومان — لكنهم خلو من القوة العسكرية ، ومن جانب الدين وسلطان الروح يرون أنفسهم الجنس الأول أو الجنس الوحيد ، ولم يكن اليونان يقبلون التنازل عن أوليتهم ، لأن الدولة الحاكمة تعيش على فلسفتهم وآدابهم ، واليهود وان كانوا أصحاب دين

= التى كانت من أنفس الذخائر والآثار فى مكتبة فينا ، وذكر قصة انتقاله وذكر فى أولها أن آراء الباحثين تضاربت فى هذه النسخة ، وتلمسوا حقيقتها فلم يظفروا بما يشفى غليلا ، وألقى ظلالا من الشك حول نسبة هذا الانجيل إلى برنابا الحوارى ، ومال إلى أنها منقولة من أصل عربى لما فيها من سمات إسلامية . وبما فيه من البشارة فى بمجىء محمد ﷺ .

أما الشيخ رشيد رضا ناشر الكتاب ، فقد عارضه فى المقدمة التى كتبها ، وقال بعض الباحثين « فرضوا أنه من وضع بعض المسلمين ، ثم حاروا فى حذر تعيين واضعه .. وما قال فيه أحد قولا إلا وجد من يفنده حتى رأى الدكتور سعادة ... أن يكون كاتبه يهوديا أندلسيا .. تنصر ثم دخل فى الاسلام » .. وعارض هذا الافتراض ، ولكنه اثنى على الدكتور سعادة ومن شاركوه رأيه ونفى عنهم ، كما أشاد بما فى الانجيل من عظات وحكم وآداب ، ويجدر بأبنائنا الدارسين أن يقتنوا هذه النسخة .

(١) Neil 15 .

سماوى لم يتخلوا عن ثقافة اليونان ، وكانت الطوائف الأخرى ترى لها حقا مهضوما أيضا وبها رغبة إلى المطالبة بانصافها .

لهذه الأسباب بات المجتمع الرومانى ، وخصوصا فى هذه البقة التى تتوفر فيها تعاليم اليهود ، يغلى بالأحقـاد والضغائن ، وباتت ضمائر الناس مليئة بالسوء قفرا من الخير ، وكان اليهود يدبرون القيام بثورة .

وجاءت دعوة المسيح طبا لكل هذه الأدواء ، نادت بالمحبة لاصلاح القلوب العامرة بالكراهية والحقد ، وطالبت باقامة مملكة الضمير واحتقار مملكة المال ، وأعلنت المساواة بين الناس لأن الله أبوهم جميعا والمسيح نفسه ابن الانسان ، والمجد لله وحده فى الأعالى ...

وهكذا نجد دعوة المسيح خلاصا من كل هذه الادواء ، وندرك أنها كانت حقا رد فعل لها بتأمل مقاصدها . فانظر على سبيل المثال قوله : أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم [1] تجد أن القلوب التى كانت عامرة بالكراهية كانت فى مسيس الحاجة إلى هذا التوجيه ، والقوم الذين صغرت نفوسهم فاحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، وعملوا القليل طلبا للثناء الكثير ، وما كانت لهم هذه الأخلاق الا لبعدهم عن الله وغفلتهم عن جزائه حتى همهم جزاء الناس وجنحوا إلى المراءاة ويقول المسيح لتلاميذه لا تضعوا صدقتكم قدام الناس لكى ينظروكم ، متى صنعت صدقة فلا تصوت بالبوق كما يفعل المراؤن ، لتكن صدقتك فى الخفاء فأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك عليها علانية ، لاتكنزوالكم كنوزا على الأرض بل أكنزوا لكم كنوزا فى السماء[2] وهذا يعكس صورة مما كان عليه الناس إذ ذاك .

وهو يجلس مع العشارين أبغض الناس لدى الشعب ، ومع المعروفين بارتكاب الآثام ، ويسأله الكتبة والفريسيون عن هذا الشذوذ فيجيبهم ، لايحتاج الاصحاء إلى طبيب ، بل المرضى .

---

(١) متى ص ٥ / ٤٢ — ٤٧ .

(٢) نفسه ص ١ وأنظر ص ٦ ، ٧ .

لم آت لادعو أبراراً ، — بل خطاة إلى التوبة (١) — وهو بهذا نقض ما كانوا عليه من ترفع ، ويأكل تلاميذه السنابل يوم السبت اطفاء لجوعهم ، فيحتج عليهم الفريسيون أنهم لم يصوموا يوم السبت ، فيقول المسيح : « السبت انما جعل لأجل الانسان ، لا الانسان جعل للسبت »(٢) .

فهو هنا يُقرّع هؤلاء الجامدين ، ويبين لهم أن النص بروحه لا بقالبه ، وطائفة الفريسين كانت ترى نفسها مميزة عن الناس ، كما ذكرنا .

وكان الأحبار قد سدوا باب التوبة أمام العصاة وتشددوا فى تنفيذ عقوبة الرجم والقتل بينما كانت تشيع الفاحشة بينهم حتى أنهم إذ أحضروا له امرأة ضبطت متلبسة بالزنا كانوا جميعا خطاة ، فقال لهم من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولا بحجر(٤) ، واغضى ناظرا إلى الأرض فاذا الجميع قد تسللوا ولم يبق أحد سواها .

كانت هذه الدعوة اذن دعوة تسامح ازاء ما شاع من تشدد ، ونفاذاً إلى روح الشريعة ازاء ما فشا من التمسك بقوالب الالفاظ ، وكان من الطبيعى أن تعارض من كل الطوائف اليهودية ، فما آمن لعيسى الا قلة منهم على خوف من الآخرين .

وجاء فى القرآن الكريم قوله عليه السلام « ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولاحل لكم بعض الذى حرم عليكم » كما جاء فيه « فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة » وجاء أيضا : « فاختلف الاحزاب من بينهم » .

ولم تكن دعوة المسيح متخلية نهائيا عن اليهودية ، لأنه نبى من أنبياء بنى اسرائيل ولم يأت لينقض الناموس بل جاء ليكمله ، وقد بنى دعوته على نسق ما كان لدى موسى فحواريوه اثنا عشر تلميذاً كما كان فى بنى اسرائيل اثنا عشر نقيبا ، ومن وراء هؤلاء كان له السبعون الآخرون كما أختار موسى قومه سبعين رجلا لميقات ربه ، وهذه اعداد مقدمة فى الديانة اليهودية ، وكانت أيضا فيمن حولهم من الأمم .

---

(١) مرقس ص ٢ / ١٦ ، ومتى ص ١ / ١٠ .
(٢) نفسه ٢٢ — ٢٨ ، ومتى ص ٩ / ١٤ .
(٣) يوحنا ٨ / ٢ — ١٢ .

واليهود الذين أمنوا برسالة المسيح اعتبروا أنفسهم هم الشعب المختار واتخذوا لهم اسم اكليزيا Ecclesia ، وهى الكلمة التى استعملتها الترجمة السبعينية للتوراة بهذا المعنى ، ولكنها سارت شاملة للمسيحيين جميعا ، وهى مستعملة بمعنى الكنيسة ، إلى مشابهات أخرى غير قليلة [1] .

وكلمة « المسيح » هى كلمة ماشايا العبرية ، وكانت تستعمل لقبا لملوك اليهود وللملك الموعود ، وكان الملوك يمسحون بالزيت المقدس ويسمون المسحاء ، وكلمة يسوع التى حولت فى العربية إلى عيسى هى كلمة يشوع Jehoshua ، وفى العبرية يهوه بمعنى الخلاص فاسم المسيح فى كل صيغة يعنى الخلاص وكان الناس فى عصره يترقبون هذا المخلص كما ذكرنا قبل .

(١) أنظر كانتور ص ٦٣ .

الباب الثانى

تطورات الدعـــــوة

« ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون » .

(قرآن كريم)

المسيحية بعد المسيح

يتناول الحديث عن المسيحية بعد المسيح ركنين أساسيين من كيانها ، هما الجانب الفكرى الذى تتكون منه الدعوة ، والنشاط التبشيرى الذى قام به الدعاة وتلاميذ المسيح على الأخص لنشر الدعوة خارج فلسطين . وبعبارة أخرى هذان العنصران هما: «المذهب الدينى وأعمال الدعاة»، ونذكر كلمة موجزة عن كل منهما.

١ ــ مكونات الديانة

رأينا من قبل بساطة الدعوة المسيحية واتجاه المسيح بها إلى التسامح فى المعاملة والى فهم النصوص ، كما رأينا أن ثقافته لم تكن قائمة على الفلسفة والتفكير المعقد، وقد كان تلاميذه الذين أختارهم لمعاونته من السذج القليلى الحظ من الثقافة . وانضم إليهم بعده الرسول بولس فكان دخوله المسيحية بداية مرحلة وتطور جديد فى هذه الديانة ــ لأنه كان على علم ودراية بالفلسفة اليونانية التى أمتدت من مدرسة الاسكندرية إلى سوريا ــ وهذا ماعناه الدكتور تيرنر N : Terner فى محاضراته عن المسيحية من أنها وجدت فى مدرسة الاسكندرية غذاء اعتمدت عليه ، وبولس يهودى ولد فى طرسوس تلك التى كانت احدى مراكز الفلسفة اليونانية (١) ، ولخص D. Davis ثقافته فى ثلاثة عناصر: اليهودية ، والهللينية ، والرومانية ، وهو لم يكن يهوديا فلسطينيا ، وربما كان مواطنا رومانيا ، واليهودية فى خارج فلسطين كانت غذيت بعناصر هللينية (٢) هذا إلى جانب العبادات الشرقية الأخرى التى قد غزت هذا الاقليم وتمشت حتى دخلت روما نفسها ، ذلك فيما جزم به محققو القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، وما أوحى إلى بولس بفكرة التضحية بالنفس لمحو الخطيئة ثم القيام بعد الموت والدفن ، فقد كانت هناك عبادات زراعية تقوم على هذه الفكرة من فناء جسد الضحية وخلود روحها ، أو فناء الجسد وخلود الروح .

(١) Introduction to the New testament .

(٢) Ibid .

وكان تلاميذ المسيح واتباعه الأول لا يفهمون عن دعوة المسيح الا أنه نبى من أنبياء بنى اسرائيل وبنوته لله كانت كبنوة الآخرين له ، ولكن بولس هوالذى اعتبرها بنوة حقيقية ودعا إلى فكرة التثليث التى لم تكن مفقودة فى الديانات الأخرى ، وهو الذى سماه الرب ولم يسم بهذا الاسم قبله (١) فجاءت أعماله تخليطا فوق تخليط وقد أدخل تعليمات جديدة منها منع الختان ، ومنها فكرة تحول الخمر إلى دم والخبز إلى لحم .

وقد لاقت اراء بولس معارضة من المسيحيين ، وفى رسائله التى حاجهم بها ، وشكا فيها إلى تيموثاوس منهم ما يعكس مدى هذه المعارضة (٢) ولكنه فى الواقع أنشط داعية بعد المسيح وهو الذى خرج بالدعوة إلى الأمميين وبشربها أقواما لم يسمعوا بها من قبل فنالت أفكاره قبولا بينهم وانتصرت فى ساحات واسعة بين الوثنيين ، وجاء فى تعاليمه ما يجعلها مقبوله لدى حكام عصره وظلت تمتد فى العالم الأوروبى بينما انكمش المسيحيون اليهود ، بعد تحطيم الهيكل على يد تيطس سنة ٧٠ م ، ثم اختيرت الاناجيل الأربعة فى القرن الثانى وفقا لهوى الكنيسة التى أسسها بولس ، واختفى انجيل عيسى نهائيا ، واختفت أناجيل عديدة لا توافق هوى الكنيسة المرقسية ، وهذا يوضح ما قالوا من أن الكنيسة هى التى وجهت الأناجيل وليست الاناجيل هى التى وجهت الكنيسة .

كان بولس يهوديا ينتمى إلى جماعة الفريسيين ، ولكنه لم يكن فى فلسطين ، وفكره اليونانى الوثنى كان أغلب عليه ، ودخوله المسيحية بسبب تجلى المسيح له لايزال إلى الآن دعوى لا تملك دليلا (٣) ولكنه بسبب ثقافته أقوى شخصية من أتباع المسيح السذج ، فخضع له بعض منهم لعل أبرزهم بطرس وبرنابا ومرقس : وفى جولاتهم الأولى كونوا أول كنيسة خارج فلسطين وهى كنيسة انطاكية (٤) ثم تكونت كنائس أخرى فى فلسطين وسوريا ، ثم فى روما . وفى هذه البقاع التى

(١) يرى ديفز نقلا عن باحثين آخرين أن اليهودية منذ عهد النفى البابلى ، وبعد أن حكم السلوقيون هذه الاقاليم ثلاثة قرون لم تعد نقية ولا حقيقية لأن البلاد صارت مفتوحة لديانات وأفكار عديدة .

(٢) أنظر رسالته الثانية إلى أهل كورنثيوس .

(٣) See Outline of modern belief Vol 1 .

(٤) أنظر أعمال الرسل ص ١٣ ١ ـــ ٤ .

تمشت فيها المسيحية كانت توجد من قبل ديانات شرقية قديمة أمدت المسيحية بأفكار وطقوس بعيدة عنها .

كان الناس قد سئموا طقوس الوثنية وتطلعت نفوسهم إلى النسمات الروحية التى تخلو منها الوثنيات وعبادة الاباطرة فجنحوا إلى العبادات الشرقية ذات الأسرار والروحانيات فنالت بينهم قبولا واسعا قبل أن يظهر المسيح بدعوته ، وأشهر هذه الديانات نحلة ايزيس المصرية ومثرا الفارسية . ومن هاتين النحلتين كانت عبادة ديمتر اليونانية والرومانية ، وقد رمزوا لها بصورة أم تحتضن رضيعها رمزا للبر والحنان من الأم والبراءة والطهر من الرضيع وهى صورة ايزيس وحوريس وهى الصورة الشائعة للسيدة مريم العذراء وهى تحتضن المسيح رضيعا ، وتتحلى بها الكنائس والبيوت المسيحية ، كما ظهرت ديانة سيبل فى آسيا الصغرى ومنذ القرن الثالث ق م ، دخلت عبادة بعل إله صور مدينة روما وصارت متفوقة فى العالم الرومانى حتى وصلت إلى أقصى السور الرومانى فى بريطانيا [1] وهناك عدا هذه النحل ديانات أخرى كانت تغزو الدولة الرومانية قبل ظهور المسيحية ، وكانت ديانة مثرا (إله الشمس الذى لايقهر) خليقة أن تنال مكانة أرفع ورفعة أوسع لما بها من عناصر تحبب أجناسا كثيرة فيها ولكنها لم تستطع قهر الديانات الأخرى ، ربما لأنها كانت خاصة بالذكور دون الاناث فلم يسمح لهن بالمشاركة فى العبادة [2].

وظلت هذه النحل بجانب تقديس الاباطرة ، لأن القوم كانوا يرون الشرق مهد الروحانيات يقتبسونها منه ، ولم تقطع هذه العبادات قداسة الأباطرة .

فى هذه الأجواء المشبعة بالأفكار الدينية العديدة ظهرت دعوة بولس وأتباعه فامتصت منها جميعا . وتعاليم مثرا ومنها ضمان الخلاص والالزام بالتطهر والادعية كلها ذات شبه باليهودية والمسيحية .

وبجانب النحل الدينية كان تيار الفلسفة اليونانية ، خصوصا الرواقية ثم الافلاطونية الحديثة .

وكانت الابيقورية والرواقية قد انتهتا فى عصر الميلاد إلى شيء متقارب على

(١) حياة المسيح فى الكشوف والتاريخ ٦٨ .

(٢) أنظر كانتور ٥٥ .

مابينهما من اختلافات فى المبادىء أو بوجه عام وجد فى كلا المذهبين فناء ثم اعادة للحياة ، وكان المثقفون فى فلسطين موزعين على هذين المذهبين ، وربما كان فيلون اليهودى (٣٠ ق.م ـــ ٥٠ م) من مرجحى كفة الرواقية ، وكان يعتنق مذهب هيراقليطس فى القول بالكلمة Logas وأنها واسطة بين الله والعالم ، واستقى من العبادات السرية رموزها وطبقها على رموز التوراة فشرحها شرحا فلسفيا يخالف ما كان معروفا لها من قبل . وهى محاولة للتوفيق أو التقريب بين الفلسفة والدين .

والمذهب الرواق ينادى بالاخوة العالمية ، ويقرر أن صلاة الفرد لله من أجل الكون كله، ويرى متابعة لافلاطون أن الخير يتحقق فى خلاص الروح من المادة ، وكلا المذهبين الرواق والابيقورى على ما فيه من فكر سام ونزعات اصلاحية لم يكن يلائم سواد الشعب وإنما هو للمثقفين ، لهذا كان اتجاه الناس دائما إلى المخلص المعزى ، أو بعبارة أخرى لم يكن هذا الغذاء العقلى الفلسفي ليغنى شيئا عن الغذاء الدينى الروحى ، لهذا كانت الديانات الشرقية ومثرا على الأخص أكثر من الفلسفة شعبية وأتباعا . وقد كان اليهود يبشرون بقدوم المخلص فغرسوا فكرته فى أذهان الناس ، ولكنهم لم يؤمنوا بالمسيح مخلصا .

ويقول كانتور : إنه لهذا الموقف عملت المسيحية على استيعاب مزايا ديانات عصرها فهى ورثت عن اليهود العهد القديم وزادت عليه، واستوعبت قوانين اليهودية الاخلاقية، وأخذت عن الرواقية فكرة الاخاء ، ومن الافلاطونية جوانب صوفية ، ورأوا أن اتحاد الانسان بالله أمر مستحيل لفساد الجسد فلابد اذن من وسيط[1] ولأن المسيح شخص عاش ورآه الناس كان أكثر فاعلية فى نفوسهم من الالهة التى سمعوا عنها ولم يروها ، مثل ايزيس ومثرا [2] واستبروش ، فهى إلهه كانت تموت وتحيا دون أن يكون لها مرأى .

وكانت المسيحية عزاء للفقراء والعبيد الذين كانوا يعانون مع فقرهم وشقائهم ازدراء ومهانة ، فبشرتهم بتعويض فى الدار الآخرة ، وربما كان ذلك أيضا من

(١) التاريخ الوسيط ص ٥٩ .

(٢) الغنوصية دعوة روحية تؤمن بالترقى الروحى عن طريق المعرفة وبها يكون للانسان اتصال مباشر بالله والمعرفة عندهم تعنى ادراك علم السموات والأرض وحقائق الكون والغنوصيون جماعة من اليهود واتخذوا لهم دينا خاصا وكتبا مقدسة خاصة ويقال أن الصابئة منهم أيضا ، وأنظر صبح الأعشى ٤٢٩ .

الأسباب التى روجت للغنوصية فى ذلك الوقت [1] — وبوجه عام جمعت المسيحية عديداً من المذاهب والنحل .

وفى خلاصة عابرة أخذت المسيحية كيانها الأساسى من اليهودية فالعهد القديم مقدس فيهما معا ، واستصفت منها جوانب الأخلاق والروحانيات ، واعتبروا أنفسهم الشعب المختار كما فعل اليهود وورثوا عنهم الرهبنة وفكرة الاخاء ، وأخذت من الافلاطونية الحديثة جوانبها الروحية والصوفيه كما أخذت من الرواقية وعالجت فكرة اتحاد المخلوق بالخالق عن طريق الوساطة إذ جعلت المسيح يجمع الوصفين معا ، لأن الجسد الفانى لايتحد بالاله الباقى ، وهكذا كانت مزيجا من عدد من الديانات والفلسفات ، وظلت تعاصرها حتى القرن الثالث عشر ، وظلت الكنيسة غير محددة المبادىء حتى هذا القرن .

ويتضح من أعمال الرسل أن حواريى المسيح — وهم يهود آمنوا بالمسيح — فقدوا صفات اليهود الفلسطينيين ، ويرجع ذلك إلى امتزاجهم بأتباع جدد عرفوا باسم الهلينستيين ، ومنهم اليهـود العائدون من المهاجر المتعددة فى أنحاء الامبراطورية الرومانية للاقامة أو للحج ، وقد طوروا فكرة المسيحية وصوروا شخصية المسيح بما لم يكن الحواريون يعرفونه [2] ، وقد طردت جماعة منهم من أورشليم بسبب مضايقة اسطفانوس فدخلوا فينيقية وقبرص وانطاكية ، وكان تبشيرهم مقصورا على اليهود . ولكن قبرسيين وقيروانيين كانوا فى انطاكية فذهبوا يبشرون اليونانيين بالمسيح ثم جاء برنابا فثبت هذه الدعوة [3] — وهذا كله يوضح لونا من الروافد التى غذت المسيحية بالروافد الهلينية .

وعندما واجه بولس خلافا بين اليهود وبين الوثنيين المتنصرين حول الختان رأى من الأوفق أن يلغيه تخفيفا على الناس [4] — وهذا تحوير فى قوانين الشريعة .

ولعل المؤمنين الكثيرين فى انطاكية ، وهم لم يروا المسيح ، بهرهم الحديث عن

(١) وفى المقال الثانى من كتاب Outline of the modern belief خلاصة موجزة لهذا الموقف — وسنعود اليه بعد .

(٢) (المسيحية) — ترجمة عبد الحليم محمود

(٣) أنظر أعمال الرسل ١١ : ١٩ — ٢٦ .

(٤) نفسه ١٥ : ٥ — ٢٩ .

معجزاته فمجدوه وعظموه حتى انتهى هذا التمجيد إلى تلقيبه بالسيد ثم إلى تأليهه، وبهذا ذهبت خصائص عيسى اليهودية [1].

وقد أبدل بولس أيضا مفهوم ابن الانسان باسم ابن الله [2] ولم يكن حواريو المسيح يعرفون التضحية التكفيرية ولكن بولس هو الذى أنشأ فكرة موته لمحو ذنوب البشر [3] ، كذلك حور كلمة السيد ، وهى كلمة كانت شائعة فى انطاكية والأماكن التى بها ثقافة وتعبيرات يونانية ، فهى كلمة خيزيوس . الذى يسيطر على كل شيء ، منحها بولس شخص المسيح واستعملها فى رسائله بهذا المعنى اليونانى [4].

وكان شائعا بين أتباع « ديانات الأسرار » فكرة الحلول الالهى أثناء احتفالاتهم ، فاعتنقها أو ظل عليها الذين دخلوا المسيحية من بيئاتها ، كذلك فكرة الاله الذى يموت ويبعث من أجل نجاة أتباعه كانت شائعة فى أرجاء سوريا وبلاد الأناضول ، ولعلها ثبتت فى المسيحية من قبل بولس بحكم شيوعها .

وأورد « جنيبر » تفسيرا لكلمة « ابن الله » فذكر أن اليهود كانوا يطلقون عبارة « خادم يهوه » على كل شخص يظن أنّ به إلهاما منه ، وكلمة خادم فى اليونانية تتحد مع كلمة « طفل » وكذلك فى اللغة اليونانية اللاتينية ، فنقلت كلمة طفل إلى كلمة ابن ، وجاء فى رسالة بولس إلى أهل روما ٣٢/٨ أن الله لم يعف ابنه نفسه ، وضحى به من أجلنا جميعا » . وتوقع جنيبر أن بولس « لم يكن ليدرك فى ذلك الوقت كل ما ترتب على مفهوم « ابن الله » من مشاكل فى فلسفة الدين لاتحصى [5] .

وليس من همنا أن نمضى فى تحليل الفكر المسيحى . وغرضنا هنا هو بيان أهم العناصر التى تكونت منها هذه العقيدة . ومما لاريب فيه أنها تطورت أيضا بعد بولس ، فهو ليس المخترع الأول لأفكارها ولا كلامه خاتمة ما جاء فيها :

(١) جيير ١١٦ .
(٢) نفسه ١١٧ .
(٣) نفسه .
(٤) أنظر رسالته إلى الفيليين ٢ ٩ ، ورسالته إلى كورينثيا ٧ ٢٢ .
(٥) خيير ١٣٦ .

٢ — سير الدعـــوة

يوضح سفر أعمال الرسل بدايات النشاط التى قام بها كل من بطرس وبولس وبعض الرسل الآخرين [١] ، وقد تحول بطرس أول التلاميذ وأقواهم إلى تابع مطيع لبولس ، ويرجع هذا فيما يبدو إلى شخصية كل منهما ، فبطرس رجل ساذج قليل الحظ من الثقافة ، أما بولس فهو يهودى درس اليهودية والثقافة اليونانية واستفاد من مدرسة الاسكندرية كثيرا وأن لم يحضر إليها ، فنقل إلى المسيحية ثقافته ، واستجاب له التلاميذ فغير المسيحية تغييرا واسعا وطور تعاليمها على مارأينا ، وبفكره سارت الدعوة ، ولم تكن الطريق أمام سيرها ممهدة ، بل لقيت مقاومات كثيرة من اليهود الذين كذبوا المسيح ، ومن اليهود الذين تنصروا أيضا ، ومن الرومان ومن ذوى الوثنيات فى شرق البحر المتوسط ، ولكن كان بجانب هذه العقبات سبل أخرى ممهدة لسيرها .

ساعدها أول أمرها اليهود المشتتون [٣] فى العواصم الشرقية ، وفى الاسكندرية فى القرن الأول الميلادى . وكان اليهود يستميلون إليهم الآخرين ولكن لم يكن لهم نشاط تبشيرى ملحوظ . وفى القرن الثالث كانت هذه العبادات التى ذكرناها متمشية فى الامبراطورية وكانت عبادة مثرا (اله الشمس الذى لا يقهر) خليقة أن تطغى على اخواتها لولا أسباب لعل من أهمها أنها خاصة بالذكور [٣] ، وكانت المسيحية قد تمشت أيضا مع التجار فى شرق البحر المتوسط ولكنها ازاء ما غذاها به بولس من أفكار جديدة ورغبة فى ملاءمة الظروف والديانات التى حولها امتصت من اليهودية ومن الرواقية والافلاطونية الحديثة . وكانت مدرسة الاسكندرية حقلا خصبا لامدادها[٤] ، وكان الفراغ الدينى والجدب الروحى فى جوانب الامبراطورية يغرى باتباعها ، وكانت تمتاز عن الديانات الشرقية الأخرى بأن المسيح — ابن الله —

---

(١) أعمال الرسل ١١ : ١٩ — ٢٠ .

(٢) كانتور ص ٢٩ .

(٣) نفسه ص ٢٠٨ .

(٤) كانت تعاليمه ومؤسساتها قد امتدت إلى جوانب سوريا على الأخص طرسوس التى كانت مركز ثقافات عديدة .

ظهر وعاش حياة حقيقية بينما الالهة الأخرى لم يكن لها وجود واقعى ، ولم يمت بولس الا وهذه الديانة قد أخذت مكانها وأصبح من الصعب استئصالها .

وفى أوائل القرن الأول أعلنت عداءها للأديان الأخرى بما فيها عبادة الاباطرة فأثارت غيظهم وبدءا من عهد الامبراطور تراجان (٩٨ ـــ ١١٧ م) تنبهوا إلى مايمكن أن يكون من أخطارها فبدأوا فى حرب دعاتها ثم فى اضطهادها ، بينما ظهرت بين رجالها انقسامات مزقت عقيدتها وبلبلت أفكار أتباعهم ، وأمام هذا الاضطهاد وذاك التناصر توقفت حركة الدعوة ، وتغيرت عما كان يدعو إليه المسيح عليه السلام .

والواقع أن روما خلال القرن الثالث كانت مفتحة الأبواب لكثير من أفكار الشرق سياسة واجتماعا ودينا ، حتى قال جيوفنال Juvenal فى نقده الساخر :

أن نهر العاصى الشامى يصب فى نهر التيبر [١] . وأخذت الدولة أيضا من الفرس كثيرا ، وكان الجيش الاسيوى الذى كان يستعار كثيرا للعمل فى روما مرتزقا قد نقل ديانات الشرق ومذاهبه [٢] .

وكانت هذه كلها مددا للفكر المسيحيى وميسرا لامتداده .

كون بولس وبرنابا ومرقس فى جولاتهم الأولى أول كنيسة فى انطاكية [٣] ثم تكونت كنائس فى فلسطين وسوريا ، وأقيم يعقوب أخو المسيح أسقفا على كنيسة أورشليم ، وهى الكنيسة الأم الرئيسية ، وتولى التلاميذ الآخرون أماكن أخرى ،وإلى بولس قبل كل شيء ـــ يرجع هذا النشاط ، وقد قام بعديد من الرحلات وكتب عديدا من الرسائل وترك على المسيحية أثارا واضحة ماتزال بها

---

(١) جيوفنال شاعر لاهوتى أسبانى ولد سنة ٥٥ م تقريبا ومات سنة ١٤٠ وله كتاب أهاج سماه The sixteen satires أى ١٦ مثلبة ، عاش فى مدينة اكوينم Aquinim وعين قسيسا فى بلده سنة ٨٠ م ونظم معجم اهاجيه وهو فى سن التسعين ، ونفى إلى مصر فأقام باحدى واحاتها فى الصعيد ، وكتابه مترجم إلى الانجليزية Penguin classic .

(٢) أعمال الرسل ١٣ / ١ ـــ ٤ .

(٣) نفسه ٢ ٨ ـــ ١١ .

حورت دعوة المسيح بعده،وأهم ما جد بها هو استمرار هبوط الروح القدس على أتباع المسيح ، وأول مبتدع لهذه الفكرة هو بولس ، وقد تراءى له المسيح وأيضا لبعض تلاميذه ، ونزل ملاك الرب فحطم القيود التى ربط بها بطرس فى سجنه(١) وظل هذا الوحى الالهى يتراءى لدعاة المسيحية حتى الآن ، وفى تاريخ التبشير المسيحى نجد أشخاصا كثيرين تارة يرون أحلاما يعتبرونها وحيا ، وتارة يرون المسيح عيانا ، فقد كان ريمون لول R. Lull يعمل بمقتضى هذا الوحى وأوامر المسيح له (٢) ، وسنجد بعد فى نشأة الارساليات والمذاهب أشخاصا هبط عليهم المسيح وألقى إليهم أوامره . هذا إلى جانب ما أذاعه بولس من أن المسيح ابن الله أبوة حقيقية ، وكانت مفهومه من قبل على أنها بمعنى السيادة .

قام بولس برحلاته الموضحة فى أعمال الرسل وبعث بالرسائل هنا وهناك لبث تعاليمه ، وقد قتل فى روما فى عهد نيرون سنة ٦٦ م ، وصلب بطرس أيضا (٣) وقَتَلَ هيرودُ يعقوب أخا المسيح بالسيف ، وكان من قبل قد سجن بطرس أيضا ليقتله ولكنه أفلت من سجنه ، وقالوا أن الملاك حطم قيوده (٤) وكان مع بولس فى جولاته أيضا الرسول مرقس وهو ابن أخت برنابا صاحب الانجيل الذى لم تعترف به الكنيسة ، ومرقس هو مؤسس الكنيسة المصرية ، وفى مصر كتب إنجيله وفيها لقى مصرعه الشنيع ، فقد شنق فى حبل وجر فى الشوارع ومثل بجسده وكذلك لاقى الدعاة الآخرون ألوانا من العذاب والسجن والقتل ، وكانوا يتمثلون ما لاقاه المسيح من الصلب هو وبطرس وما لاقاه بولس وغيرهم من الشهداء فيقدمون على التضحية اقتداء بهم .

ولم ينقطع الدعاة عن توجيه دعوتهم إلى اليهود بعد المسيح، فظلوا يلحون عليهم بها لكن عداوة اليهود كانت أكبر من أن تطفأ (٥) وكان الدعاة الذين فروا إلى فينيقية

(١) نفسه ١٢ : ٦ — ١١ .

(٢) Neil 136 وأنظر بعد جماعات المورمون والخمسينيين Shakers والروحانيين والميثوديست .

(٣) طلب أن يكون رأسه للأسفل حتى لا يكون مثل المسيح فى صلبه .

(٤) أنظر أعمال الرسل ص ١٢ : ٦ — ٨ .

(٥) انجيل برنابا ترجمة الدكتور . خليل سعادة

(لبنان) وقبرص ، وانطاكية يقصرون دعوتهم على اليهود [1] ، بينما كان الآخرون يوجهون الدعوة إلى الأمميين .

وفى القرن الثانى الميلادى كانت توجد مراكز فرعية هامة هى انطاكية ، وروما والاسكندرية ، وظلت أورشليم هى المركز الأساسى ، وكانت انطاكية تليها فى أهميتها أو هى أهم مركز فرعى ، وفى انطاكية وجهت الدعوة إلى الأمم الأجنبية ، وفيها لأول مرة أطلق اسم المسيحيين على أتباع المسيح [2] وفيها احتشد العدد الكبير من الأمميين لسماع خطبة بولس ، وبهذا تخطت الدعوة محيط اليهود واكتسبت لونا من العالمية والشيوع وكان هذا مما ميزها عن اليهودية وعن الأديان القديمة الأخرى ، إذ كانت كل ديانة تخص أمة أو قبيلة ، وكأنما كان رفض اليهود دعوة المسيح عاملا وسببا فى عالميتها وانتشارها بين الآخرين ، فلو أنهم تقبلوها ما زاد هو على أن يكون واحدا من أنبياء بنى إسرائيل الذين سبقوه ، أمثال أشعياء وميخا وزكريا وغيرهم — ممن كانوا منذرين وداعين إلى الاصلاح واذن لظلت دعوته وقفا على بنى اسرائيل ، ولكن هكذا كان تيار الاحداث .

هذه فكرة عابرة عن بداية التبشير بالمسيحية الذى يعد التبشير الآن وفى مختلف العصور امتدادا له .

(١) أعمال الرسل ١١ / ١٩ .
(٢) نفسه ١١ / ٢٦ .

من بولس ... ؟

أجدنى بعد كل الذى قدمته من هذه الشخصية الفذة فى تاريخ التبشير المسيحى بحاجة إلى تلخيص ما يعرف من حياته . والذين كتبوا عنه اعتمدوا على الاستنتاج أكثر مما اعتمدوا على النقل من التاريخ ، فهو شخصية يكتنفها كثير من الغموض .

واسمه الأصلى هو سول Sule أو شاءول . وهو اسم يهودى شائع ، ثم غيره إلى بولس (بول Paul) وهو اسم يهودى شائع أيضا : وسفر أعمال الرسل والرسائل التى كتبها تعكس صورا من نشاطه ، ولا يعرف بالدقة متى ولد ويقال فى غير قطع أنه ولد سنة ١٠م. وقيل إنه يصغر المسيح بنحو ١٤سنة. فهو معاصر للمسيح أو مواز له تقريبا فى ميلاده وهو قطعا لم ير المسيح ، وكان ناقدا معاديا لدعوته ، وهو مواطن رومانى من اليهود كان يعمل صانع خيام ولكنه كان مثقفا ، وكانت أسرته حديثة عهد باليهودية ، وكانت تتكلم الأغريقية .

أما عن صفاته الجسدية فكان أصلع برجليه انحناء ، قوى البنية ، كبير الأنف ثقيل الحاجبين مقرونهما نافذ النظرة ، وكان ذا طموح وشخصية قوية (١) .

تلقى تعليمه على الربانى جاماليل فى بيت المقدس ، وربما كان يريد أن يكون ربانيا مثله ، ويقال أنه كان يعانى مرضا جسديا لا يعرف نوعه بدقة ، ولكن يظن أنه الصرع الذى عانى مثله يوليوس قيصر ونابليون ، ويقال كان مرضا جلديا وكان ذا حماس بالغ ، وفيه تتلاقى المسيحية وتعاليم الفريسيين التى تلقاها وانفعل بها من قبل — وقد قرأ الانجيل الجديد فلم يقبله بادىء الأمر . وكان عدوا للنصارى (المسيحيين الأوائل) Naremes وطردهم من الهيكل وكان مصمما على استئصالهم، وقد شهد مصرع الشهيد الشاب ستيفن وسمع خطبته الأخيرة ويرى

---

(١) أنظر The Observers, an Essay & Outline of Modern Belief p 207.319

د. أنج Inge أنها تركت فى نفسه أثرا كان سبب تحوله [١] كما يعزو الرؤيا التى تمثل له فيها المسيح قرب دمشق إلى ما يتخيله الناس أو يتراءى لهم فى الصحراء من أشباح وأصوات غير حقيقية ، وقد رأى ماركوبول وسمع فى رحلته شيئا من هذا ، وهى أشياء ترجع إلى عوامل نفسية . ولكنه بعد ذلك تحول داعية للانجيل الذى حاربه من قبل وصمم على استئصاله ، وأثار انقلابه هذا غضبة اليهود فى دمشق فقرروا قتله فهربه تلاميذه إذ دَلّوه من نافذة فى سفط ، وحورب أيضا فى أورشليم. ودبرت مكيدة لقتله ولكنه طرد إلى بلده طرسوس ، وفى موقف آخر رموه بالحجارة وتركوه ليموت ، ولكنه لم يمت وبقيت به أثار جراحه طول ما عاش . وفى طرسوس تراءى له شبح شخص مقدونى قاده إلى نقل الانجيل إلى روما فصمم على هذه الرحلة ، وقد سجن فى فيلبى Philippi وطارده اليهود فى كل مكان ، ودبروا مكايد عديدة لاغتياله وخطط لنفسه أن يذهب إلى روما ومنها إلى أسبانيا كما ذكرنا فى غير هذا الموضع[٢] ولكنه ليس أول من نقل المسيحية إلى روما .

وقد رأى روما حقا ، ولكن رآها سجينا لا داعية طليقا . وبعد عامين قتل ، وهذه الفترة من حياته غامضة لأن سفر أعمال الرسل لايوليها شرحا كافيا .

نقل بولس دعوة المسيح إلى الأمميين غير اليهود ووسع دائراتها فى آسيا وفى أوروبا ، وليس أول من فكر فى نقلها ، لأن المسيح بعد أن يئس من استجابة اليهود ومل حربهم وجه تلاميذه إلى دعوة غيرهم ، وضرب مثلا لذلك صاحب الوليمة يعد أطايب الطعام ولا يحضر المدعوون حتى بعد تكرار دعوتهم ، فأمر عبيده أن يذهبوا إلى مفارق الطرق ليجمعوا كلَّ من يجدون[٣] ، وهو فى أواخر أيامه قال

(١) Ibid 323 ، واستيفن شاب رومانى ، كان شماسا يهوديا ، وخطيبا مفوها آمن بالمسيح ، ولما اشتد عداء اليونانيين للعبـــرانيين رأى الجواريون أن ينتخبوا سبعة من ذوى الحكمة رؤساء عليهم وكان استيفن على رأسهم ، وحاوره قوم من المجمع فانتصر عليهم ، فاتهموه بتغيير شريعة موسى ، ودسّوا عليه شهود زور ولكنه خطب فيهم خطبة طويلة لخصت تاريخ الرسالة ، ثم سمت روحه إلى السماء فرأى المسيح جالسا عن يمين أبيه ، وحكموا عليه بالرجم وكان بولس راضيا عن رجمه ، أنظر أعمال الرسل ص ٥ ، ٦ .

(٢) ويعزى ذلك إلى ما طالع به الناس من فكر غريب .

(٣) فى متى ،ص ١٠ / ٥ قال لتلاميذه ــ إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامرين لاتدخلوا ، بل

لتلاميذه : اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم (١) وقد رأينا من قبل اتجاه الهلينشين إلى عدد من المدن ، ولكن بولس وسعها بالفعل وفعل ما لم يفعل التلاميذ ، ووجه رسائل إلى الأمميين وأدخلهم بالفعل فى المسيحية ، وبعض رسائله كتبها لتكون صلوات تقرأ فى الكنيسة ، وتعاليمه هى التى أدخلت المسيحية بين الديانات اللاهوتية ،وكانت قبله هى اليهودية أو فرعا منها ، وهو أيضا حول الديانة البسيطة السهلة إلى ديانة معقدة بما أدخل فيها من فكرة التثليث وبما غذاها به من الفلسفة اليونانية .

ناقش هذا الموقف الدكتور / إنج عميد كلية القديس بطرس ، واتهمه بالمرض النفسى والانقياد للخيال ، وتابعه خلفه متى عميد الكلية سنة ١٩٣٤ ، ثم السير جلبرت موراى « Sir Jlbert Mary » أستاذ الدراسات الأفريقية بجامعة أوكسفورد ولا تزال شخصيته محل خلاف بين مؤرخيه فى جوانب كثيرة(٢) .

وحيث إن رسائله كانت أسبق من الأناجيل كانت ذات أثر كبير فيها. هذا يرشد إلى أن المسيحية كلها ترجع إليه بما فيها الأناجيل . وكانت الأناجيل فى القرن الثانى عديدة ولكن الكنيسة اختارت هذه الأربعة وأجرت عليها بعض التعديلات .

وهو لم يتصل بتلاميذ المسيح وحوارييه إلا فى شتاء ٣٦ـــ٣٧م أى بعد المسيح بثلاثة أعوام أو نحوها ، وكان مع رفاق له متجهاً إلى دمشق برسالة طلب هو من رئيس الكهنة أن يرسله بها إلى الجماعات اليهودية فى دمشق . حتى إذا وجد أناساً تنصّروا يسوقهم موثقين إلى أورشليم . وقرب دمشق رأى نوراً وسمع المسيح يقول له : لماذا تضطهدنى ، وأعمى النور الساطع عينيه ثلاثة أيام(٣) ومنذ ذلك الحادث تحول مسيحيا وأخذ يبشر بالمسيحية ويجادل اليهود ليقنعهم بأن عيسى هو المخلص المنتظر . ومن هنا تآمروا على قتله . وفى أورشليم خافه تلاميذ المسيح حتى أقنعهم برنابا أنه رأى المسيح وصار مسيحيا .

أذهبوا بالحرى إلى خراف بيت اسرائيل الضالة ... اشفوا مرضى طهروا برصا أقيموا موتى ، اخرجوا شياطين ، وفى ٢٢ / ضرب لهم هذا المثل .

(١) نفسه ص ٢٨ .

(٢) Outdine of Modern Belief Vo 1 p 32 .

(٣) أنظر فى هذا كله أعمال الرسل ص ٩ .

قام بولس بثلاث رحلات تبشيرية كبيرة ـــ عدا تنقلات أقل أهمية ـــ من تركيا إلى دول أوروبا البحر الأبيض،وكتب ثلاث عشرة رسالة،ويبدو فى رسائه وخطبه وتعاليمه مدى تأثره بالفريسيين الذين تلمذ عليهم ، فهم كانوا فرقة قوية كادت تكون هى المسيطرة على المجمع اليهودى كله خلال قرن أو نحوه ، وبهذه القوة أضاف إلى العهد القديم أشياء كثيرة شفوية ، خصوصا حول الأخلاق والسلوك وصلة العبد بربه ، وأكدت فكرة الحياة بعد الموت مصادمته بالصدوقيين. كذلك أضاف هو إلى المسيحية أشياء كثيرة لم تكن قبله .

قرر أن حياة عيسى وموته ومعجزاته إنما هى جزء من عهد جديد بين الله وبين بنى إسرائيل ، متمم للعهد الذى كان بين الله وبين موسى وأقوى منه ، وقرر أن المسيح ابن الله ، ولكنه قرر أنه ابنه الأكبر ، والمؤمنون إخوة له . وأوصى بالاقتصار على زوجة واحدة ، وأقرّ الطلاق ، وأعفى منن الختان ، وحرم السكر ، ولم يحرم الشرب ولم يذكر شيئا عن ميلاد العذراء .

وكان جل أو كل اهتمامه محصورا فى التبشير بأن المسيح الذى كان اليهود ينتظرونه قد ظهر فى شخص المسيح على الأرض ثم ارتفع إلى السماء . ولذا لم يذكر شيئا تفصيلياً عن الجنة والنار وحساب الآخرة . وقد ضايق اليهود بتأكيداته المتكررة أو عيسى هو المسيح ، كما غضبوا لتغييره شريعة موسى بالغاء الختان . وكان من الطبيعى أن يتهمه اليهود فى رؤياه المسيح أو سماعه صوته . وكان حكام الرومان فى هذا الوقت يكرهون الحديث عن الكرامات .وعَنْ نزول المسيح المرتقب الذى يتزعم اليهود . لأن اليهود فى ذلك الوقت كانوا فى حالة ضيق ويتربصون لإعداد ثورة مسلحة . وربما كان فى عقاب بولس قطع لهذه الفكرة وإرضاء لطوائف اليهود وتهدئة لهم . والواقع أنه ظل يعتبر نفسه يهوديا يدعو إلى اليهودية الصحيحة ، ويحمل على اليهودية القديمة بكل فرقها ـــ وليس فى هذا غرابة فالمسيح نفسه واحد من أنبياء بنى اسرائيل جاء لهدايتهم إلى الحق ، وإذن فأسباب العداوة بينهم وبين المسيح تجددت على يد بولس .

والسنوات الأخيرة من أيامه غامضة ، فقبل قتله بأكثر من خمسة عشر عاما أو فى سنة ٥٠ م قبض عليه ، وطالب بحقه كمواطن رومانى ، أن يرفع أمره إلى

الامبراطور حيث قيد فى السلاسل، وبعد ذلك تضطرب الأحاديث عنه .

قيل أنه أطلق سراحه فقام برحلة تبشيرية رابعة إلى الغرب فذهب إلى أسبانيا ثم انجلترا وهى رواية أملتها المبالغة . وقيل أطلق سراحه فشغل نفسه بكتابة الرسائل ، وكانت نهايته القتل على يد نيرون سنة ٦٦ م أو قبل كل ذلك .

وتضطرب الأقوال أيضا فى شخصيته وأفكاره وأهدافه .

قيل أنه كان يترقب أن يكون هو المسيح ولما لم يكنه قام برسالته .

وقيل أنه لم يكن مكتمل التفكير والعقل ، وهو قد سلك مسلك الأنبياء الاسرائيليين فى اعتكافهم فى شمال الجزيرة ــ جنوب الأردن ، وفى هذا المعتكف أختل عقله .

وأخرجت كل من مجلة أوبزرفر ، والتايمز ملحقا عنه،وكلتاهما كانت قاسية فى حكمها عليه وقالت مجلة التايمز أنه إما أن يكون يهودياً خبيثا أراد أن يفسد رسالة المسيح فقام بكل هذه الأعمال ونجح فى إفسادها ، وأما أن يكون معتوها مختل ال [illegible] . ومدار الإنكار عليه هو الرؤيا التى رآها ، واعتمد عليها فى تبشيره .

ومهما يكن من شأنه فهو أنشط المبشرين ومؤسس المسيحية وأول واضع لأدبها الدينى .

وأنظر كتاب : Jesus in the back of history . ص ٦٥ ومابعدها . أنه استعمل العبارات الغامضة التى كانت تستعمل بين صوفيى اليونان والرومان وبعض الفرق الشرقية ، وفيه ان حياة المسيح أعيدت مرارا بواسطة من استقر فى اذهانهم أنهم يمثلون وحيا جديدا من الله ، واعتبرت رؤاهم وفاء للنبوءات التى جاءت فى العهد القديم ــ ولهذا لا نتوقع من الأناجيل تحاليل تاريخية ــ بل هذا سر ما بينها من اختلاف ، وهذا ليس عجيبا بل العجب أن نتوقع وصف حياة مكتكامل من كتابة هؤلاء !

---

(١) انظر ص ٦٧ منه .

العالم الرومانى عند ظهور المسيحية*

من المهام جدا أن نلم بفكرة عامة ــ ولو موجزة جدا ــ عن البيئات الثقافية التى ظهرت فيها الديانة المسيحية ، فهذه البيئات المتعددة المتباينة غذت المسيحية بأفكار وفلسفات جديدة ، وكان لها أثر فى تلوين المسيحية بألوان مختلفة ، وفى إثارة الخلافات الكثيرة بين رجالها ، وفى انقسامها فرقا ومذاهب فى سنيها الأولى ، وقد ظلت هذه الأفكار تمتد وتتمشى مع المسيحية بعد ذلك حتى أننا نجد للمذاهب البروتستانتية جذورا وعناصر ترجع إلى القرون المسيحية الأولى ، ولم تكن التيارات الفكرية فى المسيحية بمعزل عن تيارات السياسة ، وقد قدمنا أن الدولة الرومانية لم تهتم بدعوة المسيح ولا بمحاكمته اهتماما كبيرا ، وظلت المسيحية شيئا هينا لديها حتى القرن الثالث ، فخلال هذه المدة كانت الكنيسة قد رسخت وتأصلت حتى باتت تكون خطرا على وحدة الدولة ، وهذا ما حمل دقلديانوس على محاربتها .

ونوضح سمات الجو الذى ظهرت فيه المسيحية فى النقاط التالية :ــ

١ ــ كان للرومان عدد من الالهة على نحو ما كان لليونانيين ، ومنذ عهد الامبراطور أوغسطس ولما احرزه من انتصارات ، خلعت عليه وعلى الأباطرة من بعده صفة الالهية وخضع الشعب وتقرب إليهم بالعبادة على أنهم آلهة يمشون على الأرض ، ولكن لأن روح الله قد حلت فيهم ، ولهذا عبدت آلهة قديمة أيضا . وعنى الحكام إلى جانب الاعتقاد فى الاباطرة بالاعتقاد فى الهة روما : جوبيتر ، ويونو ، ومينرفا ، والسماح بوجود آلهه أخرى بجانب الامبراطور هو الذى سبب بقاء المسيحية وعدم التعرض لها أول الأمر وكانت الآلهة اليونانية تعبد فى الاقاليم ، وتخطت العبادات المحلية مكانها وتكونت لها جمعيات فى جهات نائية ، ولكن كل هؤلاء كانوا يبذلون الولاء للاباطرة وللالهة الكبرى الثلاثة . عدا اليهود والمسيحيين فانهم لم يكونوا يفعلون ذلك.

* راجع ص ٣٠٦ وما بعدها من كتاب Outline of Modern Belief vol I . وانظر

ولا يخلو موقف المسيحية والاباطرة من غموض ، لأننا نجدها أحيانا تصلى المسيحية حربا حامية كالتى كانت على يد نيرون ، وقد شارك فيها أباطرة آخرون كبار مثل تراجان وهادريان وأنطونيوس بيوس وغيرهم[1] .

وفى عهد تراجان (٩٨ ــ ١١٧ م) كان فى الدولة قانون يبيح الاضطهاد الدينى[2] أشبه شىء بالأحكام العرفية فى أيامنا .

ويختلف موقف المسيحيين فى رفضهم عبادة الأباطرة عن اليهود ، فاليهود قد رفضوها من قبل وأعفتهم الدولة منها [3] ولكنها لم تعف المسيحيين ، لأن ديانتهم مبشرة تدعو الآخرين إلى اعتناقها وتبنى مبادئها بينما اليهودية ديانة طائفة محدودة العدد محدودة النمو حتى ولو دخلها أفراد من غير الاسرائيليين فهى لا تكون خطرا على الدولة ثم أن المسيحيين رفضوا مبدأ التجنيد ، والوقوف بجانب الجيش الرومانى .

ولعل نيرون توقع فى الجماعات المسيحية الأولى خطرا أكبر مما تستحق ، أو اعتبرها جماعة يهودية خطرة ، ولكن اضطهاده لم يستمر ، ويبدو أن الكتاب بالغوا فى وصف الاضطهاد الذى واجهه المسيحيون بعد ذلك رغبة فى اظهار عدد أكبر من شهدائهم ويقول كانتور : وكانت الدولة الرومانية متسامحة مع المسيحيين رغم أنهم لم يحرزوا موافقتها ، ورغم أنها لم تعترف بالمسيحية ديانة مشروعة [4] ويذكر مثالا لذلك التسامح أن الامبراطور تراجان كتب إلى بلينى الاصغر حاكم آسيا الصغرى ضمن ــ مراسلاته بضمان المسيحيين فى ولايته أن يتركهم ونشأنهم [5] .

والعبارة ذات ابهام ، فقد جاء عن تلك الحادثة أن بلينى أرسل إلى تراجان بأنه عفا عن المشكوك فى أمرهم بعد أن قبلوا تقديم القرابين لتمثال الامبراطور وأعدم الذين امتنعوا ، فأجابه بالموافقة والاستحسان لما فعل[6].

---

(١) تاريخ أوروبا العصور الوسطى . لسعيد عاشور ، وتاريخ سورية ١ / ٤١٢ .

(٢) العرينى ٢٨ .

(٣) عاشور ٣٣ .

(٤) التاريخ الوسيط ٦٨ .

(٥) نفسه .

(٦) أنظر عاشور ٣٤ ــ ٣٥ .

ومهما يكن من شيء فان المسيحية فيما بين القرن الأول والثانى تموجت بين تسامح واضطراب حتى طرأ على الدولة تغيرات اقتصادية وأزمات عامة دعت إلى الاضطهادات العنيفة بدءا من عهد دقلديانوس .

٢ ــ كان هناك أسباب مادية وفكرية هيأت للمسيحية أن تمتد وتنتشر خلال هذه القرون الثلاثة . وأهم الأسباب المادية ما كان سائدا فى الدولة من الأمن وسهولة الانتقال إذ كان بها طرق ممهدة بعيدة تربط بين أطرافها وتصل بين المدن والقرى ، وكان النشاط التجارى ذا أثر كبير فى نقل الأفكار الناشئة ، بجانب ذلك سادت اللغة اليونانية فى جانب الامبراطورية الشرقى فسهل نقل المسيحية سريعا ، أضف إلى ذلك وجود جماعات يهودية على امتداد البحر المتوسط ، ومنهم من قبل المسيحية واعتبر عيسى هو المخلص ومنهم من لم يقبلها ، ولكن حديثهم عن المخلص المرتقب سهل قبولها [١] .

٣ ــ أما الأسباب الفكرية فهى أشد أثرا وأكثر تنوعا :

كانت عبادة الاباطرة التى بدأت فى عهد أوغسطس قد فقدت فاعليتها فى نفوس الناس وكان دعاتها قد بثوا فى نفوسهم أن للاباطرة تأثيرا خارقا فى حياتهم وبعد موتهم فلم يعودوا ينفعلون بهذه الدعاية ، وكان هذا فى الواقع مما أزعج الدولة ، لأن عبادة الاباطرة كانت تربط الرعايا جميعا بوحدة تجعلهم أطوع لها وأكثر خشوعا وبدت هذه العبادة وهى دين الدولة الرسمى فقيرة جدا فى الجانب الروحى ، مما جعل الرعايا الرومان يتطلعون إلى الديانات الشرقية ويعنون بعبادات الاسرار والتأثيرات الخفية التى لا تخضع لقوانين الطبيعة . وكان الشعب قد عانى كثيرا من المظالم والفقر وتسلط الأقوياء فقويت فى نفسه النزعة الروحية المتطلعة إلى خلاص سماوى . والتفت إلى الشرق منبع الروحانيات والأسرار .

وكانت فكرة المنقذ المخلص قد تمشت فى الأمة من قبل ذلك ، ويبدو أثر اليهود فيها واضحا ، لأن الفكرة شاعت لديهم أثناء نفيهم فى بابل ــ وهى فى الواقع فكرة

(١) نفسه ٣٢ .

تُنْبتها الحاجة إلى الخلاص من المعاناة التى يعجز الناس عن دفعها . ولكنها تتلون فى كل جماعة وبيئة بلون خاص ، وكانت صفات المخلص لدى اليهود قد انتقلت معهم إلى الدولة الرومانية ، وقبل ميلاد المسيح كتب شاعر الرومان الكبير فرجيل قصيدة تحدث فيها عن طفل يحكم العالم ويشيع فى عهده الرخاء ، ولم تكن القصيدة الا تعبيرا عن أمان مكبوته ، ولكن المسيحيين اعتبروها تنبؤا بظهور المسيح ، ولم تكن عبارات التبجيل والجلال التى خلعها فرجيل وهُورَاس على الامبراطور أوغسطس الا تعبيرا عن أحلام مرتقبة ، ولكنها لم تتحقق .

وإزاء ما عانى الشعب من ضغط وفاقة وفقر روحى ، يقابله فى الشرق نوازع روحية متعددة تُطلع الناس جميعا إلى ديانات الشرق وأفسحوا لها الطريق داخل الامبراطورية ، وكانت الثقافة العامة فى الدولة تعتمد أساسا على الفكر الدينى وتلون به الفكر الفلسفى ، وهذا ما جعل فلسفة أفلاطون تشغل أذهان الغربيين حتى القرن الثانى عشر ذلك لما بها من عناصر روحية وصوفيه عالية تنزع إلى خلاص الروح والاندماج فى الله وهذا أيضا ما جعل الفلسفة الرواقية خصوصا فكرتها عن الاخوة العالمية تأخذ مكانها فى أذهان الطبقة المثقفة ، إذ كان فيها مايرفع الضعاف الصالحين إلى مصاف الأقوياء الأثرياء (١) .

وفى القرن الثالث كانت الافلاطونية الحديثة التى أشاعها أفلوطين السكندرى. قد شاعت أيضا وأحدثت تأثيرا روحيا فى حياتهم ، وهى من أكبر الممهدات للدعوة المسيحية بما فيها من دعوة إلى التطهر والاندماج بالاله ، غير أنها كانت دعوة غير محددة إذ لم تعين صفات الاله ، بل تركت لكل طالب للتطهر والسمو الالهى أن يبحث عن إلهه بنفسه ، فلما جاءت المسيحية سدت هذه الثغرة بتجسيم الاله وبيان أنه يجمع الروح والمادة فى جسده .

والأدب العبرى أسبق وجودا وتأثيرا وتعبيرا عن المنقذ المخلص ، وهذا الأدب ،

---

(١) راجع خلاصة وافية لهذا فى « التاريخ الوسيط لكانتور ص ٥٤ ، وأنظر تاريخ أوروبا فى العصر الوسيط للاستاذ سعيد عاشور ٣٨ والكتاب الاخر « تاريخ أوروبا العصور الوسطى » للدكتور العرينى ، ٢١ — ويجد طلابنا خلاصة طيبة للفلسفات التى شاعت فى عصر المسيح فى « عبقرية المسيح » للمرحوم العقاد ويجدون أن الرواقية كانت غذاء طيبا للمسيحية.

عرف بين الرومان منذ ترجمه العهد القديم على يد بطليموس — تلك الترجمة السبعينية المعروفة التى راقتهم ، وقد بذل الفيلسوف فيلون Fillo اليهودى جهدا فى التوفيق بين الفلسفة والكتاب المقدس [1] وراجت فلسفته هذه أيضا ، وساعد على رواجها كثرة اليهود فى الاسكندرية كثرة بلغت ربع سكانها ، عدا ما كان لهم من تجمعات فى أماكن أخرى .

كل هذه كانت عوامل دافعة إلى الاتجاه إلى الشرق والبحث عن ديانة تسد كل هذا الفراغ ، وكانت المسيحية هى الجواب على هذه التطلعات .

وهذا من الممهدات لانتشارها .

---

(١) راجع عن أعماله Ninans p 376 وانظر وما كتبه عن عقائد الفرق اليهودية قصة الفلسفة وفجر الاسلام .

الاضطهادات الأولى

ظلت المسيحية تواجه اضطهادات عنيفة بدءا من منتصف القرن الأول حتى أوائل القرن الرابع ، وصمد المسيحيون لهذه الاضطهادات فى صبر بالغ وتضحيات فدائية أغرت الآخرين بالانتماء إليهم .

وكان أول هذه الاضطهادات وأقساها ما أوقعها بهم نيرون سنة ٦٤م فقد ألقى عليهم تهمة احراق روما وعاقبهم بها ، وكان فى عقوباته صارما عنيفا ، أدنى إلى الوحشية، صلبهم وطرحهم للكلاب وأحرقهم ، بل أنه كان يطليهم بالقار ثم يوقد فيهم النار ويضعهم مشاعل على الطريق [1] . وتلته اضطهادات تراجان /١٠٦ واضطهادات دقلديانوس ٣٠٣ ويعرف عهده بعهد الشهداء لكثرة ما أريق فيه من الدماء وازهق من الأرواح ، وكان يريد محو المسيحية نهائيا فهدم كنائسها ، وأحرق كتبها [2] ، ولكن كل هذه الأعمال لم تكن رغم قسوتها لتصرف الناس من عقيدة اقتنعوا بها ، أو تردهم إلى عبادة اقتنعوا بفسادها .

كانت الوثنية قد فقدت فاعليتها ، وفقدت الجانب الروحى الذى به تعمر الديانات القلوب ، وكانت المسيحية قد جمعت جوانب روحية من مصادر عديدة وكانت الصفة الأساسية التى تقوم عليها من وصف المسيح إنه ابن الله وأنه يجمع فى شخصه لاهوتية وناسوتية تجعلها قريبة الشبه من الديانات القديمة ، وكانت عبادات الأسرار قد شاعت فى هذا الجانب الشرقى من الامبراطورية الرومانية ، سواء فى جنوب البحر أو شمالية ، وكان عدد المسيحيين منذ القرن الأول قد أخذ فى التزايد ، وامتد على ساحل البحر مع الاتصالات التجارية ، وكان اليهود المشتتون فى المدن الكبيرة على جوانب البحر من المساعدين على اعطاء فكرة عن المخلص

(١) تاريخ الأمة القبطية جـ ٣ ص ١٠٤ وانظر تاريخ سورية ١/٣٦٦ — ٦٨ .

(٢) يبدأ التاريخ القبطى باعتلائه العرش سنة ٢٨٤ ، لأنها السنة الأولى للشهداء وأول شهر توت يوافق ٢٩ أغسطس من تاريخ يوليان ، وبعد وجود التاريخ الجريجورى أصبح يوافق ١١ سبتمبر ، وهو كذلك الآن .

المرتقب، ومنهم من آمن بالمسيح مخلصنا، والذين لم يؤمنزا به مهدوا له، لأن الباحثين عن الخلاص — وقد وجدوا اليهودية مقصورة على ذويها — جنحوا إلى المسيحية الناشئة. وهذا ما جعل مؤرخي المسيحية يعتبرون اليهود ممهدين لنشر المسيحية [١] ، وعلى أيّ حال تجمعت عدة أسباب كثر بها أتباع الفكرة المسيحية كثرة واضحة فى العشرين سنة الأولى من القرن الرابع الميلادى ، ولم يقف الأمر عند دخول جماعات من العامة فى حظيرة دين جديد بل نشأ انقسام فكرى بين المثقفين ، وتشققت الاراء حول طبيعة المسيح وعلاقته بالله الخالق مبدىء الكون ، وأكثر من هذا أن العلاقة بين الكنيسة والدولة انتهت إلى شيء من التوتر يهدد مركز الامبراطورية ، وهذا ما جعل قسطنطين فى قلق ، فاضطر خضوعا للظروف التى أحاطت به ، وحفاظا على وحدة الدولة أن يقبل المسيحية دينا ، ثم أن يجعلها الديانة الرسمية بعد ذلك [٢] ولكى يكسب اعترافه هذا صبغة دينية واضحة عمد من صديقه يوسيبياس أسقف نيقوميديا .

صدر مرسوم ميلانو بأباحة الديانة المسيحية سنة ٣١٣ ، وكل الأدلة توضح أنه كان عملا سياسيا بحتا، إذ توجد أدلة كافية على أن قسطنطين ظل على وثنيته حتى موته، ثم أنه إذ أقر المسيحية دينا لم يحاول القضاء على الوثنية [٣] .

والواقع أن القرن الرابع كان مسرحا لتموجات فكرية ودينية ، وبسببها تذبذب بعض الاباطرة بين المسيحية والوثنية ، فأبناء قسطنطين حاولوا القضاء على الوثنية فصادروا الممتلكات التى كانت لمعابدها وحرموا تقديم القرابين لها ، فلما جاء جوليان (٣٦١ — ٦٣) أمر باعادة المعابد الوثنية ، وقد كان هو مسيحيا من قبل ، ولم تقر المسيحية فى نفسه فأرتد سرا لأنه كان يترقب الحكم ويخشى حرس المسيحيين ، فلما نصب امبراطورا كشف عن حقيقته وأحيا الوثنية ، وكان مشبعا

(١) كانتور ص ٦٢ .

(٢) أطلق على بيزنطة القديمة اسم قسطنطين ونسبت اليه منذ سنة ٣٣٠ م وهيأ لها موقعها أن تتفوق على روما . ويجب قبول قسطنطين المسيحية باسطورة ، وهى أنه أثناء حربه لنيل الامبراطورية وزحفه على روما ٣١٢ شاهد صليبا يتألق فى الجو كتب عليه باليونانية جملة « بهذا ستنتصر » ، وواضح أنها حيلة لجأ اليها ليكتسب أنصارا ، ولم تعلن الا فى وقت متأخر .

(٣) أنظر تاريخ أوروبا لسعيد عاشور ٣٧ — ٣٨ ، وأنظر كانتور ٦٩ وما بعدها ، ومنشور ميلانو نشره د. العرينى فى كتابه « تاريخ أوروبا العصور الوسطى » ص ٥٠ ، ٥١ .

بالثقافة اليونانية وهى كما هو معروف وثنية تدين بتعدد الالهة ، ثم جاء الامبراطور جراشان (٣٧٥ ـــ ٨٣) فحارب الوثنية من جديد ، ثم جاء أباطرة آخرون اشتدوا فى محوها أكثر ، وأصدر أركاديوس (٣٩٥ ـــ ٤٠٨) مرسوما بتحطيم معابدها واستغلال حطامها فى منافع أخرى ، ومع ذلك أمتد وجود الوثنية إلى زمن أبعد من ذلك [١] .

والواقع أن الكنيسة الرومانية كانت مهيأة أن تمد نفوذها وتجعل دعوتها عالمية لولا انقسام الدعاة والرؤساء هذا الانقسام الذى لاتزال المسيحية تعانى آثاره إلى الآن .

كان أتباع الكنيسة من الطبقة الدنيا [٢] ، وكانت لغتها هى اللغة الاغريقية لغة الفقراء والعبيد وكان ذوو المكانة يستعملون اللغة اللاتينية ، وفى أواخر القرن الثانى كان رئيس الكنيسة الرومانية The Bishop فكتور (١٨٩ ـــ ١٩٩) أول مسيحى رومانى يستطيع أن يعبر عن نفسه بكتابة لاتينية [٣] .

ومع ذلك كان أشخاص من ذوى المكانة ومن الطبقة العليا يعتنقون المسيحية فحول سنة ٩٦ تبين الامبراطور دوميتيان Domitian أن أحد أقاربه ارتكب الكفر باعتناقه عبادة تتصل باليهودية (وهى طبعا المسيحية) واتهم أيضا بتدنيس بعض المعابد الوثنية فقتل هو وزوجته [٤] . وهذا الاضطراب نشأ عنه أنقسام الكنيسة إلى فرق .

---

(١) Niel p 28 .

(٢) الواقع أن أتباع الكنيسة كان معظمهم من الطبقة الدنيا ، ولكن الفكرة تمشت تدريجيا بين المثقفين لأنهم أيضا كانوا قد ملوا حذف الحياة الوثنية ، وكانوا هم القادرين على فهم الفلسفة .

(٣) Niel p 33 .

(٤) نفسه وتاريخ سورية ١ ٣٦٥ .

انقسامات المسيحية

لازمت الانقسامات المسيحية منذ عهد بولس ، هذا الداعية الجرىء النشيط الذى غذى المسيحية بتعاليمه وفلسفته ، وكان يهدف إلى نشرها بسرعة بين الأمميين ومدها إلى أقصى أطراف العالم ، وكانت أسبانيا هى نهايته فى هذا الوقت ، ولم تكن روما هى المستقر الذى يريده ، بل كان يريد قضاء وقت قصير بها ثم ينتقل إلى أسبانيا(١) وكان من منهجه أن ينشر الدعوة بين الاسيويين يهودا وأمميين ، ولكن دعوته وأفكاره كانت تصطبغ بالفكر اليونانى فلاقت معارضة من الكثيرين . وعلى الأخص من اليهود الذين دخلوا المسيحية إذ كانوا ينكرون ألوهية المسيح وصلبه ، وكان هذا أول انشقاق فى العقيدة المسيحية ، وقد ذهب هؤلاء المعارضون بعد تحطيم الهيكل ، ولكن بذور التفرقة كانت قد وضعت ، ثم نمت بعد ذلك واشتدت وأثمرت فظهرت مذاهب عدة نجملها فيما يلى .

المذهب الآريوسى ، ومجمع نيقية ٣٢٥ م :

آريوس قس مصرى اسكندرى مثقف درس الفلسفة فى مدرسة الاسكندرية ، وقد ثارت فى نفسه مسألة العلاقة بين المسيح الابن ، والاله الاب ، وهى مسألة كانت منتشرة والجدل حولها شديدا فى القرنين الرابع والخامس ، وكان رأى أريوس أن المسيح مخلوق ، وذهب يؤيد مذهبه ويفرع عليه مستعملا فلسفته ، فذكر أن العقل يقضى بأسبقية الوالد على ولده ، وبهذا يكون المسيح ابنا مخلوقا للاله ، ولابد لهذا أن يكون دون أبيه فى قدرته كما هو دونه فى قدمه والاله الاب قد خلق الكون والابن لم يخلق شيئا ، فقرر أن اعتبار المسيح مساويا للاله شرك وعبادة إلهين فى وقت واحد (٢) واذن فالمسيح ليس إلهاً بالمعنى الحقيقى لكلمة إله .

---

(١) Niel 29 — وأنظر رسالة الرومان ١٥ / ٢٤ ، ومن المبالغات التى نسبت إليه أنه وصل أسبانيا وفرنسا وبريطانيا وليس ذلك صحيحا .

(٢) راجع تاريخ أبى صالح الأرمنى ١٦٢ — ٤ ، وتاريخ الأمة القبطية ١١٣ ، وتاريخ أوربا فى العصر الوسيط ص ٤٠ ، وقد نتج عن اختلافات المدارس الفكرية فى القرن الرابع والقرن الخامس انحرافات

وعارض أريوس فى رأيه هذا الشماس أثناسيوس ، وهو تلميذ البابا الكسندروس — بابا الاسكندرية — فتمسك بأن المسيح الابن معادل للاله الاب فى كل شيء واستدل لرأيه بأن الايمان بالثالوث المقدس يحتم أن يكونا متساويين فى كل الصفات ، وأنهما — مع تميزهما — من عنصر واحد، ولا يجوز تقديم واحد على الآخر .

وهذه حجة تعتمد على الايمان الموروث لا على المنطق ، فهو لم يبين لماذا آمن بالثالوث ولا لماذا اعتبر أضلاعه متساوية .

وقد أشتد النزاع بين الطائفتين ، وانحاز لكل منهما أتباع ، ولكن أتباع أريوس كانوا من المثقفين ، بينما كان أتباع أثناسيوس من العوام لأنه مذهب تقليدى بحت فانتشر مذهب آريوس فى الشرق الهلليني، بينما ساد مذهب صاحبه فى الغرب ، وحاول الامبراطور قسطنطين أن يرأب هذا الصدع حفاظا على وحدة دولته فعقد لذلك مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م ، وحضره ٣١٨ أسقفاً غير علماء اللاهوت والقسس والشمامسة ، فشرح كل من آريوس وأثناسيوس مذهبه [١] ، وكان الامبراطور هو رئيس المجلس ، فأدلى أثناسيوس وأستاذه بحججهما واقتنع بها المجلس فحكم بجرم آريوس وتحريم تعاليمه، وهذا المجلس ذو أهمية لأنه وضع قانون الايمان المتبع إلى الآن ، وهو « نؤمن بإله واحد ... ليس لملكه انقضاء»[٢] ، وحرم على من ماتت زوجته من رجال الاكليروس أن يتزوج بأخرى وقضى بنفى آريوس إلى « البريا » [٣] ، واعدام كتابته وتحريم تداولها ومحاربة اتباعه [٤] ، ورغم ذلك كله

ومذاهب بعضها يعكس استخدام منطق أرسطو وبعضها مصطبغ بالافلاطونية الحديثة . وظهرت عبادات قريبة من الزردشتية والبوذية والمانوية بين الجماعات المسيحية . واعتقد بعض الفرق بتناسخ الأرواح . وكان هؤلاء يلبسون ملابس صفراء اللون — (وأنظر الفهرست) — تاريخ سورية ١٠١٠ : ٤ — ١١ .

(١) كان المذهب القائل بالوحدة Monophysites يتبع الرواية القائلة — بالخمر وماء ، أو نبيذ وماء اللذين تخلط حسم المسيح الاله والانسان . فبهما تحولا إلى طبيعة واحدة ، أما مذهب النسطورى فيتبع روايته أن الزيت والماء Ool & Water فى عيسى الاله الانسان ظل كل منهما منفصلا مستقلا أو بعبارة أخرى الناسوتية والالهية لم تمتزجا فيه ، واعتبر الخلص كافرا يؤمن بولدين لله — وأراد مجمع خلقيدونية أن يتفادى هذين الانحرافين . ولم يفلح .

(٢) تاريخ الأمة القبطية حـ ٢ : ١١ .

(٣) فى آسيا الصغرى . (٤) نفسه .

ظل المذهب حيا منتشرا فى الجزء الشرقى من الامبراطورية .

وفى سنة ٣٢٧ غير قسطنطين رأيه وعدل عن الرأى الذى تعصب له من قبل، فاستدعى آريوس وتركه يشيع تعاليمه .

وفى سنة ٣٣٤ عقد مجمعا فى صور ، وفيه ألغيت قرارات مجمع نيقية ، ثم نفى أثناسيوس سنة ٣٣٥ فأقام فى غاليا « فرنسا » حتى أعاده الامبراطور جوليان الملحد لأنه وجد فى اعادته تهدئة لشعبه .

وتوفى آريوس فجأة فى القسطنطينية سنة ٣٣٦ ، وقال الاثناسيون أنها لعنة الله حلت عليه بسبب كفره ، وقال أتباعه أنه مات مسموما ، ولحق به قسطنطين سنة ٣٣٧ م وكان قد قسم الدولة بين أولاده ، فأخذ ابنه قسطنطين الثانى جزءها الغربى وأخذ قسطنطيوس الجهة الشرقية ، وكانت البريا فى آسيا الصغرى والجزء الأوسط من شمال أفريقية من نصيب قنسطانز ، فمال قسطنطين إلى المذهب الأريوسى السائد فى مملكته ، ومال أخواه إلى المذهب الاثناسيوسى السائد لديهما.

وهذا مثل آخر من أمثلة الذبذبة فى القرن الرابع ، وهى لم تقف عند هذا الحد بل ظلت مستمرة بعد ذلك . ويمكن القول بأن الفكرة المسيحية حتى هذا الوقت لم تكن أخذت وضعا مستقرا بين الأفكار المتضاربة من اليونانية والرومانية والشرقية، واستخدم فى الجدل السائد بين هذه الفرق منطق أرسطو أحيانا ، وطبقت الافلاطونية الحديثة أحيانا أخرى .

مجمع القسطنطينية ٣٨١ م :

لم يكد يمضى على مجمع نيقية المسكونى نحو نصف قرن حتى شاعت فكرة أخرى حول الروح القدس وأنه مخلوق وليس قديما ، إذ القدم لايكون إلا للاله الاب ، والقول بقدم شيء معه ينافى التوحيد ، وممن أشاعوا هذه الفكرة أسقف القسطنطينية مكدونيوس . فعقد هذا الاجتماع وحضره ١٥٠ أسقفاً منهم تيموثاوس الأول بابا الاسكندرية ، فأقر قوانين مجمع نيقية وحرم هذه البدعة ، وكان المجمع فى جملته صورة من مجمع نيقية .

مجمع أفسس الأول (٤٣١) :

هذا هو المجمع المسكونى الثالث ، حضره مائتا أسقف عدا القسس الآخرين وكان سبب انعقاده فكرة اشاعها نسطور (تسطوريوس) أسقف القسطنطينية ، وخلاصتها أن فى المسيح جانبين ناسوتيا ولاهوتيا ، وأن مريم العذراء ولدت الجانب الناسوتى فقط ، ولم تلد اللاهوتى ، فهى ليست والدة الاله وإنما هى والدة انسان، وهذا لايقتضى قداستها ، وكان رأى المجمع أن الاقنومين اتحدا فى شخص المسيح وصارا أقنوما واحدا وطبيعة واحدة ، وأن هذا الاتحاد قد تم بدون اختلاط ولا امتزاج ولا تحول ، وهذا يعنى أن العذراء أم الاله بحق .

كان ظهور هذا الرأى فى عهد البابا كيرلس (٤١٢ — ٤٤٤) ، وهو البابا الرابع والعشرون ، وقد هاله نشر هذه الفكرة واعتبرها كفرا — وقام بطريرك الاسكندرية كيرلس الأول بالرد على هذه البدعة ، وكتب رده ووزعه على الرهبان ، وأرسله إلى نسطور والى القيصر ولكن نسطور لم يعبأ به ، وأخذ أسقف روما موقفا أكثر جدية فعقد مجمعا محليا أنكر فيه عمل نسطور ، وأمهله عشرة أيام ليتوب ، غير أن أسقف انطاكية انحاز إلى نسطور وأيد رأيه ، وبذا تصدعت الكنيسة ، واختلف كبار رجالها ، فرأى الامبراطور أن يعقد هذا المجمع المسكونى الثالث برياسة البابا كيرلس ، ورفض نسطور أن يحضر هذا المجمع أو يعترف به فحكم المجمع بكفره .

بعد اعلان هذا الحكم حضر أسقف انطاكية المؤيد لنسطور ومعه أربعون أسقفا فساءهم هذا الحكم فعقدوا مجمعا لهم قرروا فيه عزل البابا كيرلس وبطلان حكمه ، ورفع كل من الجماعتين قراره إلى الامبراطور وازاء هذا الخلاف بين أقطاب الكنائس قرر الامبراطور عزل كل من نسطور وكيرلس معا[1] .

آثار هذا الحكم ثائرة الاتباع لهذا وذاك ، ولم يحتمل الامبراطور مواجهة هذه الغضبة فأطلق سراح كيرلس وأبعد نسطور إلى أخميم — بجنوب مصر .

هكذا بدا هذا الانشقاق الفكرى ، ودعت الظروف السياسية إلى تعدد عقد

(١) أنظر تاريخ الأمة القبطية جـ ٢ ص ٨٨ — ٨٩ ، ١١٦ ، ويلاحظ أن الكنيسة أصبحت خاضعة للاباطرة .

المجالس المسكونية ولم يظفر أى مجمع بتأييد عام . بل كان لكل مجمع معارضون ومؤيدون . وأمتد المذهب النسطورى فى الشرق وكثرت كنائسه ومدارسه ، وقامت فى أرض فارس وسقى الرافدين كنيسة كبيرة سميت « كنيسة الشرق » وكانت ذات نشاط كبير ، وكان لها فرع فى بغداد أيام الرشيد ، وسمى ما حوله حى الروم وهى التى أرسلت المبشرين إلى الهند والصين ، وكان لها نشاط فكرى فلسفى ولقاء مع المسلمين ، وسماها معارضوها نسطورية من باب السخرية .

أفسس الثانى ٤٤٩ م :

عقد هذا المجمع لمناقشة رأى أعلنه الاب أوتاخى (افتيخوس) رئيس دير بجوار الآستانة ، وخلاصته أن طبيعة اللاهوت وطبيعة الناسوت امتزجتا فى شخص المسيح وذابت الناسوتية فى اللاهوتية وكونتا شخصية واحدة — فأغضب ذلك القائلين بالطبيعة الواحدة فقام البابا الخامس والعشرون فى مصر — ديسقورس الأول بتنفيذ هذا الرأى ، وكان رئيس هذا المجمع ، فأعلن أوتاخى أنه مؤمن بقرار مجمع نيقية ، فبرأه المجمع ، لكن رئيس كنيسة القسطنطينية . وكان نسطوريا . أعلن تأييد فكرته ، فقرر المجمع أبعاده ، ولم يرض رئيس كنيسة روما عن هذا القرار ولكن لم يتعجل اعتراضه ، ثم أعتلى مرقيانوس العرش ، وكان زوجا لبلخاريا الراهبة الحسناء ، أخت الامبراطور السابق وكانت غير راضية عما حدث[1] ، فقرر الامبراطور عقد مجمع مسكونى آخر ، فعقد فى خلقيدونية سنة ٤٥١ م[2] .

مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ م :

عقد سنة ٤٥١ م ، وكانت جلساته عنيفة مضطربة لكثرة الخلافات بين أعضائه ، وقد أدان ديسقورس واتهمه بأنه يرى رأى أوتاخى ولم يُجْدِ عليه دفاعه عن نفسه وإنكاره هذه التهمة ، فنفى وسجن حتى مات ، وشتت أتباعه ، ولكن أنصاره كانوا كثرا ولم يقبلوا هذه القرارات ، فعقدوا مجامع محلية معارضة وكان هذا المجمع بداية انشقاق أوسع ، ومع أن كنيسة الاسكندرية تدين بالعقيدة الموحدة ،

(١) لم يعترف بهذا المجمع لا كنيسة روما ولا الكنيسة اليونانية .

(٢) أنظر أيضا تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ٥٢ ، وتاريخ العرب ١٨٧ .

التى تقرر أن طبيعة الله واحدة مثلثة الاقانيم [١] وكان بالاسكندرية وبالقسطنطينية مؤيدون لهذا المجمع ، وكانوا يسمون الملكاينين ، نسبة لمذهب الملك ، كما كان بكل منهما أرثوذوكسيون أيضا[٢] وذكر أبو صالح الأرمنى أن هذه الحركة أمتدت إلى وقت طويل بعد ذلك ، وأنه فى أوائل القرن الثانى عشر كان يوجد بدير القديس أنطونيوس بمقربة من أطفيح (بالجيزة) على نهر النيل راهب يدعى بلوطس ، كان عالما ومعلما وخبيرا بأوضاع الدين المسيحى ... وقد خالف قرارات مجمع نيقية ، وأشاع أن المسيح كان انسانا ككل الأنبياء السابقين ، وكان بلوطس هذا يلبس ملابس الرهبان ، ويقول أنه موحد وينفى عن المسيح صفة الالهية . ورأى السير توماس آرنولد أن هذا القول مما ساعد على قبول الاسلام بمصر لقربه من الاسلام[٣] ويسمى القائلون بالطبيعة الواحدة (المونوسيزم) أخذا من الكلمة Monophistism [٤] كما يسمون المونوفيست ، وهؤلاء رفضوا قرارات مجمع خلقيدونة ، لأنه قرر مبدأ الالهية والبشرية معا فى شخص المسيح ، وجعلوا شعارهم : « الطبيعة الواحدة لكلمة الله المتجسدة » وهم فى الواقع يمثلون انشقاقا فى الكنيسة الشرقية أعظم من انشقاق نسطور . وفى القرن السادس زاد أتباع هذا المذهب فى الشرق ودخله الغساسنة وعرب آخرون على تخوم الجزيرة العربية ، وأمتد إلى سورية وأرمينية ، وأطلق عليهم اسم اليعاقبة ، نسبة إلى يعقوب البرادعى Baradima وقد كان أسقفا لأوربا حول منتصف القرن السادس ، وتوفى عام ٥٧٨م ، وكان ذا نشاط كبير فى نشر المذهب[٥] وكان تلميذا لديسقورس أرسله إلى مصر عقب القبض عليه ليبلغ المصريين رسالة منه تحثهم على الثبات على عقيدتهم ، ويكثر الحديث عن النساطرة واليعاقبة على أنهما الكنيستان المتنازعتان فى الشرق .

(١) يتبع كنيسة الاسكندرية كنائس الحبشة وأرمينية والسريان والأرثوذوكس .

(٢) كلمة الأرثوذوكس تعنى الطريق المستقيم ، وهى تحمل تعريضا بانحراف المذهب الملكانى .

(٣) أنظر الدعوة إلى الاسلام ١٢٦ .

(٤) الكلمة اليونانية مونوس Monos معناها واحد والكلمة فيزيس Physis تعنى طبيعة وكلمة مونوفيزس تعنى الطبيعة الواحدة .

(٥) تاريخ سورية ١٠ / ٤١٢ ـــ ١٣ .

وظل عدد هؤلاء الموحدين ينمو فى الشرق حتى ظهر الاسلام وفشأ فى القرن السابع فانضمت اليه كثرة أنقصت عدد المسيحيين ، ثم انتقل التنافس بين الطائفتين إلى منافسة الدعوة الاسلامية والحد من نشاطها واتجه تبشيرهما إلى الشرق الاقصى [1] .

ويعنى المثقفون بأسباب هذه الخلافات حول طبيعة المسيح ، فيردونها إلى الفلسفات اليونانية خصوصا منطق أرسطو والافلاطونية الحديثة ، وكلاهما كان شائعا فى الشرق ، وقد كان أبو لينارس Appollinars أسقف أوربا (٣٩٠ م) فى رده على أريوس يعتمد على مبادىء الافلاطونية الحديثة التى ترى أن الطبيعة البشرية تتكون من جسد وروح ونفس ، والروح تمنح الحياة لكل حى لكن النفس تمنح العقل ، والمسيح كان له جسد وروح بشريان لكن نفسه كانت هى الكلمة Logos وبهذا يتميز عن البشر الآخرين ، وهذا يعنى أن المسيحية صورة يونانية [2] .

وأنظر بعد حديث « الروحانيون » .

(١) أنظر Niel وراجع ما سبق .

(٢) راجع تاريخ سورية ١ / ٤١٠ — ١١ .

تطـــورات التبشير

بميلاد المسيح عليه السلام يبدأ العصر الوسيط [١] وهذا العصر له سماته الخاصة ، فهو عصر الجهل والخرافة والتأخر ، وقد لعبت الدعوة المسيحية ورجال الكنيسة فيه دورا لون تاريخ أوروبا بلون قاتم منفر . لا تزال أشباحه تتراءى لكل من ينظر فى لوحة التاريخ . ويبدأ التبشير بالمسيحية فى أوروبا بأعمال الرسول بولس ، فهو — مع أنه لم ير المسيح ولم يكن من أنصار المسيحية فى بدايتها . تولى تنظيم كنائسها ومجتمعاتها الأولى . ووضع أهم معتقداتها وفلسفتها اللاهوتية والأخلاقية [٢] ، وهو الذى سمى المسيح ابن الله وكان الرسول بطرس رفيقه فى تاريخ معروف ، وقد ماتا أيضا فى روما ، فاكتسبت بهما قداسة ميزتها عن غيرها ، ومع تفوق الدعوة المسيحية على الديانات الوثنية التى وفدت على الدولة الرومانية من الشرق لم يكن تمشيها فى القارة الأوربية سهلا ولا سريعا فقد أقبلت عليها كثرة من الناس لما امتازت به من غذاء روحى ، ولأنها جمعت من الديانات والفلسفات القديمة جوانب أخلاقية رفيعة كان الشعب الذى أرهقه الظلم وجفاف المعنويات من حياته يتطلع اليها [٣] ، ولكن لم يكن هذا الاقبال عاما ، فقد كان الكثيرون أيضا يؤثرون البقاء على وثنياتهم ، ومع أن قسطنطين قرر المسيحية ديناً رسميا للامبراطورية ، وأجبر الناس عليها فى غير رفق ، ظل بالدولة وبروما نفسها وبيزنطة وثنيون ، هذا لأن المسيحية معقدة ليس من السهل أن تفهم ، والذين دخلوها اقبلوا عليها بشعور عاطفى ، وكان الحديث عن معجزات المسيح وشهداء

(١) تحديد العصور الوسطى غير متفق عليه . والكثيرون يجعلون بدءها اعتلاء دقلديانوس عرشه سنة ٢٨٤ . وبعض يجعله سنة ٤٧٦ . وهو نهاية حكم روما فى غرب أوروبا وينتهى بعصر الوسيط بعصر النهضة الأوروبية ، وهو ثلاثة أقسام ، العهد الأول والعصر الوسيط والعصر الأخير . ونحن نسميها جميعا باسم العصر الوسيط تجوزا ، لوقوعه بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث .

(٢) أوروبا العصور الوسطى — دكتور عاشور ص ٣٤ .

(٣) التاريخ الوسيط — كانتور ص ٥٨ .

المسيحية وتحملهم العذاب مما دفع الآخرين إلى الدخول فى هذا الدين طمعا فى الجنة والسعادة الأبدية لاتباع المسيح [1].

وبجانب الكنيسة الام فى روما والمستحدثة فى القسطنطينية قامت الاديرة ونشأ عنها الجمعيات التبشيرية وعملت كلها على نشر المسيحية وبث تعاليمها . ومع ذلك كان سيرها فى أوروبا بطيئا ، فهى انتقلت إلى بلاد الغال (فرنسا الآن) وإلى أسبانيا ثم دخلت انجلترا فى القرن الثالث ولم تستطع الانتشار ولا ملء أى من هذه الاقطار . وفى القرنين الرابع والخامس تدفقت على أوروبا أفواج من القبائل الوافدة من أواسط آسيا من الجرمان والقوط والسكسون والتيوتون وغيرها ، وكلها كانت وثنية ذات ديانات بدائية ، ولم تدخل المسيحية إلا بعد زمن ، ولكن مما هو شائع بين مؤرخى التبشير أنه بنهاية القرن السادس كانت المسيحية قد دخلت معظم اقطار أوروبا وإن لم تمح الوثنية . وقد تأخرت الأراضى الواطئة فى شمال شرق أوروبا وتأخرت روسيا أكثر فى دخول هذه الديانة ، ويمكن أن يكون القرن العاشر هو العهد الذى تضعضعت فيه الوثنية فى أوروبا ودخلت فيه المسيحية جميع أقطارها.

أما العوائق التى حالت دون انتشار الدعوة بسرعة ـــ عدا ما كان من معارضة الأباطرة قبل قسطنطين ، وعدا قدوم البرابرة من أواسط آسيا ـــ فيرجع إلى فساد الكنيسة وفساد رجال الدين ، ثم إلى خروج جماعات كثيرة عن نطاق البابا ورجال الدين الذين كانوا يمثلون النفاق ويتجرون بالدين .

وإذا وازنا بين بداية التبشير المسيحى وبداية الدعوة الاسلامية نجد الفرق بعيدا جدا ، فقد لقى الاسلام مقاومة كبيرة أول ظهوره ، وتعتبر هجرة النبى ﷺ إلى المدينة حدثا موازيا لقرار قسطنطين بجعل المسيحية دينا رسميا ، بل هى أقل من ذلك لأنها لم تفرض الاسلام بل فرت به ، ولكن اقبال العرب على الاسلام لم يكن متاحا ، وما كادت مكة تفتح حتى أخذت الوفود تتوارد على المدينة لاعلان اسلامها ، ولم يمض الا زمن يسير حتى كان الاسلام يشمل اقطارا بعيدة ، وكان الاسلام ينشر معه فى كل قطر ينزل به علما وتمدنا، وبينما استغرقت المسيحية أكثر من عشرة قرون حتى تشيع فى القارة الأوروبية ، أمتد الاسلام فى قرن واحد فشمل

(١) الدعوة الى الاسلام ١٢٥ .

مساحات تزيد على ما شملته الدولة الرومانية وهى فى أقصى اتساعها[1] .

ومنذ القرن السابع الميلادى كان الاسلام والمسيحية يتنافسان ويتنازعان أيضا أجزاء من الأرض ، فالمسيحية لم تكن شملت كل القارة الأوروبية بينما اقتص الاسلام منها سواحل البحر الأبيض ، وبذل المسلمون محاولات للاستيلاء على القسطنطينية.

وخلال العصر الوسيط كانت أوروبا المسيحية تعانى أسوأ ظلم وأقسى معاملة من الحكام ، وكان الاسلام ينشر العدل والمساواة والرفق بالانسانية وكانت العلوم والفلسفات تدرس وتنير عقول الناس ، وكان البابوات يبيعون صكوك الغفران ويعدون بالجنة والنعيم من يطيعونهم ويقدمون لهم المال ، ويحرمون منها من لم يطعهم أو يقدم لهم العطايا .

وهذه فروق واضحة بين منهج الديانتين .

فليست العصور الوسطى عصور ظلام فى الجانبين ، ولا عمل الديانتين ذا أثر واحد فى أتباعهما .

---

(١) حتى تاريخ العرب المطول ٦٠٢ .

حياة الرهبنة والديرية

نظام الرهبنة وحياة الديرية مما له علاقة وثيقة بتعاليم المسيحية وأعمال التبشير ، لهذا نرى أن نعرف بكل منهما فى شيء من الايجاز ، ويختلف كل من النظامين عن الآخر فالراهب ينقطع عن حياة الناس العامة وعن تيار الحياة ويخصص نفسه للعبادة والتأمل ، وهو غالبا يهمل نفسه ويعزف عن ملذات الحياة ومتعها ، وهو لايتزوج ولا يعمل ، وملابس الرهبان كثيرا ما تكون رثة مهملة[1] وكانوا يعيشون على الصدقات أو على ما يكون مرصودا لهم من أوقاف المحسنين ، وهذا اللون من الحياة لا يرضاه الاسلام ولا يقره ، لأنه لا تقوم عليه حياة ، ولأنه لا يشرف الانسان ايا كان أن يعيش على مجهود غيره ولا يعمل ، بل أن العمل نوع من العبادة .

أما حياة الدير فتختلف عن ذلك بأن بها عملا ونشاطا ، وعلى أقل تقدير بها اكتفاء ذاتى من الجانب المادى ، وبها حظ من التعلم والثقافة ، ويرجع الفضل فى هذا إلى القديس بندكت وقد تحدثنا عنه فى الحديث عن جماعة « البندكتين » .

وحياة الرهبنة ليست وليدة العصر المسيحى ، بل هى قديمة معروفة فى الشرق من قديم ، وكان أنبياء بنى اسرائيل ينقطعون لهذه العزلة فى الجبال جماعات وأفرادا ، وعلى عهد يوحنا المعمدان (يحيى عليه السلام) كانت هناك أماكن خاصة للرهبنة وأديرة حول البحر الميت [2] وكان لهم أعمال خاصة تقوم عليها حياتهم ، واشتهروا بالنظافة وايثار الملابس البيضاء ، وكانوا ينتقلون من مكان لآخر فيتركون آنيتهم وملابسهم نظيفة منظمة ليستعملها من يأتى بعدهم ، وقد كشفت لفائف البحر الميت كثيرا من صفاتهم ونظم حياتهم [3] وليس من شك أن القديس بندكت قد أستفاد من نظمهم .

(١) وليس الواقع الذى يؤيده بعض المتصوفة ومدعى الولاية تطور من ملابس الرهبان ، وقد انتقلت هذه الظاهرة إلى بلاد بعيدة عن الشرق الأوسط وإلى غير المسيحيين .

(٢) John The Baptist p 16 - 20.

(٣) Dead Sea Scrolls .

وليس منشأ الرهبنة أساسا هو الفرار من الظلم ، ولكن ظلم الحكام وسوء الأحوال الاجتماعية مما سبب زيادتها والاقبال عليها ، وأيضا ليس كل عزلة أو انقطاع للعبادة والتحنث رهبنة ، فان رغبة الشخص فى التأمل وشغل الوقت كله بالعبادة، وأيضا الرغبة فى اخلاص العبادة لله وجعلها سرية بين المتعبد وربه . كل ذلك يحمل العباد والمفكرين على الخلوة والبعد عن الناس ، وقد كان رسول الله ﷺ يتعبد فى غار حراء ويمكث به الليالى ذوات العدد ، وهو طبعا لم يكن راهبا فى دير . ومازلنا نجد بعض الناس يفعلون ذلك رغبة فى البعد عن لهو الحياة ولغو القول وايثارا لاستغلال الوقت فيما هو أنفع وأجدى .

وفى عصر ظهور المسيحية كان الظلم الرومانى سائدا فى الشرق الأوسط كله، وتُعْزَى كثرة المفلوجين وذوى الاضطرابات العصبية إلى هذا الظلم[1] وفى الفترة التى تلت ذلك أشتد الظلم بسبب الانقسامات التى ظهرت فكثر الاقبال على الأديرة وكثر عدد المترهبين وبعض البارزين من رجال المسيحية كان يلجأ إلى العزلة هربا من العقوبة ، وكانت القرون الثلاثة من الرابع إلى السابع بعد المسيح أكثر العصور أديرة ورهبانا ، لأن هذه الحقبة كانت من أشد الاحقاب سوءا على المسيحيين، وفضلا عن هذا الظلم نجد بكتب المسيحية ما يدعو إلى العزلة والتقشف والعزوبة وقد رفض المسيح أن يتبعه شاب ثرى ، وقال لايدخل ملكوت الله غنى [2] . وكان النساك المسيحيون يؤثرون التشبه بالمسيح فى العزوبة ، وقد جاء تحريم الزواج على رجال الكنيسة لهذا السبب .

وكان الاضطهاد الدينى والتعذيب لأجل قبول المسيحية أو المذهب الذى يريده الامبراطور أمرا عاما ، ولكن ما عانى منه قبط مصر أكثر مما عانت الاقطار الأخرى ، وساعدت بيئتها وطبيعة بلادها على نشأة الرهبنة بها ونموها ، وفى منتصف القرن الثالث كانت الصحراء الغربية مباءة الرهبان ، وكانت مليئة بهم وبالنساك الذين سموا آباء الصحراء [3] وكثر بها المستخفون من جور الحكام وظهر

(١) أنظر عبقرية مسيح .

(٢) لوقا ص ١٨ ٢١ ــ ٢٥ ، وأنظر متى ١٩ / ١٦ ــ ٣٠ ، ومرقس ١٠ : ١٧ ــ ٣١ .

(٣) Niel p 36 ويرجع تاريخ الأمة القبطية جـ ١ .

فى تاريخهم أشخاص لايزال تاريخ المسيحية يحفظ اسماءهم وربما أحيطوا بشيء من المبالغة ، أمثال القديس انطون وبولس الطيبى وأوريجين .

وكان القديس أنطون هو المؤسس الأول لنظام الرهبنة ، وحياته تحاط بهالة من الأساطير ، وقد أعتزل الناس والحياة وعاش فى الصحراء ومات بها بين سنتى (٣٥٦ ـــ ٦٢) وانتقل نظامه من مصر إلى سوريا حيث قام أحد تلاميذه وهو هيلاريون Hillarion من غزة بنشر مبادئه وتبنيها ، ثم قام بها فى سوريا أيضا راهب كان يدعى أفرام (٣٧٣) وفى القرن الخامس ظهر القديس سمعان ٤٥٩ ، فأنشأ فى شمال سوريا كنيسة كبيرة سميت قلعة سمعان ومن ثم انتشرت حياة الرهبنة وتخطت البحر إلى البلاد الأوروبية ، وسمى الراهب هناك هرمت Hermit أخذا من اللغة اليونانية بمعنى الصحراء ، لأن الرهبان كانوا يتخذون صوامعهم بها .

أما القديس بولس الطيبى ـــ نسبه إلى طيبة ـــ (٢٥١ ـــ ٣٥٦) فهو شخصية اسطورية ، وليس من السهل استخلاص حياته الحقيقية من ركام الخرافات التى نسجت حوله[1] ولكنه ـــ فيما يبدو كان محصور الأثر فى مصر ، ولم ينتقل تأثيره إلى خارجها كما فعل أنطون وهذان على أى حال أوائل الرهبان ، وأول من وضع للرهبنة نظما لأنها قبلهما كانت أعمالا فردية .

ومن أعمال أنطون أنه نظم مستعمرات الرهبان فى مصر العليا ، فجعل لكل راهب خلوته الخاصة به ليتعبد فيها منفردا ، ويجتمع للتعاون فى عمل مايحتاجون اليه من طعامهم وملابسهم[2] ، وكانت هذه خطوة لنشأة الديرية .

أما أول دير عرفته المسيحية فهو الدير الذى أنشأه القديس باخوم قرب قرية دندرة ـــ تجاه بلدة قنا ـــ حول سنة ٣١٥ ـــ ٣٢٠ ، فهو أول من خطا بنظام العبادة من الرهبنة إلى الديرية ، ولم يكن هذا ـــ كما ترى ـــ إلا بعد أكثر من ثلاثة قرون .

(١) قيل انه قضى ٩٧ سنة فى احد الكهوف فى طيبة منفردا ـــ وعمره كما ترى ١٠٥ . وهذا يقتضى انه دخل الدير وعمره ثمانية أعوام .

(٢) أوروبا العصور الوسطى ١٦٠/١ .

وباخوم لم يقتبس هذا النظام من أصول مسيحية ، ولكن كان أول حياته جنديا فى جيش الامبراطور قسطنطين ، ولم تكن عزلة الرهبنة التى قبله مما يلائم حياة الجندية التى ألفها ، فأنشأ أديرته واضفى عليها لونا من النظام العسكرى يتمثل فى الهدوء والنظام والطاعة والتعاون الجماعى بجانب العبادات الفردية .

ولم تكن حياة الرهبنة الفردية ذات جدوى على المسيحية إلا من طريق غير مباشر وكانت تنطوى على عيوب كثيرة ، وكانت قائمة على الكسل والقذارة وهى عمل سلبى لايفيد فى نشر المسيحية ، بل كانت عاملا فى نشر الخرافة وكان طلاب الحاجة والراغبون فى الرهبنة هم الذين يسعون إلى صوامع الرهبان ، وسكانها لاينتقلون للتبشير ونشر المسيحية ، ونتيجة لهذه الحال ولظروف الحياة العامة إذ ذاك شاعت الخرافات ، وأصبح الناس يلجأون إلى الرهبان التماسا للبركة وطلبا لشفاء مرضاهم أكثر مما يذهبون إلى الأطباء ، كما كانوا ينشدون لديهم السعادة فى العالم الأخروى ، وقوى هذه النزعة ما كان يشاع عن معجزات المسيح الذى يبرىء الأكمة والابرص ويخرج الشياطين من أجسام المرضى والمجانين ، وكان تلاميذه أيضا يفعلون مثل ذلك [1] فحسب العامة أن روح المسيح حلت فى هؤلاء الرهبان وأنهم لذلك يملكون ما هو قريب من هذه المعجزات ، وعن هذه العقائد الساذجة نشأت فكرة صكوك الغفران ، وهذه المظاهر لم تنقطع بنشأة

---

(١) فى أعمال الرسل ص ١٩/٥ فتح الملاك باب السجن وأخراجه الرسول بطرس مع رفاقه ص ٣٢/١٠ــ٤٠ وأن بطرس شفى مفلوجا كان يدعى اينياس ، وأحيا فتاة كانت قد ماتت وغسلت وأخذت للدفن ، وفى الاصحاح (٦/١٢) أن ملاك الرب جاءه وهو فى السجن والسلاسل ، فسقطت قيوده وانفتحت له أبواب السجن فاجتاز الحراس واحدا بعد الآخر ولم يروه ، وفى الاصحاح ١٦/١٦ــ٢٨ ، شفا بولس امرأة بها روح خبيثة ، وحدوث زلزلة من أجله بها فتحت أبواب السجن الذى كان به وفى الاصحاح العشرين ١٠ ــ ١١ ، أحياء بولس شابا سقط من علية ميتا ، وهناك أحداث أخرى كثيرة من هذا النوع ، أما حلول الروح القدس على حوارى المسيح فكثير وشائع جدا ، وكل هذا مما كان يغرى العامة ويطمعهم فى الاستفادة من مثل هذه المعجزات .

وهذه المعجزات مذكورة أيضا فى العهد القديم ، فينسب لايليا واليشع أحياء الموتى بل أن ميتا وضع على عظام اليشع بعد موته فصار حيا ، وقد ابرأ أيضا نعمان السريانى من برصه ، وعندهم أيضا أن ايليا وأخنوخ لايزالان على قيد الحياة ، وهكذا ينسب لكثيرين وخصوصا لموسى ــ عليه السلام ــ معجزات كمعجزات المسيح ، وارتمى ميخا على ميت منذ زمن فنفخ فى أنفه فقام حيا ... الخ .

الأديرة ، ولكن الأديرة كانت ذات عمل ايجابى ، وسنرى بعد أن بندكت اقتبس من نظامها .

وحُبّب إلى الناس نظام الأديرة فأقبل عليه الكثيرون ، فتعددت أبنيتها وأماكنها، وكان بعضها مرتبطا ببعض بسبب أو لسبب آخر ، وبعضها كان مستقلا لا علاقة له بغيره ولكنها كلها كانت على النظام الباخومى .

وكما نشأت الأديرة فى مصر وانتقلت منها إلى ما جاورها ، كذلك انتشرت الأديرة فيما هو قريب وبعيد فى الشرق الأوسط بادئة من مصر ، فشملت بلاد الشام وأمتدت إلى ما بين النهرين وإلى آسيا الصغرى وقبرص ، وكلها تتبع النظام الباخومى .

ولاحظ الدكتـور مراد كامل أن الرهبنة المصرية وصلت إلى انجلترا ، إذ كان الرهبان هناك ينقطعون فى الجزر الصغيرة ويسمون رهبان الصحراء ، وليس هذا إلا تقليدا للرهبنة المصرية فى صحراء مريوط [١] .

وقد ذكرنا من قبل أن الرهبنة أسبق وجودا من المسيحية ، واذن فالذى انشأته المسيحية هو نظام الأديرة ، ولكن يبدو أن شيوع الرهبنة هو الذى دعا إلى التفكير فيه ، لأن الرهبنة نظام شاذ لا تقوم الحياة عليه ، وهو يحتمل من الأفراد ولا يحتمل من الجماعات ، فكان لابد من التفكير فى انشاء الأديرة ، ويمكن أيضا أن نرجع بكثرة الرهبنة ونشأة الأديرة إلى الظروف السيئة التى أشرنا إليها لأن هذه الحياة لم تفتر وتصبح شيئا مألوفا إلا فى القرن الرابع ، ثم ظهرت فى أوروبا وكثرت أيضا فى القرن الخامس وصارت مألوفة فى القرن السادس [٢] وستأتى أعمال القديس بندكت . فالحياة الديرية وهى أقوى ما ورثه الشرق من المسيحية [٣] ترجع إلى مصر .

ولا شك أن بذور الزهد والدعوة إلى ترك المال وإلى العزوبة كانت ذات أثر فى توجيه المسيحيين الأوائل إلى هذا اللون من التحنث . فالمسيح نفسه كما سبق لم

(١) أنظر مقالته فى الجزء الأول من تاريخ الأمة القبطية .

(٢) أوروبا العصور الوسطى دكتور / عاشور ١٦٠ .

(٣) نفسه .

يسمح للشاب الغنى أن يتبعه إلا إذا أنفق كل ماله [1] كما جاء فى انجيل متى أنه يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم ، ويوجد خصيان خصاهم الناس ، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات ، من استطاع أن يقبل فليقبل[2] ، وجاء فى كلام بولس : حسن بالرجل ألا يمس امرأة[3] — فهذه المبادىء قادت إلى الزهد والترهب ثم أذكتها أسباب الظلم فمازالت تدفع إلى الرهبنة حتى فشت .

وفى القرن الرابع فشت الديرية فى أوروبا ، وكان كاسيان رائدها الأول (٣٦٠ — ٤٣٥) وهو واضع نظامها ، ولم يكن على علم بنظام باخوم ، ويليه فى العمل مارتن النورى (٣١٦ — ٣٩٧) وأن كان أقدم منه ، ثم جاء بعدهما بندكت (٤٨٠ — ٥٤٣) وسيأتى حديثه .

وكان هذا النظام محببا للناس فأقبل عليه الكثيرون ، وتعددت الأديرة تتبع تعاليم باخوم ولكن لم تكن لها رابطة تجمعها بل كان كل دير مستقل بنفسه .

وكانت الأديرة تجمع بين تقاليد الرهبنة والحياة الدنيوية ، فالرهبان بداخلها منعزلون كل عن الآخر ، ولكنهم يجتمعون فى أوقات معينة لاعمال خاصة ، وهم مع انقطاعهم للعبادة يزرعون ويعملون بعض الصناعات .

وكما نشأت الرهبنة فى مصر وانتقلت منها إلى ما جاورها كذلك انتشرت الأديرة متنقلة من مصر إلى ما جاورها ، فشملت بلاد الشام وانتقلت إلى ما بين النهرين ثم إلى قبرص وآسيا الصغرى ، وكانت كلها تقوم على النظام الباخومى والانطونى .

الأديرة الباسيلية

هذه تنسب إلى القديس باسيل Passel (٣٢٩ — ٣٧٩) وهو تلميذ للرهبنة المصرية درسها ولكنها لم تعجبه فأسس ديرية جديدة حملت اسمه ، انشأ فى منتصف القرن الرابع تقريبا (٣٦٠ م) أول دير له بآسيا الصغرى فى قيصرية الجديدة ، وكان أهم ما فيه أنه قضى على حياة العزلة والانفراد داخل الدير إذ جعل

(١) أنظر لوقا ص ١٨/١٩ — ٢٦ ، وفيه : ما أعسر دخول الغنى ملكوت الله ، دخول جمل من ثقب أبرة أيسر من أن يدخل غنى ملكوت الله .

(٢) ص ١٩ / ١٢ .

(٣) الرسالة الأولى إلى أهل كورنثس ص ٧ / ١ ، ويباح الزواج مخافة الوقوع فى الزنا .

رهبان ديره يشتركون فى كل شىء ، كما نبذ فكرة اقامة الأديرة فى الصحارى أو على تخوم العمران ، وآثر اقامتها فى المدن أو على حافاتها ، ونهى عن تعذيب الأجسام بالجوع الشديد ، واهمال النظافة ، والكسل وما إليها من مظاهر الرهبنة البالية التى لم يقض عليها فى الأديرة الباخومية .

كانت مظاهر التفانى فى خدمة الآخرين بادية فى نظام باخوم، فالراهب ليس له ملكية خاصة ولكن الرهبان يقومون بأعمال كثيرة من الزراعة والحياكة والتجارة وصناعة الجلود وغيرها ، ولهم من ذلك كله ما يعيشون منه ، وما يزيد عن حاجتهم يقدم مساعدة للمحتاجين ، وكان غذاء الرهبان كافيا فى غير اسراف ولا جودة نوع ، وملابسهم رخيصة ولكنها نظيفة ، ويبدو أن باسيل اقتبس كثيرا من النظم الرومانية ومن حياة الرهبان حول البحر الميت التى وصفنا شيئا منها ، ومن الجميل من أعمال الباسليين أن أخت باسيل أنشأت فى آسيا الصغرى ديرا للراهبات فنمى عددا من العذارى تفقهن وقمن بنشاط تبشيرى .

وانتشر النظام الباسيلى انتشارا واسعا فى أنحاء الامبراطورية الرومانية وقضى على النظام الباخومى ، فان كان باخوم منشىء فكرة الدير فان باسيل هو واضع نظمه ومؤسسه تعاليم ونظاما ، وسنجد أن الأديرة فى أوروبا استفادت من هذا النظام ومن النظام الباخومى أيضا .

والأديرة بكل أنواعها كانت تمثل جانبا سلبيا بالنسبة للحكام ، بينما كانت البابوية مصدر احتكاك بالأباطرة وبالنبلاء والأثرياء ، ومن مزايا الأديرة أنها حفظت جانبا من التراث الفكرى ، وقامت بلون من التعليم .

الكنيسة فى هذا العصر :

ربحت الكنيسة كثيرا من اعتراف قسطنطين بالمسيحية دينا فى دولته ، وعلى أقل تقدير أصبح المسيحيون آمنين ، يؤدون شعائرهم جهارا ، ويعرفون بديانتهم ويدعون إلى أتباعها ، ولا يضرهم بعد ذلك أن يكون قسطنطين مسيحيا أو وثنيا ، ولا أن يشايع الأريوسيين أو الاثناثيوسيين ، ثم هى ربحت أكثر بالاعتراف بهادينا رسميا للامبراطورية كلها لكن هذا الموقف أدخل على المسيحية ورجال الكنيسة تغييرا كبيرا ، سواء فى علاقاتها برعاياها أو علاقتها بالحكام .

كانت هناك منذ القرن الأول مجموعة محدودة من الكنائس والبطارقة يجمعها رباط روحى وصلتها برعاياها هى الوعظ والارشاد ، وعندما تبوأ جريجورى كرسى البابوية ، واعتبر نفسه القائد الأعلى لجميع المسيحيين وكل الكنائس أخذ نفوذ الكنيسة يعظم ويطغى .

كانت الكنيسة تقوم على نظام هرمى لايزال قائما وأن تغيرت بعض صوره وأوضاعه ، فالبيطرق هو رئيس الكنائس الأعلى فى محيطه ، ويتبعه أساقفة لكل أسقف مجموعة خاصة من الكنائس ، وكل أسقفية تتكون من أبروشيات ، ولكن كل بطريق فى ناحيته منفصل عن الآخر ، وكانت مراكزها لا تعدو الخمسة التى ذكرنا ، فلما أصبح لها رئيس عام فى روما صار لها جميعا رابطة عامة توجهها وهى لابد أن تخضع لها . ومن هنا شاركت الكنيسة الحكام فى نفوذهم لأن رعايا كل كنيسة أو أبروشية فى القرى يخضعون لرئيسهم الدينى أكثر مما يخضعون لرئيسهم السياسى ، وازداد هذا النفوذ بازدياد المسيحين فى الدولة واقبالهم على المسيحية واضطر الأباطرة أن يمالئوا الكنائس ليضمنوا حسن ولائهم واخضاع الشعب لاحكامهم وحصلت الكنيسة على مزايا خاصة بها . أهمها اعطاؤها الحق فى جميع التبرعات وقبول المنح والهدايا من غير رجوع إلى الدولة ، وفى تيار الحمية الدينية والعاطفة الساذجة كثرت العطايا والتبرعات ، أموالا ومزارع وخدما ، فاثرت الكنيسة ورجال الدين ثراء واسعا ومع هذا حصلوا على قرار باعفائهم من الضرائب ، وخضع العامة والفقراء لنفوذ الكنيسة أكثر وصار عددهم اثنى أيضا بسبب الأرقاء الذين كانوا يقومون بفلاحة الأرض للكنيسة بلا مقابل ويكتفون بما ينالون من نتاجها وما يتمتعون به من رضا رجال الدين عنهم ، وإذ كان رجال الكنيسة هم الذين يجمعون الصدقات ويتولون توزيعها على الفقراء ومن يرونهم جديرين بها كان هؤلاء يحرصون على مرضاتهم ، أى أن الكنيسة جمعت نفوذا ماديا إلى جانب نفوذها الروحى ولكن هذا كله عاد على الكنيسة باضرار خطيرة ، أهمها أن رجالها فى غمرة هذا الثراء المفاجىء الواسع ، نسوا وظائفهم الدينية ، وشغلوا بجمع المال عن اقامة الدين ، ثم دفع بهم الترف إلى الانزلاق فى تيار الشهوات ، فارتكبوا المآثم الخلقية ، واخترعوا لابتزاز الأموال طرقا لاتقرها المسيحية ، ولا أى

دين ، وتدخلوا فى شئون السياسة تدخلا لايهدف إلى اصلاح البلاد وإنما يهدف إلى رعاية مصالحهم الخاصة ، ورعاية ممتلكاتهم ، وأعلنوا أن الحج إلى بعض الكنائس يمحو الذنوب ويفتح أبواب الجنة ، فكان هذا الحج مصدر ثراء وينبوع مال لاينضب ، ثم أخذوا يبيعون صكوك الغفران ، وأرسلوا رسلهم إلى الجهات النائية لبيعها(١) وكانت تباع من أجل الأحياء والموتى أيضا ، والعامة يقبلون عليها رغبة فى النجاة لأنفسهم وبرا بموتاهم ليخففوا عنهم العذاب فى الدار الآخرة .

ومن ناحية أخرى نفر من الأثرياء والمثقفون من هذه الحالة ، وغضب الأثرياء لما تتمتع به الكنيسة من اعفاءات ، ونفر المثقفون من سلوك رجال الدين ومن صكوك الغفران ، حتى أن المعتدلين من رجال الدين نفروا أيضا من هذه الأعمال ودعوا إلى الثورة على الكنيسة فعوقب منهم من عوقب ونجا من نجا .

كان سافونا رولا (ت ١٤٩٨ م) من أسبق الثائرين على هذا النظام فى عصر النهضة الأوروبية وقد لقى جزاءه على ثورته بالاعدام والاحراق ، وقام بالدعوة بعده وبتأثر به مارتن لوثر ولكنه بأعجوبة نجا من العقاب ، وسيأتى بعد حديث مذهبه البروتسانتى .

قدمنا أن القرن الرابع كان عصر تحول فكرى وانشقاقات بين الكنائس . وقد افضى موقف الكنيسة بعد ذلك إلى أن تنحدر فى انحطاطها بدءا من القرن الخامس إلى نهاية القرن الثامن وهذه القرون الثلاثة من أشد العصور فى تاريخ أوروبا وتاريخ الكنيسة كلها حلكة وانحطاطا .

أسرفت الدولة فى ظلم الزراع بكثرة ما جبت من الضرائب فساءت حالهم وكرهوا ملكية الأراضى ورأى كثيرون أن خير خلاص لهم هو أن يتبرعوا بأملاكهم للكنيسة ، وبذا اتسعت أملاكها ، ولم يكن الأباطرة جميعا يقيمون فى روما ، فهيأ بعدهم عنها للبابا نفوذا كبيرا وأصبح بثرائه وكثرة أتباعه منافسا للامبراطور ، وفى هذا العصر انسالت على أوروبا قبائل الجرمان والقوط وغيرها من الأمم المتبربرة فأشاعت فيها مظاهر الفوضى والاضطراب ، واقتصت أطرافا من الدولة الرومانية ، هذا بينما ظل نفوذ الكنيسة قويا سائدا ، وقد دخل المغيرون البربر المسيحية وانضووا تحت

(١) ستأتى فكرتها بعد .

لواء الكنيسة ولكنهم لم يدخلوا فى حكم الامبراطور ، فهيأ ذلك للكنيسة أن تستمر فى فسادها وتضليل أتباعها ، ولم ينقذهم منها الا عصر النهضة واستفاقة العقلية الأوروبية من سباتها العميق بسبب ما نالت من ثقافات المسلمين .

وبجانب هذه السوءات ، نذكر أنها لم تخل من حسنات ، فقد ورثت الكنيسة الغربية تراث الحضارة الرومانية (١) ، كما ورثت الكنيسة الشرقية تراث الفكر اليونانى وأطرافا من الفكر الشرقى ، وكانت الكنيسة الغربية خلال العصور الوسطى أعظم أداة حضارية (٢) لأنها حفظت بصيصا من الفكر الرومانى .

---

(١) تاريخ العصور الوسطى دكتور / عاشور ١٢ .

(٢) نفسه .

مركز البابوية وآثارها

كان لكل كنيسة رئيس يدعى بابا ، وكان هو وأتباعه يقومون بالتبشير ، وقص حياة المسيح ومعجزاته ، وكانت الدعوة بسيطة خالية من التعقيد الفلسفى ، فلما دخلها المثقفون ودارسو الفلسفة اليونانية ، وكانوا مشبعين بأفكار الافلاطونية الحديثة أدخلوا على المسيحية تفريعات لم تعرفها من قبل ، فطلبوا تفسيرا لتحول الخبز والنبيذ إلى لحم المسيح ودمه ، وتساءلوا عن الملائكة والشياطين الذين كان المسيح يخاطبهم ويخرجهم من أجسام المرضى ، وكان أهم من ذلك كله بحث العلاقة بين الله والمسيح وهذه هى التى عقدت لها المجامع ونشأت عنها الفرق المسيحية ، واهتمت الدولة باقناع هؤلاء واجابة استفساراتهم عندما أصبحت المسيحية دينا رسميا لها ، وقام بهذا الشرح جماعات من العلماء سموا آباء وسموا قديسين ، وقد عملوا جهدهم على التوفيق بين المسيحية والفلسفة ، كما أنهم من جانب آخر لاءموا بين الكنيسة ومطالب الدولة ، فكان فى الدولة تياران لحكم الشعب ، تيار سياسى تقوم به الدولة ، وتيار روحى تقوم به الكنيسة واستدعى الموقف أن يكون للدعاة الروحيين رئيس عام مشرف يتزعم كل فروع الكنيسة ، ولم يكن هذا الأمر هينا ، فان الكنيسة الغربية اتجهت إلى أسقف روما الذى تحول كرسيه إلى بابوية ذات سيادة على كنائس روما الغربية ، لكن الكنيسة الشرقية اتجهت إلى أسقف القسطنطينية ، لأنها أصبحت مقر الاباطرة ، وهى التى منذ عهد قسطنطين — أول امبراطور أقر المسيحية — تدعو لعقد المجامع المسكونية ، وكان حول العاصمة الجديدة مراكز دينية هامة — الاسكندرية وبيت المقدس وانطاكية وقيصرية وغيرها ، ولكن بدا أن هذه المراكز مفككة بسبب الاختلاف المذهبى ورفضها قرارات قبلتها القسطنطينية من قبل ، وأيضا كان ينافس روما كنائس أخرى أهمها كنيسة قرطاجة ، وهكذا بدا نزاع يتفرع حول مركز البابوية الأعلى ، وتنازعته العاصمتان ، وكل لها حجة وأمامها مانع .

ورجحت أخيرا كفة روما لأسباب دينية لأن كنيستها ترتبط بالشهيد بطرس

الذى اختاره المسيح واختار اسمه وقال : على هذه الصخرة ابنى كنيستى[1] ، وبطرس رئيس التلاميذ بروما أقدم والدعوة بها أقدم ، وكان أيضا للبابوات بها مواقف وأعمال ، لهذا تمت الموافقة على ذلك فى منتصف القرن الخامس فكان البابا ليو الأول ويسمى بالكبير أو العظيم (٤٤٠ ــ ٦١ م) أول بابا تم فى عهده الاعتراف بسيطرة البابوية على الكنائس الغربية ولم يوافق الشرق البيزنطى ، بل أصر على مساواة العاصمتين فى المكانة ، وأثير ذلك فى مجمع خلقيدونية ٤٥١ ــ الذى لم يحضره ليو ، ولكن مندوبه أبدى حججا لتفضيل روما ، ثم صدر فى سنة ٤٥٥ عن امبراطور الغرب قرار يقضى بخضوع الأساقفة لبابا روما ، ولكن هذه التبعية لم تتم إلا فى عهد جريجورى الأول (٥٩٠ ــ ٦٠٤) ــ ويسمى أيضا جريجورى العظيم [3] .

(١) أنظر متى ١٦/١٨ــ٢٠ ــ ونص العبارة ... وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السموات وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السموات .

(٢) كان يوجد فى الدولة خمسة بطارقة فى الكنائس الرئيسية وهى : روما وأنطاكية وأورشليم والاسكندرية والقسطنطينية .

(٣) أصبح لقبا لكل بابوات روما بعد ذلك .

من جريجورى العظيم ؟

أعظم منظم وباعث لنشاط الارساليات التبشيرية بعد الرسول بولس ، وله أثر كبير فى تلوين السياسة الأوروبية وتوجيه الدعوة المسيحية فى العصر الوسيط ، وظلت آراؤه وتقاليده مرعية بعده .

وهو فى الأصل راهب بندكتى شديد الاخلاص لمذهبه ، اختير وهو فى سن الخمسين ليتبوأ عرش الرسول بطرس فى روما ، ولم يكن ذا رغبة فى هذا المنصب ولا سعى لنيله ولكن رجال الدين أصروا على اختياره لما له من ميزات تجعله جديرا به (١) فتولاه سنة ٥٩٠ وظل به حتى مات سنة ٦٠٤ م .

وعقب انتخابه أرسل خطابات إلى كبار رجال الدين يعلن فيها أنه لم يكن يسعى إلى عرش بطرس ، وأنه كان يفضل حياة الرهبنة بما فيها من عبادة وتأمل ، ومع أنه كان صادقا فيما أعلن صارت هذه تقليدا متبعا عند خلفائه حتى من الذين سعوا طويلا لهذا المنصب وبذلوا لنيله جهدا (٢) .

كان من أسرة نبيلة ثرية ، وناله منها حظ كبير من المال ، وكان وضعه هذا يهيئه للمراكز العليا فى الدولة ، وقد انفق هذا المال فى بناء الأديرة ، فبنى ستة منها فى صقلية وبنى سابعا فى روما ، ووزع ما بقى من ماله على الفقراء ، ونبا عن المناصب المدنية ، وكان الامبراطور جستين قد بوأه فعلا منصبا كبيرا فى الدولة فاستقال وآثر حياة الديرية ، وكان فى صلاته وتعامله مع الناس جم التواضع حتى بعد أن أصبح فى مركز البابوية ، واعتبرها واجبا عليه يتحتم أداؤه بدقة واخلاص ، وتسمى باسم خادم خدام الله (٣) ، أما فى سلطته فكان قويا يعتز بالمنصب

(١) Nicl p 68 - 70 .

(٢) كانتور ٢٧٢ .

(٣) كان القديس بندكت أول من سن مبدأ الحكومة الكنسية ، وفيها جعل مقدم الدير ذا سلطان مطلق على الرهبان الذين معه ، ولكنه اعتبر سلطته خدمة لهم ، وذلك من كلمة المسيح : « من أراد أن يكون فيكم عظيما يكون لكم خادما ، ومن أراد أن يصير فيكم أولا يكون للجميع عبدا » (مرقس ١٠/٤٣—٤٤) .

ويحافظ على ما ينبغى أن يكون له من هيبة ، وكان هذا نتيجة اخلاصه وتقديره لعمله ، وهو فى الواقع أضفى على المنصب بهاء ، ومنحه هيبة وجلالا ، ولم تكن أعماله دينية بحتة تقوم على العبادة ورعاية التعاليم اللاهوتية وحسب ، بل كانت له أعمال سياسية واجتماعية وحربية كبيرة .

نظم الدفاع عن أملاك الكنيسة وأملاك الدولة ضد اللومبارديين ، واستطاع أن يعقد مفاوضات معهم باسم الشعب المسيحى ، ثم عقد معهم صلحا أنهى به حربا دامت زمنا طويلا فأراح الناس من أعبائها وخسائرها ، وفى أيامه كانت أملاك الكنيسة قد امتدت واتسعت فى أنحاء ايطاليا كلها وأيضا فى صقلية ، فأحسن ادارتها كلها كما أحسن الافادة منها ، وكل تصرفاته تنبىء عن قوة شخصيته وعمق إيمانه برسالته ، ومن آثار هذه النزعة أنه اعتبر نفسه مسئولا عن جميع الكنائس شرقية وغربية ، هذا مع أنه انتخب رئيسا لكنيسة روما الغربية فقط ، فكان يرسل نصائحه وتوجيهاته إلى الكنائس الشرقية وإلى الملوك ، وعندما وقعت بيزنطة فى مجاعة وأزمة اقتصادية طلب أن ترسل إليها السفن المحملة بالقمح والطعام ، فأرسلت إليها من صقلية ، كما أمد أقباط مصر بالأخشاب من سردينية ، وتناسى نهائيا أن الامبراطور البيزنطى لم يوافق على تعيينه بابا ، ولا هو نفسه قبل القرارات التى صدرت فى المجامع باسم الامبراطور ، وبذلك اعتبر نفسه الأب الروحى للمسيحيين جميعا ، وقد وسع دائرة المسيحية الكاثوليكية إذ نشرها بين القوط الغربيين ، فأدخل أسبانيا فى حظيرته ، وهو الذى أرسل أوجستاين الصغير إلى انجلترا ٥٩٦ م ويعزى اليه أنه عندما رأى العبيد الانجليز يباعون فى السوق قال : أنهم خلقوا ملائكة فدعوهم ليكونوا ملائكة [1] ، وكذلك بعث بمبشريه إلى الفرنجة فى فرنسا .

وهكذا ثبت هذا البابا دعائم المنصب وجعل له منانة فى نفوس الملوك ، بل أنه منذ عهده صار البابا منافسا للامبراطور ، وأصبح الاباطرة يحسبون للبابوات حسابا ، وحدث غير مرة أن تدخل الاباطرة فى الشئون الدينية فعارضهم البابوات .

(١) Niel 70 ويبدو أن العبارة Angel Sunt angle fint اللاتينية تنظر إلى كلمة Angel بمعنى ملاك ، ومنها تسمية انجلترا بمعنى أرض الملائكة . ونسبة هذه العبارة إلى جريجورى تقابل بكثير من الشك ، والظاهر أنها نسبت اليه .

وربما اشتد النزاع واشتط الامبراطور فأمر بسجن البابا لأنه لايملك اقالته ، ولكن فى أغلب المواقف كان الامبراطور يخشاه ويذعن لارادته .

ويحفظ التاريخ للبابا جريجورى وصايا حكيمة أو يعتبرها المسيحيين حكيمة ، فقد أوصى ارساليتة إلى انجلترا بألا تهدم المعابد الوثنية بل تهدم الأصنام التى تكون بها وتحولها إلى كنائس ، وأن يعلم الوثنيون أن يذبحوا ضحاياهم للرب الحقيقى لا للاوثان وهذا — كما نرى — عمل اقتصادى وفر عليهم بناء الكنائس .

والواقع أننا لا نجد حكمة فى تعاليمه إذا قيست بالتعاليم الاسلامية التى أوصى بها — رسول الله ﷺ — وأبو بكر وغيرهما من قادة الاسلام ، وهذا العمل مادى ولا معنوى .

ومهما يكن من أمره فهو من الشخصيات العظيمة البارزة فى العصر الوسيط وتوجيهاته التبشيرية ظلت دستورا من بعده .

وازاء الحديث عنه وما أكسبه الكنيسة من نفوذ نسجل أمرين فى تاريخه :—

أولهما : أن اتساع نفوذ الكنيسة وسمو مكانة البابا كان حائلا دون اتحاد ايطاليا فظلت مقسمة حتى القرن التاسع عشر .

وثانيهما : أن الكنيسة الشرقية رغم كل ما عمل ظلت منفصلة عن روما بسبب النزاع بين المذهبين واختلافهما فى العقيدة ، ولكن الكنيسة الغربية ظلت هى الأقوى والأثرى والأكثر اتباعا . وبتوالى الحكومات المختلفة على البلاد الشرقية من فرس وعرب قل عدد المسيحيين فى الشرق ، ثم كانت الاضطهادات الكاثوليكية العنيفة التى ذكرناها من قبل والتى لم تنقطع الا بسيادة الدين الاسلامى ، عاملا أقوى فى قلة المسيحيين إذ أقبلوا على هذا الدين الجديد وتركوا المسيحية طوعا وبدون أى اكراه[1] .

ما يؤخذ على جريجورى :

مع أن جريجورى كان إداريا حازما موفقا فى إدارته ، وسياسيا قديرا ، كان قليل

(١) راجع الدعوة إلى الاسلام .

الحظ من الثقافة ، فكان يؤمن بالخرافات ، والمعجزات وآثار القديسين الروحية الخارقة كما كان يعادى التعليم . ومع مقدرته السياسية وفرضه نفسه رئيسا على جميع الكنائس لم يستطع أن يوفق بين الكنائس بوجه ما ، بل هو لم يبد أية محاولة لهذا التوفيق ، كما لم يعمل شيئا لتنظيم علاقة البابوات بالملوك ، فبقى كل من البابا والامبراطور يدعى أنه ظل الله على الأرض(١) وكان فى جملته راهبا يلف خياله وتفكيره جو الأديرة العتيقة ، ومع اعجابه بالقديس بندكت لم ينهج منهجه ولم يقتبس منه ، وإلى جهله وقلة ثقافته ترجع كل عيوبه ، فهو لم يحاول استكمال علمه ولم يحاول أن يدرس اللغة اليونانية ، وقد عاش عدة أعوام فى القسطنطينية قاصدا رسوليا (سفيرا للبابا) وكانت الفرصة متاحة له أن يدرس ولم يفعل ، ولقلة تعليمه يعزى تعصبه الذى عاش ومات عليه .

وكان يعاصره شخصية كبيرة هى شخصية كولومبيان الذى كان مبشرا فى بلاد الغال ثم انتقل إلى ايرلاند حيث أسس الأديرة والكنيسة الكلتية ، وكان لرجاله أسلوب يختلف عن نظم الكنيسة اللاتينية لأنه نشأ بعيدا عنها ولم يكن لها أثر فى توجيهه ، ولم يكن كولومبان Colomban يرعى لجريجورى حقا ولا يخاطبه باحترام ، وكانت الكنيسة الكلتية التى أسسها هناك ورهبانها وقسسها على مستوى راق لم يصل إلى مثله أتباع جريجورى ، وكانوا معه فى تفسير المذهب البطرسى وإدارة الشئون الكنسية .

وكانت بعثات كولومبان قد انتشرت فى شمال انجلترا لتحويل الانجليز الوثنيين إلى المسيحية فاحرزت سبقا لم ينله جريجورى، وأثارت فى نفسه مخاوف وقلقا، إذ كان ذلك منشأ انقسام بين الكنيسة اللاتينية والأخرى الكلتية فى الغرب(٢) بجانب انفصال الكنيسة الشرقية ، ومع ذلك لم يعمل شيئا لرأب هذا الصدع سوى ما كان من ارسال بعثات إلى انجلترا .

من هذا نجد أن جريجورى مع نجاحه فى السياسة والادارة . كان ضيق الأفق شديد العناد ، وتدل كتابته على حظ كبير من التفاهة . وتدور كل أعماله على

(١) أنظر كانتور ٣٧٤ — وهو يقول أنه لم يتغلب على أى مشكلة .

(٢) راجع كانتور ٢٧٤ .

محور واحد هو إيمانه واخلاصه للكنيسة ، فهو ـــ وقد جلس على عرش القديس بطرس يرى نفسه مسئولا عن الدعوة وعن كل الكنائس ، لأنه ممثل للمسيح ، وبهذه العقيدة عمل ما عمل ، ولكن بضيق عقليته عجز عن حل المشكلات التى عاصرته ، ويعتبر المسئول الأول عن التدهور والشقاقات التى مزقت ايطاليا خلال القرن السادس ، ولو كان له وهو فى هذه المكانة حظ من الثقافة والذكاء لتغير تاريخ هذا القرن .

ومن مواقفه الشاذة المشينة معارضته أحد الأساقفة فى بلاد الغال فى انشاء مدرسة للفنون الحرة ، وقد عاقبه على ذلك لأنه شغل نفسه عن دراسة الكتاب المقدس ، وهو موقف يدل على الجمود وعدم القابلية للتطور ، وله « كتاب العناية الإلهية » الذى وضح واجب الرعاة الكنسيين نحو اتباعهم ، ومقابلتها بما يتمتعون به من مزايا ، ولكن لايبدو أن رفاقه اقتنعوا بها [1] ـــ وأهم ما استفرغ جهده هو أنه خادم الرب والرعية ، وصارت كلمة « خادم خدام الرب » شعار البابوات بعــــده .

وفى رأينا أنه نال من الثناء أكثر مما أعطى الكنيسة ، ولا يعنى ذلك أنه كان قليل الأثر فى تاريخ الكنيسة ، ولكن آثاره كانت أقل من شهرته .

---

(١) نفسه ٢٧٦ .

الباب الثالث

حركة التبشير فى أوروبا

بسم الله الرحمن الرحيم

« لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم » .

(قرآن كريم)

التبشير فى أوروبا

رأينا من قبل أن الرسول بولس نقل مركز الدعوة المسيحية إلى روما ، وأنه كان يريد أن تمتد جولته إلى أسبانيا التى كانت فى نظر الناس إذ ذاك نهاية العالم ، ولكن قامت فى طريقه وطريق دعوته عقبات عاقت سيره وأودت بحياته ، وانتقلت الدعوة إلى فرنسا وإلى أسبانيا ثم أتاحت لها ظروف مختلفة أن تنتقل تدريجيا إلى الاقاليم الأوروبية الأخرى ، فاستغرقت نحو عشرة قرون وأكثر ، ومع ذلك لم تكن الوثنية قد انقضت نهائيا . ويطول بنا القول إذا تتبعنا سيرها ودعاتها فى كل اقليم ، ولكننا نكتفى بذكر بداياتها فى فرنسا وأسبانيا وانجلترا ، ثم نذكر نهايتها فى الطرف الشمالى الشرقى من القارة .

فى بريطانيـــــا

ظل الانجليز وثنيين حتى نهاية القرن السادس تقريبا ، أو على الأدق حتى سنة ٥٩٦م كما يقرر ذلك — كانتور (١) ، ولكن بصيصا من المسيحية كان قد تسرب اليها أواخر القرن الثالث ، غير أنه ما لبث أن أطفىء أمام الغزو السكسونى والانجليزى ، فسادت الوثنية البلاد ، وانداحت المسيحية الواهنة إلى أطراف ويلز ، ولم تستعد حياتها إلا عندما أرسل جريجورى العظيم أوغسطين على رأس بعثة سنة ٥٩٦ م ، ومن هذا التاريخ يبدأ تاريخ المسيحية فى بريطانيا العظمى ، وكانت أيرلندا المنقطعة عن عالم الشرق والبحر المتوسط نهائيا أسبق إلى اقتباس الحضارة والعمل على نشرها .

ويبرز فى ميدان النشاط التبشير فى هذا الوقت سانت كولومبا (٢)

---

(١) التاريخ الوسيط ٢٨٢ .

(٢) اسمه كولومب ولكى يتميز عن كولومب الملاح كان يسمى كولومبا وكولومبيا ، ويلقب رسول اسكوتلاند ولد حول سنة ٥٢١ من أبوين ايرلانديين ومن أسرة ثرية ، كان تفانيه فى نشر المسيحية ملحوظا جدا ، عبر المضايق من حوله لتأسيس الأديرة فى الجزر ، وفى سنة ٥٦٣ ، أسس دير يونا ، ومات سنة ٥٩٧ ، وأحيطت حياته وموته بالأساطير قيل أن جواده الأبيض أتى اليه قبيل موته فوضع رأسه على صدره وأخذ يبكى — وحاول بعض الناس أبعاده فزجرة كولومبيا حتى فرغ الجواد وانصرف حزينا ناكس الرأس .

وهو آيرلندى ذو حماس فياض للدعوة المسيحية ، دفعه حماسه إلى تاسيس عدد من الأديرة فى المملكة المتحدة ، وأبحر إلى الجزر العديدة حول بريطانيا ليبشر بالانجيل بين الوثنيين ، وأسس فى كل من جزيرتى هاى Hy ويونا Yona ديرا رئيسيا ظل ذا قداسة خاصة لأقدميته ومكانته التاريخية . وفى سنة ٦٣٣ م أو ٦٣٤ وقف ملك نورثامبيا Nathambia موقف قسطنطين ، إذ قرر أن يكون مسيحيا ، وأرسل بطلب معلمين من يونا ، ثم تلاه أخوه أوزوين Orwine فاقتفى أثره فى الجد فى نشر المسيحية فى مملكته ومحاربة الوثنية ومن هنا وخلال القرن السابع أخذت المسيحية تتمشى رويدا رويدا فى أنحاء الجزر البريطانية ولكن حتى نهاية هذا القرن لم يكن السكسونيون قد تركوا وثنيتهم نهائيا . وقام من انجلترا دعاة لنشر المسيحية والتعريف بها فى جوانب القارة الأخرى ، ومن المشهورين الذين قاموا بهذا النشاط البطريق بونيفيس Boniface (٦٨٠ — ٧٥٤) — نصبه جريجورى الثانى تقديرا لنشاطه واخلاصه — بطريركا فى المانيا ، وقام بتأسيس عدد من الكنائس الكبيرة فى دول أوروبا المختلفة ، وإليه ترجع فكرة ومبدأ تأسيس مساكن للنساء فى الأديرة ، فهو الذى أبتدعها وحوكيت من بعده ، وبه أخذت الأديرة تنشأ فى الأماكن النائية التى ليس بها زراعة ، وكان الرهبان — على طريقة بندكت — يقومون بالزراعة ليخرجوا ما يقتاتون به ، وكان هذا مما سهل كثرة الأديرة وانتشارها فى أنحاء القارة الأوروبية .

ويختلف عمل بونيفيس عن عمل « أخت باسيل » التى أنشأت ديرا خاصا بالنساء كما هو واضح .

عصر الظلمـــات

يسمى الأوروبيون هذا العصر حتى فجر النهضة الأوروبية باسم عصر الظلمات وذلك لشيوع الوثنية فيه ، وهو يقابل العصر الجاهلى عند المسلمين ، كلا العصرين شاعت فيه الوثنية وشاع الجهل وانعدمت استنارة العقول ، والموازنة بين العصرين وبين ما حدث هنا وهناك مما ينبغى الا يغيب عن ذاكرة الداعية الاسلامى ، فالاسلام لم يظهر إلا فى القرن السابع المسيحى ، وحتى هذا الوقت وحتى القرن الخامس عشر المسيحى كانت الوثنية باقية فى اقطار أوروبا ولم تستطع المسيحية أن تستأصل جذورها ، بينما استطاع الاسلام فى قرن واحد أن ينتشر فى القارات الثلاث ، وأن يمتد فى حدود تفوق حدود الدولة الرومانية فى أقصى اتساع بلغته ، وكان دخول الاسلام فى كل بلد دخله برا ورحمة ، وكان المسلمون حقا بناة حضارة ومشرق استنارة عقلية ، وكان الفكر الميتافيزيقى الذى قام عليه الاسلام أول العناصر لهذه الاستنارة وكانت المساجد التى يبنيها المسلمون أول ماينزلون كل بلد نورا عقليا وكشفا لظلمات الجهالة ، والموازنة أيضا بين آثار المساجد وآثار الأديرة مما يعنى الداعية الاسلامى ، فقد كان أثر الأديرة ضئيلا محصورا بين رهبانه ، بينما كانت المساجد جامعات ومدارس يأوى اليها كل طالب علم حتى من غير المسلمين .

ويبرز فى كلا الحقلين رجال من الدعاة المتفقهين ، ومن الحكام والمحاربين ، وقد غمر الاسلام اقطار الشرق والغرب جميعا بأضواء العلم ، وبذر فيها بذور الفكر الناضج والحكمة العميقة ، فكان حقا نورا أخرج الناس من ظلمات الجهل والضلال ، أما المسيحية فقد انفقت الجهد والمال لاقناع الناس أن الالهة الثلاثة إله واحد ، ولاقناعهم ــ كما يقول آرنولد ــ بتمجيد البكورة والعزوبة ، ولم تستطع أن تقدم للناس فكرة ولا هداية ولا يقظة عقلية حتى كان مسلمو أسبانيا هم الذين علموا الأوروبيين وقدموا لهم عناصر نهضتهم .

وموازنة أخرى أكثر أهمية وهى الطريقة التى انتشرت بها كلتا الديانتين ، فالاسلام بعد قضائه على الوثنية فى جزيرة العرب لم يواجه وثنية إلا التى كانت فى شمال أفريقية ، أما فى الشام ومصر وأسبانيا وجزر البحر المتوسط ، فلم يكن ثمة وثنية إلا فى حيز ضئيل لايستحق أن يذكر ، هذا عدا ما كان فى الجانب الشرقى من بلاد الفرس وما وراءها، وازاء هذا الوضع لم يكن الاسلام بحاجة إلى استعمال العنف واكراه الناس على قبوله ، لأنه كان يواجه كتابيين من اليهود والنصارى وهو يدع لهم عقائدهم ، حتى الصابئة وبعض المنحرفين فى الشرق اعتبرهم مسيحيين بحسب الأصل الذى كانوا عليه (١) وقد رأينا قبل أن الكنيسة النسطورية ظلت فى حالة ركود حتى أظل الحكم الاسلامى البلاد الشرقية فانتعشت ودبت فيها الحياة ، أما الكنيسة فى أوروبا فانها لم تستطع أن تتخذ مكانا الا بالحرب والقتل والتعذيب، وكان الناس يدخلون المسيحية ظاهرا وهم على وثنيتهم باطنا ، وأخيرا قتل الاورويون المسلمين وأحرقوا مكتباتهم العديدة . ومع هذا كله يتهم الأوروبيون الاسلام بأنه قام على الجبروت واكراه الناس على قبوله . وإذا وازنا بين سير الديانتين وأعمال دعاتهما نجد أن الاسلام كانت ناره بردا وسلاما على الناس وأن سيوف المسلمين كانت بلسما وشفاء ، وأن المسيحية الرحيمة كانت نارا محرقة وتعذيبا وامتهانا لانسانية الناس . ونكتفى بذكر داعية مخلص وهو بونيفيس وامبراطور شهير وهو شارلمان .

---

(١) أنظر الخراج لأبى يوسف فى شأن الصابئة

بونيفيس Poniface

من الشخصيات البارزة جدا خلال هذا العصر لما كان له من نشاط مرموق وجهاد فى نشر المسيحية فى أوروبا .

كان راهبا فى أحد الأديرة القريبة من ونشستر فى انجلترا ، ولكنه لم يستقر فى دير واحد بل كان يتنقل بين دير وآخر فى هذه البقعة ، وكان مشغولا جدا بتعليم الوثنيين المسيحية وادخالهم فيها ، وكانوا يسمون المتبربرة لأنهم لم يثقفوا بالثقافة الرومانية أو لم يعرفوا المسيحية ، ولم يكن بونيفيس هو الوحيد الذى يشغل باله التفكير فى هذا الأمر بل كان كثير من الرهبان الآخرين يبحثون أيضا عن الخطة التى ينبغى أن تتبع والتى تكون أكثر نجاحا لجذب هؤلاء المتبربرين إلى المسيحية ، ويبدو أنهم كانوا على نفور شديد منها لجهلهم بها ، كما كان وثنيو العرب يحاربون الاسلام لأسباب كثيرة أيضا ولكن كان أهمها خوف القرشيين على سلطانهم ، وكانوا لهذا يصدون الآخرين من الدخول فى الاسلام ويعذبون من يقبله دينا ، ومواقفهم مع الاعشى الشاعر والطفيل الدوسى وأبى ذر الغفارى وغيرهم معروفة فى تاريخ الدعوة الاسلامية ، ولما فتح المسلمون مكة هذا الفتح العجيب فى التاريخ الذى حرص نبى الاسلام فيه على حقن الدماء وأظهر من التسامح والعفو ما لم يتوقعه أحد ، أسرع الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ؛ حتى كان العام التاسع من الهجرة هو عام الوفود ، إذ كانت وفود القبائل تتوافد من كل جوانب الجزيرة على المدينة تعلن اسلامها وتطلب من يعلمها .

أما دعاة المسيحية فى أوروبا فقد بذلوا كل جهدهم ولكن لم تنجح دعوتهم إلا بالقتال وإذا اتخذنا بونيفيس مثالا للداعية المسيحى المخلص المثالى فى عصره فأننا نورد أعماله التى لخصها نيل فى خمس مراحل :

١ ــ عمله فى فريزيا Frizia وهى فترة عاشها هناك داعية ولكن عمله كان ضئيلا .

٢ ــ وتبدأ المرحلة الثانية بدعوته إلى روما أواخر سنة ٧٢٢ ، حيث اختاره

البابا جريجورى الثانى ليكون بطريركا على حدود ألمانيا من غير أن يحدد مكانا لاقامته .

ومن هنا سمى رسول الجرمان ، أى الرسول الذى نقل المسيحية إليهم ، وقد أقسم أمام البابا يمين الطاعة والولاء ، وانصرف لعمله فرأى أن الكنائس المستخدمة والارسالات لايمكن أن تكتسب ثباتا ودواما إلا إذا وضع لها نظام ثابت محكم ، وكان لها مدد مستمر من الكنيسة الأم فى روما ونجح فى مهمته ، وكان هذا من أعظم آثاره التى اتبعت من بعده ونال بها شهرته . وعاد من روما سنة ٧٢٤ م يتوج اسمه هالة من الشهرة والمجد ، وأعظم عمل له فى هذه المرحلة أنه حطم معبدا للاله ثور Thor فى مقاطعة هس Huss ، وقد كان الوثنيون وبعض المسيحيين يؤمنون بقداسته ويعتقدون أن اللعنة لابد أن تنزل على من يقطع قطعة واحدة من أخشابه ، ولكنه أقدم على هذا العمل غير هياب ، فزعزع مكانة هذا الاله فى نفوس أتباعه وقربهم إلى المسيحية ثم بنى من انقاضه كنيسة باسم القديس بطرس .

ترى كيف أذعن القوم لهذا العمل وكيف صبروا أنفسهم على رؤية معبدهم يحطم وإلههم يهان . فى الواقع لم يذعنوا ولكنهم قهروا .

ويعتذر نيل عن هذا بأن القديس جول Goll[1] فعل أيضا مثل هذا عندما وصل إلى الشمال الشرقى من سويسرا حيث دمر معبدا للوثنيين. ثم يقول أنه لاينبغى أن نعتبر هذا العمل مظهرا من مظاهر القسوة والعنف ، والازدراء وعدم المبالاة بشعور الآخرين ولكنه نوع من المحاكاة لما كان شائعا فى هذا الوقت من الحكم على المتهمين بدون شهود أو استجواب ، ومن تعذيب المتهمين الذى كان مألوفا ، وهو فى حقيقته ليس حربا بين الاشخاص ولكنه حرب بين الالهة ، واتخذ من هذا دليلا على أن الاله الذى يعبده أقوى من آلهتهم .

وهذا اعتذار عجيب جدا ، وكان أولى أن يقول أن الوثنية وعبادة المخلوقات مما

(١) أحد رفقاء كولومبيا من أيرلاند ، وأرسل إلى سويسرا ، ومن الخرافات التى نسجت حوله أن دبا خرج من الغابة فساعده على بناء ديره ، وسميت باسمه مدينة « جالين » وفى كاتدرائية هذه المدينة توجد مجموعة من أوائل وأجمل الكتابات الايرلاندية .

يجب أن تطهر منه عقلية الانسان ، ومن كان ثور هذا ؟ أنه إله من الالهة القديمة خلعت عليه صفات البشر ونسبت اليه أعمال كأعمالهم وخوارق فوق طاقاتهم . وكان ينبغى أن يطالبوا أولا باقامة الأدلة على حقيقة هذا الإله ووجوده، وأن تقدم له الأدلة على بطلان عبادته ، وعلى صحة الدين الذى يدعون إلى اتباعه ، فاذا حطم معبدهم بعد هذا حطم عن بينة ، وإذا أقبلوا على المسيحية اقبلوا عن اقتناع[1] . ولكن نيل ورفاقه من مؤرخى التبشير المسيحى — يتحاشون هذا لأن المسيح حتى عند عُبّادِه لم تفارقه صفة الانسانية ، ولا كونه مخلوقا من أم بشرية.

وتوجد فى الاسلام مواقف كثيرة من تحطيم الاصنام ، ولكن القرآن الكريم سبق فحاج الوثنيين بأن آلهتهم لا يخلقون شيئا ولا يدفعون عن أنفسهم ذبابة وليسوا ذوى أرجل يمشون بها ولا أيد يبطشون بها ولا أعين يبصرون بها إلى حججاجات طويلة تفصيلية تعتمد على المنطق ، والمسلمون لم يقتلوا الوثنيين الا فى حروب كانت سجالا بينهم وبين أعدائهم وقد أرسل رسول الله ﷺ إلى هدم اللات إلهة ثقيف وإلى هدم العزى وأصنام أخرى ، ولم يقتل أحدا من عبادها ، وقد فاءوا إلى الاسلام عن اقتناع وإيمان بصحته .

ولم يكن جول ولا كولومبا ولا غيرهما يفعلون ما فعلوا إلا فى ظل قهر حكومى وتحت سيطرة جيش مسلح أو حاكم مسلط . فأى الدينين انتشر بحد السيف ؟ .

ويمثل المرحلة الثالثة من أعمال بونيفيس زيارته الثانية لروما فى عام (٧٣٧—٨) فقد خوله البابا فيها سلطة تنظيم الكنيسة وترتيب كل أعمالها فى بافاريا وما وراءها فرتب أبروشية لأربع مقاطعات ثم ضمت اليها جهات أخرى ، وفى سنة ٧٤٤ أسس ديرا كبيرا فى وسط ألمانيا ظل له أثر ملحوظ فى نشر الكاثوليكية هناك وبقائها رغم سيادة المذهب البروتستانتى .

وفى سنة ٧٤١ دعى ليقوم بتنفيذ مشروع كبير يختص بكنيسة فرنسا ، وكان النبلاء والعمد الذين مارسوا الحكم أيام « المورفنجيين Morovingians » قد اختصوا أنفسهم بشئون الكنيسة فأهملوها من كل نواحيها ، حتى ضعفت الناحية

---

(١) فعل هذا على سبيل المثال — عمرو بن العاص حين هدم تمثال سواع الذى كانت تعبده هوازن ، وفعله محمد بن القاسم حين هدم تمثالا ضخما لبوذا فى البنجاب .

الروحية كليا ، وحتى كتب بونيفيس إلى البابا بعد أن شاهد حالها ، أن الدين يوطأ بالاقدام ، وأنه يعيش مع قوم من أبناء الشوارع لا علم لهم ولا أخلاق ، وصفاتهم الغالبة هي الشراهة وحب المال .

ولم يكن من السهل أن يقوم بشيء من الاصلاح الذى أراده ، وظل طوال خمسة أعوام حتى سنة ٧٤٧ يعقد اجتماعات ويضع قوانين لانتقال الكنيسة حتى تولى أحد النبلاء أو عمد القصر المُلْكَ ، ودعى بونيفيس لاجراء مراسم تتويجه ليكون ذلك ايذانا بأن البابا وافق على انتقال الملك من بيت لآخر ، فكان فى هذا الموقف ما شجعه على عمل أكثر ، ولكن هكذا كتب على الكنيسة فى فرنسا أن تظل متخلفة منحرفة حتى جاء عهد الثورة .

وفى سنة ٧٥٣ بدا الدور الأخير من أعماله ، وكانت السن قد تقدمت به ، وبدأ ينسحب من ميدان الدعاية شيئا فشيئا ، ولكن الروح التى نشأ عليها دفعته إلى التبشير بالدعوة فى الشمال ، وبين الفريزيانيين Frizians حيث كانوا حتى هذا الوقت وما بعده وثنيين لم يسمعوا باسم المسيح ، واصطحب معه ارسالية مكونة من خمسين قسيسا ، ونزلوا هناك ، فانضم اليهم بادىء الأمر بعض الناس ولكن عمله أثار طائفة من ذوى التعصب غضبوا لتنصر زملائهم وصمموا على الانتقام وبينما كان هو ورفاقه يترقبون جماعة تنصروا ويريدون تثبيت نصرانيتهم على أيديهم ، هجم عليهم أولئك المعارضون وأخذوا يقتلونهم ، وحاول المسكين أن يتقى ضرباتهم بكتاب أو أوراق مسيحية كانت معه ، ولكن ذلك كله كان على غير جدوى . فقتل وكل الخمسين الذين كانوا معه .

ودور بونيفيس وكولومبيان وأمثالهما على ما رأينا فيه من قسوة يمثل الجانب الرقيق الرحيم فى الدعوة إلى المسيحية ، رغم ما فيه من عنف وقسوة بالغة فى بعض المواقف وسيأتى عمل كولمبيان .

شـــــارلمان

لابد لنا من كلمة موجزة عن أعمال الامبراطور شارلمان التبشيرية ، ومؤرخو التبشير المسيحى يعنون بالحديث عنه وعن أعماله لأن المسيحية نالت على يديه انتشارا لم تنله على يد مبشر ولا امبراطور آخر ، وإذا كان أمثال كولمبيان ويونيفيس قد قاما بدعوة سلمية أو قريبة من السلم فقد قام شارلمان بالجانب العنيف ، وأسرف ، كل الاسراف فى اراقة الدماء واكراه الناس على الدخول فى المسيحية ، ولهذا يوصف فى كتب التبشير بأنه أعظم شخص فى تاريخ الكنائس وتاريخ العالم ، ويوصف أيضا بالحكمة والعلم ، وهو فى الواقع أكبر ناشر للمسيحية فى أوروبا وأقوى وأعنف من فرضها على الناس .

لمحة من تاريخه :

كان أبوه أول امبراطور من أسرة الكارولنج ومات سنة ٧٦٨ تاركا ولديه شارلمان وكارلمان ، فما لبث هذا الأخير أن مات واستولى شارلمان على الدولة كلها مما أغضب زوجة أخيه ، فلجأت إلى ملك اللومبارد ، عدو شارلمان ، فلم يسعه إلا أن يطلب من البابا تتويج ولدى كارلمان على ميراث أبيهما ، ولم يستجب البابا لهذا الطلب فهجم الملك على الممتلكات البابوية ، فلم يجد البابا بدا من الاستنجاد بشارل ، ونتج عن ذلك نشوب حروب طويلة بين شارل وملك اللومبارد ، ولكن شارل انتصر أخيرا وضم شمال ايطاليا كله تقريبا إلى مملكة الفرنجة .

ثم شن حربا أخرى ضد السكسون بلغت ثمانى عشرة حملة لاخضاعهم إلى المسيحية بالقوة ، وكان موقف السكسونيين عجيبا : لما أبدوه من اصرار على رفض المسيحية ، وفى هذه الحملات المتكررة كان يأخذ منهم رهائن وأسرى كثيرين ويلزمهم بغرامات مالية ثقيلة فيعلنون إيمانهم بالمسيحية ، ثم لايلبثون أن يخلعوها عنهم ليعودوا إلى وثنيتهم ، وفى سنة ٧٨٢ م أعدم منهم (٤٥٠٠) أربعة آلاف وخمسمائة شخص جملة فى يوم واحد وعرفت هذه المذبحة باسم مذبحة فردن

ولم تنته ثوراتهم إلا بعد أن خرجت بلادهم وضاعت أموالهم ، وفقدوا Verden الآلاف من أبنائهم ، فاستسلموا خاضعين ، وكان آخر ثوراتهم سنة ٨٠٤م واستطاع شارل أن يؤسس فى سكسونيا ثمانى أسقفيات ومراكز للارساليات التبشيرية، ولا نظن بعد هذا أنهم قبلوا المسيحية عن ايمان ، ولكن الجيل الثانى لم ير غيرها فاتبعها ، وكان من أعماله التبشيرية الناجحة أن أعد قساوسة منهم[1].

تتويج شـــارلمان :

إزاء ما قدمه هذا الامبراطور العظيم للبابوية من حماية ورعاية ، وازاء ما قام به من حروب طويلة وعديدة لفرض المسيحية على الوثنيين ، كان لابد أن يتلقى من البابوية جزاء على هذه الأعمال وقد جلس على كرسى البابوية خلال هذه المدة القصيرة عدد من البابوات ، وفى سنة ٧٩٩ كان البابا ليو الثالث هو الذى يتبوأ عرش البابوية ، وكان له خصوم تآمروا عليه لا ليبعدوه عن كرسيه وحسب ، بل دبروا أن يسملوا عينيه ويقطعوا لسانه وأحس البابا بما يدبر له فهرب ، ولكن شارل استدعاه وأعلن حمايته ، ثم عقد مجمع فى روما حضراه معا ، وفيه برىء البابا من كل ما نسب اليه ، فأعيد إلى منصبه وعوقب خصومه .

رأى البابا ليو الثالث أن تكون مكافأة شارل على ذلك كله أن تمنحه الكنيسة لقب امبراطور ، فلما اقامت كنيسة القديس بطرس حفلها السنوى فى رأس السنة سنة ٨٠٠م تقدم البابا عقب انتهاء الصلاة، وكان شارل لايزال راكعا أمام المذبح ، فوضع على رأسه تاجا ذهبيا ودعا قائلا : « اللهم أمنح الحياة والنصر لشارل العظيم الذى توج بفضل الله امبراطورا عظيما على روما » [2] فعلا صياح الحاضرين حتى أبناء ايطاليا وأخذوا يحيون الامبراطور الذى نال هذه القداسة .

وقد كان شارل يتوقع ويأمل أن تكافئه الكنيسة ، ولكن لم يكن يتوقعها فى هذا اليوم ولا أن تكون بهذه الطريقة .

---

(١) راجع الفصل الضافى عن شارلمان فى « أصول التاريخ الأوروبى » و « أوروبا العصور الوسطى » للدكتور/ سعيد عاشور ، وقارن Niel 78 - 80 111 ومن المعروف أن شارل كان قد تزوج من ابنة دسدريوس ملك اللومبارد ، ثم طلقها عقب الزواج بسرعة مما أرث عداوة بينهما .

(٢) رأينا قبل تتويج بونيفيس أحد الملوك ، وأنظر عن شارلمان ، أوروبا العصور الوسطى حـ ١٩٥/١ ، وتاريخ العرب المطول ٦٥٩ .

أثر هذا الحادث :

كان لهذا التتويج آثار عميقة منوعة ، منها أنه أعطى الكنيسة حق تتويج الأباطرة وجعلها ذات مكانة فى عالم السياسة ، وقد صار هذا التتويج مرعيا بعد ذلك ولم يكن من قبل ، ثم أنه رفع الكنيسة الغربية على كنيسة بيزنطة ، وقد كانت هذه تمتاز بوجودها فى العاصمة وبوجود القيصر بجانبها ، فأصبح الآن لروما امبراطور أكبر ودولته أوسع رقعة ، واذن فقد استردت كنيسة روما مكانتها ، وأى مكانة أكبر من أن تمنح الأباطرة تاجهم ، وساءت العلاقة بين بيزنطة وروما ، وامتازت الامبراطورية الرومانية بعظمتها واصالتها ولكن بيزنطة رفضت الاعتراف بشارلمان حتى سنة ٨١٢ م .

شارلمان والمسلمون :

لم يكن كافيا لدى هذا الامبراطور الشديد التعصب أن ينشر المسيحية بين الوثنيين بل كان من همه أن يحول المسلمين اليها أو يزيحهم نهائيا من أوروبا ، وفى سنة ٧٧٨ م أعد حملة لضرب المسلمين فى أسبانيا فأعترف له بعض أقاليمها بالولاء ولكنه كان يريد فتح سرقسطه فلم يستطع ورجع مكتفيا بما نال ، وأثناء عودته هجمت على جيشه جماعة من الباسك « الباشكينس » Basques المقيمين فى الجبال شمال أسبانيا ، فأبادوا مؤخرة جيشه وقتلوا قائده « رولان » واعتبر هذا الحادث من حوادث الجهاد ، واعتبر شارلمان أول محارب صليبى ، وظل الناس يتحدثون عنه بشيء من التمجيد والقداسة ، ونظمت فيه بعد أكثر من قرنين قصيدة مشهورة تعتبر من أروع الشعر الذى أخرجه العصر الوسيط ، وتعرف باسم « أنشودة رولان » (١) .

وكان بينه وبين مسلمى أسبانيا حروب أخرى على الشواطىء الجنوبية ، وانكى ما نالهم به من كيد هو استيلاؤه على برشلونه سنة ٧٩٧ م وكان ذلك بخيانة من حاكمها الذى أراد أن ينتقم من الخليفة فى قرطبة ، وحروبه معهم طويلة وقد ربح منهم كثيرا واقتص اطرافا من أراضيهم .

---

(١) Shanson de Roland ولم يكن رولاند هو القائد الوحيد أو العام ، ولكنه كان زعيما معروفا ببطولته وتفوقه الحربى .

وفى الجانب الشرقى كان لشارلمان اتصال بالعباسيين ، وكانت صلة ودية اقتضتها الظروف السياسية ، وقد حاول المؤرخون الأوربيون أن يضفوا على هذه الصلة شيئا من البهاء ، وربما ليرفعوا مكانة شارلمان أمام الخلفاء العباسيين العظام.

وقد عاصر كلا من الخلفاء المهدى والهادى والرشيد والأمين والمأمون وعاصر المعتصم لمدة عام واحد تقريبا [1] ، ولكن العلاقات السياسية كانت مع الرشيد أبرز ما كانت ، إذ كان بينهما نوع من الصداقة والمصالح السياسية المتبادلة ، فهرون كان كثير الاشتباك مع البيزنطيين أعداء شارلمان ، وكان يرى فى شارلمان شخصية مشاغبة لاعدائه الأمويين فى الأندلس وكانت حضارة المسلمين سواء فى بغداد أو فى قرطبة أرق وأسمى بكثير مما عليه شارلمان ، وكانت بيئة هرون الثقافية مما لاتقاس بها أى بيئة ثقافية غربية فى هذا الوقت ، وشارلمان الذى صوره كتاب الغرب أعظم شخصية فى تاريخ المسيحية وتاريخ العالم يبدو بلا ريب قميئا أمام هرون ، وقد تبادلا السفارات والهدايا ، فكان فى هدايا هرون ساعة مائية دقاقة دهش لها قوم شارلمان واعتبروها شيئا سحريا ، أو أن بها جنيا يحدث هذا الصوت ، وذهب كتاب الغرب يذكرون هدايا أخرى متبادلة لم ترد فى كتب المؤرخين العرب ، ثم أثبت البحث عدم صحتها .

من ذلك ما قالوا أن شارلمان أهدى هرون آلة موسيقية هى قصبة الأرغن ، وثبت فساد هذه الرواية إذ كان لدى هرون من المغنين وآلات الغناء ما ليس لدى شارلمان .

ومن ذلك ما قالوا أن هرون أرسل اليه بمفاتيح بيت المقدس ، فقد ثبت أنه لا صحة لذلك أصلا ، والرواية — فيما يبدو — تقريب للغزو الصليبى وادعاء أن المسلمين يعترفون بحق المسيحيين فى أمتلاك المدينة[2] .

ولكن شارلمان كان عظيما حقا بين ملوك عصره ، وأكبر ميزاته أن بلاطه كان يحوى عددا من العلماء وأنه كان يميل إلى درس الدين والعلوم الأخرى ، ومع هذا كان قاسيا عنيفا مسرفا فى اراقة الدماء ، وكانت له مواقع عديدة مع

(١) مات شارلمان سنة ٨١٤ ، ومات المأمون ٨١٣ .

(٢) راجع الفصل الذى جاء فى « أصول التاريخ الأوروبى » .

السكسونيين ، وقد أمتدت اشتباكاتهم نحو ستة أعوام كانت مليئة بالدسائس وتدبير المكايد والحملات الحربية ، إذ أصر هذا الامبراطور على أرغامهم على المسيحية ، وأحتال لذلك أن يحاربهم بخليط من القوى المسلحة ورجال الدين ، وكان دخولهم المسيحية مما زادها عددا ولكنه كان اكراها لامنطق وراءه .

ولقد غزا مرة قبيلة جرمانية فهزمها شر هزيمة ، وكان من شروط الصلح أن تدخل كلها فى المسيحية إلى شروط أخرى مذلة ، أو تقتل كلها .

كما أصدر قانونا بقتل من يسيء إلى رجال الدين ، وهو قانون ذو مواد طويلة مفصلة ، تعكس كلها مدى ما كان فى نفوس الناس من مشاعر الكراهية والعداء لرجال الدين المسيحى ، ومدى خوف الامبراطور عليهم وتوقعه اصابتهم بالسوء ، ويحاول نيل الاعتذار عن هذه القسوة بأنها لم تنفذ تماما أو أنها كانت تهديدا أكثر منها عملا ، ولكنه يذكر أن عديدا من رجال الدين على مختلف رتبهم سقطوا شهداء ، ويبرر كل هذا بأن حملات العداء للانجيل هدأت تدريجيا .

والواقع أنها هدأت بعامل الكبت والارهاب .

واقترب شارلمان بغزوه السكسون من الاسكندنافيين ، وكانت لهم ثقافتهم ودياناتهم الخاصة ، فعمل النرويجيون والهولانديون .. على تحصين أراضيهم وصيانتها من هذا الغزو ولم تستطع المسيحية اقتحامها ، وبهذا تأخر دخولها هذه البلاد .

هذه المواقف كلها واضحة كل الوضوح فى أن المسيحية فرضت فرضا على الأوروبيين وظلت حتى القرن التاسع لا تستطيع أن تستقر الا بقوة السلاح .

ان الاسلام فى أقل من قرن واحد تمشى فى ربوع قارات ثلاث ، وأقبل الناس عليه أفواجا ، وكان معتقدوه بالأمس يعملون على نشره اليوم بحمية وعقيدة ، هذا لأنه لم يفرض عليهم بحد السيف ولكن أخذ طريقه إلى القلوب بالحجة والدليل .

وبعد هذا يتهم بأنه فرض بحد السيف وأن المسيحية كانت بلسم الشفاء .

بين المسيحية والاسلام :

ولا يعنينا أن نتتبع خطوات المسيحية وانتشارها فى كل أجزاء القارة ، إذ كان

الغرض من هذا العرض هو اعطاء صورة عن الطريقة التى كانت تمتد بها وتأخذ مكانا فى الاقاليم الأوروبية وواضح من هذا العرض أن المسيحية حتى ظهور الاسلام كانت محدودة الأمكنة ، وكانت تحاط بالوثنية ، وأنها لم تستطع تحت حكم الدولة الرومانية العظمى أن تأخذ مكانها فى أوروبا ، وأن أصحاب المذاهب المسيحية كانوا مشتتين فى الشرق والغرب بعض فى الحبشة وبعض فى اليمن وبعض فى العراق ، هذا بينما كانت أوروبا كلها تعيش فى وثنيات متعددة ، وكانت القبائل البدوية التى سموها متبربرة تنساب عليها من أواسط آسيا فتبث وثنيات جديدة ، ثم أخيرا كانت القوى الحربية هى التي فرضت المسيحية .

وواضح أيضا أن المسيحية والاسلام كانا يمشيان فى وقت واحد ــ تحاول المسيحية فرض نفسها فى الغرب بينما يقتطع الاسلام ممتلكاتها فى الشرق ، ففى سنة ٦٣٨ م ، استولى المسلمون على بيت المقدس ، وفى سنة ٦٤٠ سقطت قيصرية فى أيديهم ، وسنة ٦٤٢ فتح عمرو الاسكندرية وسنة ٦٩٧ فتحوا قرطاجة ، هذا بينما كان القوط الوثنيون قد استولوا على روما سنة ٤١٠م بل أنه من منتصف القرن الثالث ظلت الدولة الرومانية تعانى غزوات البربر وكانت مهددة بغزوهم سنة ٨٤٦ أى بعد البطل المغوار شارلمان بأكثر من ثلاثين عاما .

وتوقف المد الاسلامى بعد موقعة شارل مارتل فى تور سنة ٧٣٢ م ، فتحول نشاط المسلمين إلى أعمال ثقافية كانت ذات الأثر الأكبر أو الأوحد فى نهضة أوروبا ، أما المسيحية فانها خلال هذا العهد كله لم تستطع أن تنشر شيئا من الثقافة ، وكانت فلسفتها كلها تدور حول ناسوت المسيح ولاهوته ، واعتمدت فى كل أفكارها على الفلسفات القديمة ولم تزد عليها شيئا .

وإذ ذكرنا طرفا من بداية المسيحية فى أوروبا نذكر طرفا أيضا عن آخر خطواتها بها لنرى مدى تشابه بدايتها بنهايتها .

آخر خطوات التنصير فى أوروبا

كان الحديث التفصيلى عن تاريخ التبشير يقتضى أن نتابع سيره فى الاقطار الأوروبية واحدا بعد الآخر ، ولكنا اكتفينا بمثل منه فى أشهر الاقطار ، ونبين هنا آخر خطواته ونكتفى بهذا القدر إذ ليس من همنا أن نعرض هذه الجوانب التفصيلية ، وآخر خطواته كانت فى فنلندا ولتوانيا ولكل منهما حديث خاص .

ففنلندا ظلت متباعدة عن المسيحية نافرة منها تناضل ضدها أكثر من قرنين حتى اخضعتها الهزائم العسكرية لقبولها ، ففى بداية النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، وفى سنة ١١٥٥ م قاد الملك السويدى اريك التاسع Eric IX حملة صليبية ذات قوة كبيرة وعدد ضخم ضد فنلندا ، وكان يصطحب معه بطريقا انجليزيا ، وقرر اقامة قاعدة عسكرية لارغام الفنلنديين على التعميد ، وقد استطاع فعلا أن يستولى على جزء كبير من أراضيها . ولكن هؤلاء الأهلين مع اصطباغهم جميعا بصبغة تركية ، كانوا أجناسا مختلفة ولغاتهم مختلفة ، وكان من الصعب جمعهم تحت وحدة دينية وكانوا مجتمعين على رفض المسيحية وبعد تأسيس الكنيسة التى أرادها اريك ، عاد إلى بلده وبقى البطريق — هنرى الإبسالى — فاغتاله الفنلنديون وبقى السويديون المحتلون يزاولون فى ظل استعمارهم البلاد نشر المسيحية ولم يجدوا اقبالا ، وفى نهاية القرن الثالث عشر . أى بعد قرن ونصف القرن استطاعت أن تتخذ لها مكانا ، ولكن ظلت الوثنية بارزة واضحة .

والواقع أن جنوب وشرق بحر البلطيق كان كله على هذا الاصرار لرفض المسيحية وكان أغلب سكان هذه الجهات من الاسكندنافيين والسلافيين والبروسيين اللتوانيين . مع خليط آخر من أجناس متعددة ، وكانت المسيحية تهجم من ألمانيا التى كانت تميل فى اتجاهها إلى الشرق من حدودها ومن الدانمارك التى استطاعت أن تتخذ لها مقرا جنوب البلطيق ، بينما كانت بولاندا تعمل جاهدة على اتخاذ مكان لها بين السلافيين وقد نجحت فيما تهدف اليه فى وقت متأخر بينما كانت روسيا أشد من الجميع رغبة فى تثبيت نفسها بين هذا الجنس

السلاف . وظلت هذه القوى الأربع تلح على هذه البقاع لفرض المسيحية فلم تنل إلا قليلا من النجاح .

أخيرا لجأت هذه كلها إلى اكراه غاشم ، إذ سلطت عليهم فرسان التيوتون ، لتجريدهم من أملاكهم واسترقاقهم وفرض المسيحية عليهم فرضا .

والفرسان التيوتون كانت فى بادىء الأمر جماعة تكونت بواسطة التجار فى نهاية القرن الثانى عشر ــ أثناء الحروب الصليبية ــ (١١٩٨ ــ ٩) لخدمة الجرحى والمرضى فى بيت المقدس وسموا فرسان مستشفى القديسة مريم Sant Mary ثم تحولوا إلى بروسيا لخدمة الكنيسة ولم تكن مجرد خدمة دينية لأنهم فى الواقع لايعرفون كثيرا من تعاليم الانجيل . فكانت خدمتهم مادية تقوم على توسعة أملاك الكنيسة ، ولهذا كانت لهم قوى عسكرية كبيرة ، وكانوا مخولين أن يضموا إلى أملاك الكنيسة كل ما يستطيعون ، وصدرت لهم تعاليم الكنيسة أن يستولوا على أملاك الوثنيين ويقتطعوها ، واعتبرت تعليمهم المسيحية عوضا لهم عن هذه الأراضى ، وأغرى هؤلاء الفرسان بأخذها لأنفسهم أول الأمر ، ولكن عندما قامت هناك أبروشية أصدر البابا أمرا باعطائها ثلث هذه الأملاك وابقاء الثلثين للمحاربين .

ثم دعيت جماعة الدومينكان التى كانت حديثة النشأة موفورة الحماس لتشارك فى نشر الدعوة وتعليم الانجيل ، فهذه الناحية الثقافية كانت مفقودة عند فرسان التيوتون .

ثم انضمت للجميع أيضا قوى رسمية أخرى من جهات مختلفة ، واستمر النضال بين الطرفين نحو خمسين عاما أخرى ، والوثنيون رغم كل ذلك نافرون من المسيحية ، وأثناء هذه الحقبة نشأ جيل جديد ، وضعف المقاومون أمام القوى الكثيرة خصوصا بعد أن انضمت اليها بروسيا فاضطروا إلى الاستسلام ، وعقدت معاهدة مهينة قاسية كان من موادها أن يفصل بين هؤلاء الذين استسلموا وبين المسيحيين الأصليين ، فهو أما لمجرد الاهانة أو للخوف من تأثيرهم على من يخالطونهم ، واذن فالمسيحية لم تكن قد تمكنت من نفوسهم لدرجة يؤمن لها ، ونصت المعاهدة على أن من يرتد عن المسيحية يكون رقيقا إلى الأبد وأن

الذين لم يسبق لهم تعميد يعمدون فى خلال شهر واحد ، كما فرض قانون وحدة الزوجة وأن تبنى بينهم كنائس ويجبرون على حضور الأحد بها ، وأن يجددوا اعترافهم بالمسيحية أمام قسيس مرة واحدة على الأقل كل سنة ... هذا إلى شروط أخرى ... وتدل كلها على عدم ثقة القوم بثبات المسيحية فى نفوس هؤلاء الذين أكرهوا عليها .

وازاء هذا الموقف يبدو التساؤل عن مدى تحقيق الحرية والاكراه فى قبول المسيحية وإذا وازنا بين هذا الموقف وموقف البربر الذين غزاهم المسلمون فى غرب أفريقية نجد البون بعيدا جدًا[1] . فالبربر بعد أربعة أعوام أو نحوها كانوا جنودا اسلاميين مخلصين للاسلام وهم الذين فتحوا الاندلس ، ولم يكن ثم عليهم رقيب ولاأخذت عليهم شروط . ولكن المبشرين يغضون عن كل ذلك .

وقصة التنصير فى ليتوانيا Lituania قريبة الشبه بأختها فى فنلندا ، كلا الاقليمين محارب ، شعبه متعدد الجنسيات ، وحكامه يميلون للمعارك ، وكانت حدود لتوانيا غير مستقرة لكثرة ما يضم اليها من أرض جيرانها ، وابتلعت فى تاريخها غير القصير عددا من الدويلات حتى بلغت حدودها البحر الأسود ، ولكن هذه الدول نالت استقلالا بعد الحرب العالمية الأولى .

أبت هذه الدولة العنيفة بدورها أن تقبل المسيحية دينا ، وأصرت على وثنيتها وظلت وثنية حتى منتصف القرن الثالث عشر ، وفى سنة ١٢٥١ م عمد ملكها منداو Mendawe ولكن يبدو أنها كانت نزعة خاصة به ولم يتقبلها شعبه ، واتخذت اجراءات لتأسيس كنيسة واقامة بطريركية فى لتوانيا ولكن الملك اغتيل فى سنة ١٢٦٨ ، أى بعد سبعة عشر عاما من تعميده ، ومحيت بموته كل آثار المسيحية من البلاد ، وفى القرن الرابع عشر استؤنف هذا النضال ، ولكن لم تستقر المسيحية فى لتوانيا إلا فى القرن الخامس عشر ، وقد كان للظروف السياسية دورها الفعال فى هذا الصدد .

(١) عندما دخل المسلمون أفريقية القريبة فى عهد الخليفة عثمان بن عفان بعث القائد اليه يسأله هل يقتل البربر لأنهم وثنيون أو يأخذ منهم الجزية كالمسيحيين فرد عليه الخليفة بأن يعطيهم من بيت المال لأنهم من المؤلفة قلوبهم ولا يجبرون على الاسلام وهم لايعرفونه وأرسل المعلمين الذين يعلمون اللغة العربية والاسلام فما لبث البربر أن دخلوا الاسلام طائعين .

كان ملك لتوانيا أواخر القرن الرابع عشر هو الامبراطور جاجيوللو Jagiello وكان يقود حربا عوانا مع فرسان التيوتون حتى شعر بضعفه أمامهم ، فرأى أن يتحالف مع بولاندا ، وهذه كانت الآن قد صارت مسيحية ، ولكنه رأى التحالف معها خيرا من الخضوع للتيوتيين ، ولما ذهب لابرام معاهدة هناك ، كان من شروطها أن يتزوج من أميرة فنلندية ولية عهد لعرش بلادها ، وأن يعمد هناك، وفى أوائل ١٣٨٦ م عاد إلى بلاده ومعه مجموعة من رجال الدين ، وعندما أسست فى البلاد كنيسة محلية كان أحد هؤلاء هو البطريق الذى يرأسها — وهكذا دخلت لتوانيا رسميا فى دائرة الكنيسة الغربية ولكن هذه الرسمية التى أملتها ظروف السياسة والحرب لم تكن قادرة على نشر المسيحية بين أبناء لتوانيا ، غير أن التعاليم التى فرضت لم تدع أثرا للطقوس الوثنية-وخلال القرن الخامس عشر استقرت المسيحية دينا لهذا الشعب ، وكان هذا آخر شعب أوروبى يعتنق هذا الدين .

لم تستقر المسيحية اذن فى أوروبا إلا فى عهد النهضة ، وكان استقرارها يستغرق زمنا طويلا حتى يأتى جيل جديد لايرى غيرها . ولعل هذا مما أوحى للمبشرين أن يمارسوا هذه السياسة فهم يحاولون غرس فكرة مسيحية فى أى بلد ، ثم تتعاون الأسباب المادية والسياسية ، والدعاية الملحة لبقاء الفكرة حية بطريقة ما حتى يأتى جيل ، أو جيل بعده تكون المسيحية لديه أقرب وأيسر قبولا .

وقد اعتبر دكتور نيل نهاية الالف العاشر بعد الميلاد . بداية خروج أوروبا من العصور المظلمة ، ولكن لايبدو ذلك فان الحروب الصليبية بدأت فى هذا الوقت ، وكل احداثها تدل على أن أوروبا كانت تغط فى غياهب الظلام الفكرى ، كما يرى أنها أهتدت إلى طريق من طرق الوحدة بين أجزائها المتباعدة ، وذلك بتوحدها فى ديانة واحدة ، وهو قول يقبل إلى حد ما ، لأننا نجد أن المسيحية نفسها مزقت أوروبا ، وأن مذاهبها المتناحرة حتى الفرق التى تنتمى كلها إلى الكاثوليكية لم تكن تسمح بوجود هذه الوحدة ، فكانت هناك حروب طاحنة بين الكاثوليكية والمذاهب البروتستانية المستحدثة أعدم من أجلها الكثيرون . واستعملت فيها أنواع التعذيب الفاحش والاحراق ، ومع ذلك لم تكن الكاثوليكية تجمع أبناءها فى وحدة

بل كانوا أيضا فرقا متناحرة ، فلم تشمل أوروبا وحدة مسيحية كما زعم ، وهذه ملاحظة نضعها أمام المستشرقين والمبشرين الذين يطيب لهم أن يرددوا أن الاسلام لم يكون وحدة اسلامية ولم تطبق قوانينه إلا فى العهد الراشدى .

والواقع أنه لابد من التفرقة بين التنافس القائم على الرغبة فى الحكم ، وبين التناحر الدامى من أجل العقيدة والمبادىء فالمسلمون فى تنافسهم وحروبهم الداخلية مازالوا فى نطاق عقيدة واحدة ، فالأدارسة والأغالبة والعباسيون والظاهريون وغيرهم . لو ملك أى واحد منهم بلاد المسلمين جميعا ما غير من عقائدهم شيئا ولا عذب أحدا من أجل مذهبه الاسلامى ، فهذه وحدة حقا ، أما مذاهب المسيحية فتختلف فى عقائدها ، ولعلها لا تتحد فى شىء الا فى حرب الاسلام ، إذ تجد فيه الدين القوى المنافس لكل فروعها .

ولهذا يقول جوستاف لوبون لو أن النصر كان للمسلمين فى موقعة بواتيه لسلمت أوروبا من آثار المسيحية البغيضة ، فما وجدت محاكم التفتيش ولا صكوك الغفران ولا مذبحة سان بارتلمى ... (حضارة العرب) .

الباب الرابع

المسيحية فى عصر النهضة

« أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

(قرآن كريم)

الحركة الدينية فى عصر النهضة

نعرض حديثا موجزا عن موقف الكنيسة فى عصر النهضة ، وهذا الحديث يرينا من بعض جوانبه مدى ما كان لرجال الدين المسيحى من أثر فى عرقلة النهضة الأوروبية ، ويجدر بدارس التبشير المسلم أن يلم بهذه المواقف على أقل تقدير ليجبه بها المبشرين الذين يحلو لهم طعن الاسلام وتشويه تاريخه ، وهو من ناحية أخرى يعكس فضل الاسلام على الأمة العربية والشعوب التى أظلتها ، إذ بينما تورطت الشعوب الأوروبية فى متاهات فكرية وضلال عقلى وفساد اجتماعى ، وثب الاسلام بذويه وثبا ، ونقلهم من همجية إلى حضارة، ومن جانب ثالث كان للاسلام أثر فى اصلاح المسيحية فى هذا العصر وإليه يرجع الفضل فى ايقاظ العقلية الأوروبية .

كان بزوغ هذه النهضة فى ايطاليا ، وكانت بدايتها فنية ، وقد شغلت الحقبة التى بين عامى ١٣٤٠ و ١٥٤٠ م ، حقبة قرنين كاملين ، ففى أوائل القرن الرابع عشر ظهر بها نتاج من الفن الرفيع والأدب والبحث العقلى لم تشهده أوروبا منذ غروب الفكر اليونانى هذا بينما كانت انجلترا تعانى عقما ذهنيا بالغا،وكان من المتوقع أن تستمر هذه اللوامع الفكرية فى ايطاليا ولكنها سرعان ما اذنت بالغروب ذلك أن ايطاليا وقعت تحت سيطرة الاسبان ، وتوطد حكمهم بها بدءا من سنة ١٥٣٩ حتى نهاية الحروب التى قام بها لويس الرابع عشر،وفى هذه الفترة رذحت الدولة تحت أعباء النظام اليسوعى (الجزويتى) ونظام محاكم التفتيش المقدسة ، وقوائم الكنيسة المتلاحقة التى تحرم قراء كتب معينة هى كتب الفلسفة والكتب التى تنقد رجال الكنيسة ، وردت ايطاليا كما ردت أسبانيا بهذا إلى ظلام العصر الوسيط بينما استفادت الدول الأخرى من نهضتها ، وهذا ما لاينساه التاريخ من أعمال الكنيسة .

وضاقت القلة المستنيرة بهذا الوضع ولكنها تخوفت الخروج عليه ، فشرعت فى تفكير ووسائل للخلاص منه ، وكانت الحركة الانسانية قد انبعثت وأخذت تنشط وتشتد : تدريجيا منذ أواسط القرن الرابع عشر [1] ، فكانت عونا للغاضبين على الكنيسة .

وظهر فى فلورنسه اتجاه فكرى يدعو إلى العناية بالمعلمين ، وكان ذلك نتيجة للحركة الانسانية ، وأمتدت إلى ايطاليا ، وبرز من دعاتها أشخاص كبار منهم «دافنستر» (١٣٩٦ — ١٤٤٦) ، فدعا إلى منهج ديمقراطى لا يميز غنيا عن فقير ، ووجه التربية وجهة شاملة تعنى بالعقل والجسم الاخلاق ، وكان الانجليز أسرع الدول للاستفادة من هذه الحركة ، أما الكنيسة فلم تستفد منها شيئا ، ولكنها اتجهت اتجاها فنيا ، ولم تتجه اتجاها روحيا ولا علميا ، بل حاربت العلوم العقلية وهذا فرق ما بين اتجاه الكنيسة واتجاه النهضة

كان مركز البابوية نتيجة للانقسامات والضغوط السياسية قد انتقل إلى مدينة أفنيون الفرنسية ، وظل بها نحو سبعين عاما — من سنة ١٣٠٩ — ١٣٧٧ م ، ولما عادت إلى روما كان كل همها أن تجعل الكنائس والمدينة مزينة بالنقوش والتماثيل ، وصادف أن الفنان المبدع ايناس سلفيوس — الذى شهد الحروب الصليبية ، وشيد قصرا مشهورا فى سيناء أختير لمنصب البابوية وتسمى « بيوس الثانى » (١٤٥٨ — ٦٤) فراح يسرف فى هذا التجميل الفنى ، ويعيد للكنيسة روحا صليبيا ذا حماسة قوية ، ولم يعر الناحية الفكرية اهتماما وكل ما نال الفاتيكان من حظ علمى هو بناء مكتبته التى أنشأها نقولا الخامس (١٤٤٧—١٤٥٥) .

وأسوأ ما كان فى هذا الموقف هو سيرة البابوات ، فقد انغمسوا فى ترف مادى واستولى عليهم شره جعلهم يسرفون فى توسيع أملاكهم مما أشعر ذوى الفكر بمزيد

---

(١) الجماعة الانسانية جماعة تعنى برفاهية الانسان واحترام انسانيته وتخفيف آلامه ، وأول جمعية رسمية كانت فى القرن الثامن عشر ١٧٧٤ م فى امستردام ، وقامت على غرارها جماعة أخرى فى فيلادلفيا ، وفى بطرسبرج فى روسيا ، ومن هذه الجمعية نشأت جمعية الرفق بالحيوان ، ومبادىء هذه الجماعة عميقة الجذور فى الفلسفة وعلم الاجتماع ، وهى كما هو واضح غير المذهب الانسانى الالحادى Humanism

من الضيق والاشمئزاز ، وكان الخطر التركى يهدد البلاد تهديدا مخيفا ، وقد تورطت البندقية فى حرب اذلتها واضطرتها أن تعقد مع تركيا معاهدة مهينة ، فازداد الانسانيون والمفكرون استياء وضيقا من سلوك البابوات ، واشتغالهم بأنفسهم والبلاد على شفا هوة ، فظهرت مقاومات عديدة للكنيسة ، وتلاقت أراء الجميع عند نقطة واحدة هى أن رجال الدين هم سبب البلاء ، وأنهم يجب مقاومتهم .

وهذا من أهم الأسباب التى دعت إلى فصل الدين عن السياسة ومع أن شيئا من ذلك لم يحدث فى تاريخ الاسلام سرت الفكرة بين الشرقيين ، ووجدت من ينادى بتطبيقها فى البلاد الاسلامية . بينما وجد عكس ذلك فى أوروبا . فالبابا زعيم سياسى وروحى ، ورجال الارساليات فى كثير من المستعمرات والملحقات بالدول الكبرى لهم أصابع فى السياسة .

بوادر التفكير الحر فى المسيحية

ظهر فى هذا الوقت رجال من هنا ومن هناك يعتمدون على العقل والتفكير الحر وحده وكانوا جميعا حربا على الكنيسة ، ونجمل جوانب هذا التفكير فى الخطوات الآتية :ـــ

١ ــ تفجر هذا الروح فى شمال أوروبا وقادة ارزمس Erasmus من روتردام (١٤٦٧ــ١٥٣٦) ــ وكان شديد التأثر بالدراسات اليونانية القديمة وباللاتينية ولكنه لم يكن وثنيا ولا متعلقا بما وراء الطبيعة ، وإنما هو مسيحى محدود الخيال وكان زاخرا بالمواهب ذا حكمة وذكاء ، شغل كرسى الدراسات اللاهوتية ثلاثة عشر عاما (٥٠٠ ــ ٥١٣) ، وكان اهتمامه منصرفا إلى تقويم السلوك وجعل المعرفة شائعة بين الناس ، لهذا كره أن يكون الكتاب المقدس مكتوبا ومقرؤا باللاتينية وحدها ، وود لو يراه مكتوبا بكل اللغات ، بل قرر أن يرد الانجيل اللاتينى إلى أصله الاغريقى ، ومن أقواله : « يشوقنى أن أرى الفلاح يتلو أسفار الكتاب المقدس وهو يسير وراء محراثه ، وأن يرددها النساج على أنغام منسجه ، وأن يستعين بها المسافر على متاعب رحلته » ،وكره محاورات المتفقهين القائمة على المهارة اللغوية ، فدعا إلى العودة إلى تعاليم الاباء الأولين وبشر بكاثوليكية متسامحة مستنيرة ، وكان أكثر الذين عابوا صكوك الغفران وخرافات الكنيسة ، وتصرف الرهبان الجهلة ، وراجت سخرياته فى كتب الأدب عامة واسمه شائخ فى عصر النهضة .

٢ ــ ظهر الناقد الاجتماعى سافونا رولا Savona Rola فنقد القسس والحكام نقدا مرا وجاء فى كتابه أن الفساد يبدأ فى روما ويشمل رجال الاكليروس ، وأن هؤلاء أخطر على البلاد من الأتراك [1] وهم جمعوا ثرواتهم من بيع الوظائف الدينية

أنظر مقدمات أصول التاريخ الأوروبى الحديث .

(١) كان الأتراك السلاحقة عدوا للمسيحيين ، ثم تلاهم الأتراك العثمانيون الذين غزوا أوروبا غزوا أزعجها وهددها ويراد بكلمة الاتراك « المسلمون » .

ويرتكبون كل شيء للحصول على الذهب ، ولا يدقون أجراس الكنيسة الا فى مقابل المال والشموع ، ولا يحضرون التراتيل والصلوات .. الا إذا توقعوا كسبا — وإذا عاش قس أو كاهن حياة عادية سخروا منه وقالوا منافق » . وهكذا ظهر نقاد آخرون كثيرون خصوصا فى المانيا .

٣ — زاد الطين بلة أن ارتقى الاسكندر السادس كرسى البابوية ، وهو أسبانى ثرى — كان يُدعَى «رود ريجوبورجيا» تولى المنصب بطريق الرشوة . فقدم للمجمع المقدس عطايا كثيرة نال بها هذا المنصب ، ثم انشأ دولة بابوية خاضعة له فى وسط ايطاليا تقوم على الدسيسة والرشوة ، والقتل والغدر ، وهذا هو الذى تناوله ميكيافيللى فى كتاب « الأمير » [١] سنة ١٥١٣ بالنقد اللاذع.

كان ارتقاء الاسكندر كرسيه سنة ١٤٩٤ م ، وما كاد هذا القرن يشارف نهايته حتى كانت الألسن فى كل مكان — تتحدث عن انفصال المانيا وأسبانيا عن روما ، لأنها فقدت سلطانها الروحى نهائيا .

٤ — اتحاد فى أسبانيا ضد المسلمين

فى سنة ١٤٦٩ تم زواج فرديناند وايزابيلا ، ولم يؤد هذا الزواج إلى اندماج أراجونه وقشتالة له شعبا ومشاعر ، ولكنه أدى إلى مزج سياسى واتحاد قوة عسكرية ونشأة دولة أسبانية كبيرة ذات نفوذ ونشاط فى البر والبحر ، وظلت لها هذه القوة حتى القرن السادس عشر ، وتبع ذلك قوة التعصب الكاثوليكى ، وكانت الملكة ايزابيلا ضيقة الأفق شديدة التعصب ، فلم يسعها إلا القضاء النهائى على مملكة غرناطة آخر معاقل المسلمين فى أسبانيا وشجعها القسس واستجاب لها الشعب المسيحى ، رأت أنها كملكة يجب أن تقضى على كل هرطقة ، اخلاصا لمذهبها

---

(١) مكيافللى ، وطنى متحمس من فلورنسا ، عوقب بالنفى من بلده فشغل فى منفاه بوضع هذا الكتاب ، أودعه تصوراته عن الحاكم الذى يمكن أن يحرر ايطاليا ، والصفات التى يجب أن يتصف بها ، وسماه الأمير ، وقد صوره ذكيا لايبالى أن يرتكب الغش والخديعة ، يعمل على توسيع مملكته بكل الوسائل وشعاره دائما « الغاية تبرر الوسيلة » ، ودهش الناس لكتاب سياسى لايرعى حرمة الدين والأخلاق ، وأختار مكيافللى لكتابه بطلا عجيبا هو قيصر بورجيا ، ابن أخى البابا اسكندر السادس الذى كان معروفا عنه أنه يدير الجرائم والغدر والخيانات ، فكان الكتاب تصريحا بشيء يعرفه الناس ويسكتون عنه.

الكاثوليكى ، ففعلت ولم تفطن هى ولا هم إلى ما جروا على بلادهم إذ حرمت من الرخاء والتقدم والحرية ، والعلوم التى كانت تزدهر فى حكم المسلمين ولكن مما يؤسف له أكثر أن هذه الحملات كانت البداية لسلسلة طويلة من الاضطهاد ولم يدرك الكاثوليك أخطاءهم إلا بعد فوات الأوان (١).

وفى هذا الموقف تبدو ملاحظتان ذواتا أهمية :

أولاهما أن حكام المسلمين العرب فى أسبانيا كانوا قد فقدوا أهليتهم للحكم من قبل ذلك فقد كانوا بدورهم تخلوا عن أهم مبادىء الاسلام ، وفقدوا روح التعاون والشعور بواجب المسلم نحو المسلم ، وكان زوال الملك من أيديهم نتيجة حتمية لهذا التفريط ، والملاحظة الثانية أن الدين المسيحى والاسلامى معا لم يكونا فى هذا الوقت ذوى تأثير فى اصلاح الحياة الأوروبية وأن اختلف حال كل منهما فى مظهره وسير رجاله ، فالمسيحية قنعت بالعزلة والرهبنة ، والاسلام هجر ذووه دراسة وعملا .

٥ ــ ظهور المذهب البروتستانتى

كانت حال الكنيسة وأعمال البابوات التى ذكرنا مثيرة لمشاعر الكثيرين ، وكان ذوو الثقافة والتفكير المتحرر أكثر ضيقا ، وتبلورت أسباب الضيق فى نفوس هؤلاء حتى كان مارتن لوثر هو المعبر عنها ، فهو فى الواقع ليس المبتكر لفكرة المذهب ولكنه هو الذى أعلنها وعمل على تنفيذها ، وقد ذكرنا من قبل موقف سافونا رولا .

كان مارتن (١٤٨١ ــ ١٥٤٦ م) سكسونيا فلاحا أولى حظا من البلاغة ، وكان ذا اخلاص دينى ، وتركز اخلاصه فى الكتاب المقدس ، آمن به ووقف عليه جهاده ، ومن نصوصه فضح الآباء المضللين ، وهو الذى جرؤ من بين الغاضبين على معارضة البابا والهجوم على أعمال الكنيسة ، وكان فى عمله هذا معبرا عن مشاعر آخرين لم يجرؤوا على اعلانها .

(١) أنظر الفصل الذى كتبه جوستاف لوبون عن حال أسبانيا قبل الاسلام وأثناءه وبعده، وأنظر وصف فيليب حتى حضارة المسلمين فى أسبانيا فى كتابه «تاريخ العرب» .

وكان ويكلف Wycliff الانجليزى (١٣٢٤ — ٨٤ م) قد سبق بمثل هذه الأفكار ، وكذلك هس Huss (١٣٧٣ — ١٤١٥ م) فى بوهيميا ، وأراد الامبراطور برباروسيا (١١٢٣ — ٦٠ م)[1] أن يقضى على السلطة البابوية بالقوة فلم يفلح ، ولكن ثورة لوثر صادفت انفعالات أقوى فى نفوس الناس حتى أن بعض القسس كانوا يبدون أسفهم للحال السيئة التى انتهت اليها الكنيسة ، وكانت هذه الغضبات داخل الكنيسة وخارجها مما هيأ الاستجابة لدعوته وهو منذ زيارته كنيسة روما ١٥١١ م ومشاهدته ما بها من فساد عاد إلى بلاده يشيع نقده وزرايته عليها ، وظلت فكرة الثورة تنمو فى نفسه حتى أعلنها فى أكتوبر سنة ١٥١٧ م ذهب إلى كنيسة وتنبرج Wittenburg فالصق على بابها قائمة تتكون من ٩٥ بندا هى أساس مذهبه ، وكتب للبابا ليو العاشر أنه سيعمل على مقاومة فساده ما بقى فى جسمه عرق ينبض بروح الايمان ، فأصدر البابا قانونا بحرمانه من الكنيسة وأرسله إليه فقابله مارتن بالتحدى إذ أحرقه علنا .

ولما تولى شارل الخامس الامبراطورية . وهو معروف بتعصبه وضيق تفكيره . ازعجه سريان الدعوة اللوثرية فى الأراضى المنخفضة ، فاستدعى لوثر وطلب منه أن يرجع عن أرائه الالحادية ، فأبى الرجوع عنها مادام البابوات ملوثين بفاحش الأغلاط والذنوب ، وذكر أن المجامع الدينية متورطة فى الاخطاء أيضا كالكنيسة ، والفريقان مختصمان ولابد من الجهاد ضدهما معا ، وغضب شارل لهذا الرد ، واتفق هو والبابا على اختطاف لوثر والقضاء على مذهبه ، ولكن هذا لم يتم ، وأيضا لم يلن عنف مارتن .

كان شارل يعتبر دعوة لوثر كالدين الاسلامى من الالحاد الذى تجب مقاومته ، ولجأ إلى محاكم التفتيش التى استعملت فى أسبانيا ضد المسلمين فادخلها سنة

(١) كلمة باربا روس معناها اللحية الحمراء وهى لقب كان قد أطلق على الامبراطور الرومانى فريدريك الأول (١١٢٣ — ٩٠ م) وكان قد اكتسب قداسة لدى شعبه ، وأراد أن يخضع ايطاليا كلها لسلطانه ، فقام بست حملات لهذا الغرض ، وباءت كلها بالفشل ، وكان اصطدامه بالبابوية مما شجع على معارضته البابا ، وطال النزاع بينهما ، وكان فريدريك يهدف إلى تثبيت السلطة فى ألمانيا بدلا من روما ، وكل ذلك كان خلال الحروب الصليبية التى كانت أيضا من عوامل توهين المركز البابوى وكانت هذه كلها أرهاصات لقيام حركة معارضة قام بها لوثر ، أما فريدريك فقد مات غرقا أثناء عودته من الحملة الصليبية فى آسيا الصغرى .

١٥٢٢ م على الأراضى المنخفضة آملا أن يقضى بها على اراء لوثر كما قضى بها سلفه فردينائد على الاسلام فى أسبانيا ، ولكنه لبعد هذه البلاد عنه ، ولما فطر عليه أهل الشمال من خلق التضحية والشجاعة ظلوا يقاومون ، ولم يكن فى طوقه أن يرمى بهم فى البحر كما رمى مسلمو أسبانيا ، وقد أعطت ألوان التعذيب وحوادث الاعدام التى صبت على أتباع المذهب مثلا للصبر والتضحية اقتدى بها الآخرون ، ومن مشهورى الذين أحرقوا هنرى دى فوز Henry de voes وجون أش. أحرقا سنة ١٥٢٣ م فاكتسبا صفة القداسة ، وأعطيا الآخرين قوة وبسالة ، فقد كان البروتستانت يساقون إلى المحارق ، وهم يهتفون بأنهم مسيحيون وتشعل فيهم النار وهم يرددون مواد العقيدة اللوثرية الاثنتى عشرة ، ويسجل التاريخ لشارل الخامس أسوأ سمعه وأشنع اضطهاد للمسيحيين والمسلمين (١) وكان أتباعه من رجال الحرب ورجال الدين يتسمون بهذه الغلظة .

أعلن شارل سخطه وحربه على لوثر ولكن لم تساعده الظروف المحيطة به على اختطافه أو قتله ليس فقط لأنه هرب لدى بعض الكبار الشجعان ، ولكن نجمت أمامه إذ ذاك مشاكل أهم من مشكلته ، إذ كانت الدولة مشتبكة فى حرب مع فرنسا ، وكان يتوقع عونا من أخيه فرديناند حاكم النمسا ضد لوثر فلم يفعل له شيئا عن كان الجيش التركى العثمانى يدق أبواب فينا بكلتا يديه ، فكان له منه شاغل من كل شىء سواه بله مسألة دينية ليست كبيرة الأثر ، وبجانب كل هذه العوامل

---

(١) شارل الخامس — كما هو معروف — من أسرة هابسبرج ، وأمه أسبانية ، وحكم ما يقرب من أربعين عاما (١٥١٦ — ١٦٥٦) ، وأمتدت مملكته فشملت أراضى متباعدة الأطراف أسبانيا وألمانيا ونابولى والأراضى المنخفضة ، ثم ممالك المكسيك وبيرو ، وكانت بهذه السعة وبكثرة الحروب نقطة تحول واسع فى السياسة والاتجاه الدينى . وكان شارل قاسيا جسورا ، ظل طول حياته متأثرا بنشأته الفلكية ، فكان يرى من الواجب عليه دون دراسة وتعقل أن يحارب المرطقة بكل أنواعها ، وكان الاسلام والبروتستانتية أسوأ الهرطقات لديه، وكان الشعور الاسبانى العام يشجعه على كراهة المسلمين ويدفعه إلى حربهم فى كل مكان، وعندما خير مسلمى بالنسية بين اعتناق المسيحية وترك البلاد ، قابل الشعب عمله بكثير من الغبطة والسرور ، ثم تزوج من ايزابيلا ملكة البرتغال فتوقع الأسبان أن ينال المسلمين منه ما نالهم من زواج فرديناند ملك أرجوانه (١٤٦٧ — ١٥١٦) من ايزابلا صاحبة قشتالة (١٤٧٤ — ١٥٠٤)، وكانت المدن الفلمنكية والهولاندية فخورا بانتصاراته ، وفى سنة ١٥٥٥ تنازل عن عرشه فى بروكسل ، وترهب فى دير فى أسبانيا (راجع أصول التاريخ الأوروبى الحديث ١٣٣ — ٧) .

كان الشعب الفرنسي يقف بجانب لوثر ، وهكذا تهيأت عوامل عديدة لحياة المذهب فبرز ثم نما وانتشر ، ولم يكن مجرد فكرة ومذهب بل كان حربا شنيعة على البابا إذ وصفه لوثر بأنه المسيخ الدجال ، ووصف روما بأنها ــ بسبب البابوية والكنيسة ــ أكثر فسادا من بابل وسدوم ، وأخرج ثلاث رسائل تشرح ما بالكنيسة من فساد ورسم طريق الاصلاح الصحيح الذى يرضاه الكتاب المقدس.

٦ ــ عوامل أخرى

إلى جانب العوامل السابقة التى ناصرت اللوثريين والمذهب البرتستانتى عامة ضد الكنيسة كان هناك مشجعات أخرى ، فقد ناصره أتباع المذهب الانسانى لميلهم إلى التفكير الحر ولنفورهم من سلوك البابوات وسوء السمعة التى لوثت الكنيسة وكل رجالها ، وكان للاباطرة أيضا مساعدة وتشجيع للبروتستانت إذ رأوا فيه حدا لسلطة البابا التى أضرت بمراكزهم ونافست ممتلكاتهم ، ثم تقدم لحماية لوثر رجل سياسى بارز هو فريدريك العاقل ، وهو رجل ثرى سكسونى غلب عليه لقب العاقل والحكيم لحسن تصرفه . ورجحان عقله ، وهو الذى أنشأ جامعة وتنبرج وعنى بنشأتها ، نقل لوثر إلى دائرته بعيدا عن نفوذ البابا ، وهناك هيأ له جوا هادئا ملائما للفكر والعمل ، فعكف على الاناجيل ينقلها من الاغريقية إلى الالمانية وكان هذا من أكبر ما أثار الناس ضد الكنيسة ، لأنه هيأ لهم الاطلاع على مصادر دينهم من غير أن يرجعوا إلى رجال الدين ، وقد افزعهم ما رأوا من فرق هائل بين سلوك المسيح وسلوك القسس والبابوات ، فاشتعلت الثورة فى دمائهم ضد الكنيسة ، ثم تبنت جامعة وتنبرج الناشئة الفتية هذه المبادىء ودرستها لطلابها ، وكانت تنافس كلية السربون فى باريس فتفوقت عليها بهذا المذهب .

وفى سنة ١٥٢١ م ــ وهو العام الذى تحالف فيه البابا والامبراطور شارل ضد لوثر أصدر عالم كبير هو فيليب ملانكتون كتابا لاهوتيا سماه (كلام معاد) اعتمد فيه على الأناجيل وحدها ، وكانت مادته معارضة للكنيسة ، وتؤيد رأى لوثر ، ثم انتقل المذهب إلى سويسرا وانجلترا وبعض البلاد الأخرى .

مذهب زونجلى :

كان التذمر من الكنيسة يبعث الكثيرين من ذوى الثقافة على التفكير فى الاطلاع ، ولهذا كان كل واحد يفكر من جانب وينظر إلى الفساد من زاوية خاصة.

قامت فى سويسرا سنة ١٥٢٢ م حركة اصلاح أخرى قادها البرخ زونجلى ، وهو رجل وطنية وسياسة ، ومن تابعى المذهب الانسانى وانبثقت فكرته من زيورخ وهى حركة متعددة العناصر إذ هى سياسية وطنية دينية ؛ دعت إلى الانفصال عن الامبراطور وابعاد النفوذ الفرنسى والتخلص من أباطيل البابا ، ولم يقف نقده الدينى عند فساد السلوك من رجال الدين بل نقد القواعد التى تجرى الكنيسة عليها ، عاب على رجال الدين تحريم الزواج على أنفسهم ، وعاب الرهبنة وقال أن ذلك كله محض نفاق ومعارضة للطبيعة البشرية ، وعاب جعل اللغة اللاتينية البالية هى وحدها لغة الصلاة ودعا إلى استعمال اللغات المحلية لأنها أيسر فهما ، ومن نقده الذى كان بعيدا عن أذهان شعبه حملته على القربان المقدس واعتقاد أن لحم المسيح ودمه يحلان فى الخمر والخبز ، وزونجلى كان أوسع ثقافة من لوثر ويمتاز عنه باستنارة علمية أكثر .

تقسم هذان المذهبان ولايات ألمانيا ، ورأى أمير هس ، وكان ذا عقلية سياسية حصيفه ، ومن أتباع لوثر أن توحيد المذهبين مما يكفل وحدة بين شعبه فجمع الزعيمين لوثر وزونجلى — سنة ١٥٢٩ ، فاتفقا على بعض المسائل وهى التى تشين الكنيسة واختلفا فى مسألة القربان المقدس ، ولكنهما اقتربا بعض الاقتراب ، قال زونجلى أن العشاء الربانى لم يكن إلا رمزا ، وقال لوثر : حقا أن فكرة تجسد المسيح فى الخبز ووجود دمه فى الخمر شيء مخيف ، ولكنهما انصهرا فى هذه العناصر كما توجد النار فى الرصاص المنصهر .

٨ — أثر هذا الانقسام

كان لهذا الانقسام آثار فكرية وأخرى سياسية ، وأهتم أمير هس بالناحية السياسية وهاله أن ينقسم الشعب الجرمانى إلى طوائف يضرب بعضها بعضا ،

ورأى أن الحركة التى كانت ضد البابا والامبراطور انعكست على الشعب نفسه ، وتوشك أن تحدث انقساما داخليا فى أمته ، فبذل جهدا كبيرا للتوفيق بين المذهبين ، والواقع أن المسائل التى اختلفا فيها لم تثن أيا من الفريقين عن نقد الكنيسة ، ولكن طبيعة الزعيمين كانت مختلفة .

كان زونجلى رجل وطنية وسياسة ، وكانت حركته وطنية أكثر منها دينية ، أو قل هى حركة وطنية لبست ثوب الدين والفلسفة ، دعا لمذهبه أول ما دعا فى زيورخ وكانت هذه المقاطعات كلها تخضع للامبراطور سياسة ولفرنسا فكرا وثقافة ، وللبابا دينا وروحا، واستطاع زونجلى أن يبث فى نفوس مواطنيه فكرة الانقطاع عن هؤلاء جميعا ، وأن يكون لهم مصدر ثقافة يكفيهم ، وكانت جامعة وتنبرج تؤدى هذه الرسالة ، وكان نقده البابا مما يغض الناس عنه ، خصوصا عيبه المسائل التى قدمنا ، وقد تعاون مذهبه ومذهب لوثر فى جعل الاناجيل تقرأ باللغة المحلية ، وهو أوسع ثقافة من لوثر وأكثر تأثيرا ، ومذهبه مغذى بالأفكار الوطنية ، ولم تلق أفكاره أول أمرها رواجا لبعدها عن أذهان العوام ، ولكن المفكرين تبنوها ثم تابعهم الآخرون فما مضت بضعة أعوام حتى كانت ست مقاطعات من المقاطعات الالمانية الثلاث عشرة ، وأيضا مدن أخرى قليلة قد تحولت إلى هذا المذهب ، أى أنه صار مذهبا لما يقرب من نصف الشعب الجرمانى ، وكانت صفات زونجلى الشخصية عاملا قويا لنشر المذهب ولكن المسيحيين بوجه عام ، فى ألمانيا وسويسرا وغيرهما قد اطمأنوا إلى التقاليد الموروثة عن القربان المقدس والعشاء الربانى وقرت فى أذهانهم فكرة تمثل لحم المسيح ودمه فى الخبز والخمر ، مما جعل حملته عليها تواجه معارضة كبيرة .

ولما جمع الأمير بين زعيمى المذهبين سنة ١٥٢٦ نال زونجلى بعض الانتصار ، ولم تلق فكرة انصهار الرصاص قبولا لدى السويسريين ، بل أن بعضهم ارتد عن مذهب لوثر ، ولكن المذهب انتشر فى الشمال ، ودرج الناس على المذهبين ، وبمرور الأيام صار من المستحيل أن يوفق بينهما وأن كان كل منهما يحمل اسم البروتستانت ، كما صار من المستحيل أن يوفق بينهما وبين الكنيسة الكاثوليكية ، وكان مذهب لوثر أبرز العدوين لها .

ويتضح من هذا أن فكرة العشاء الربانى أخذت عن تقليد بحت ، ومع أنه من الصعب أن تستساغ ظلت باقية إلى الآن ، ويذيعها المبشرون .

٩ ـــ فكرة صكوك الغفران

كانت الكنيسة تبيع الناس صكوكا تنص على أنهم أصبحوا أبرياء من كل ماارتكبوا من الذنوب وأن لهم الجنة ، وكان العوام يفرحون بها ويدفعون لها أموالا طائلة ، ونفر منها المثقفون على ما رأينا قبل .

هذه الفكرة مستمدة من نظر ورأى ساذج ، لا تزال له آثاره فى جوانب أخرى وقـوامها . أن القديس بطرس عانى على الصليب ما عاناه المسيح ، فكسب بذلك خاصية توزيع الثواب على المؤمنين ، تلك التى كانت للمسيح ، ثم ورثها أتباعه عنه ، ولكن فيض الثواب إزداد بعد بطرس بسبب أعمال الخير التى أداها المسيحيون فى أجيال متتالية بعد صلبه ، وبما أن البابوات ورثة بطرس وروح المسيح حالة فيهم على الدوام فلهم القدرة على الثواب ومحو ذنوب الآثمين ، ووراء هذه الفكرة تكمن سنة الاعتراف والتوبة ، وبها ساغ للفرد أن يرتكب ما يرتكب ثم يمحو اثمه بغفران البابا .

أنشأت هذه الفكرة حالا سيئة من انحطاط الاخلاق وشيوع الفساد ، وظل كل بابا يتجه بها حسب رغباته وتبعا لمنفعته ، فالبابا يوليوس الثانى جعل الاسهام فى بناء كنيسة القديس بطرس كافيا لغفران كامل ، وجعل البابا ليو العاشر كل المغفرة ورحمات السماء الباقية لمن يخرج فى حرب صليبية ضد الاتراك ... ، وكان الرهبان نيابة عن البابا يفعلون مثل ذلك ، وربما خرجت إلى خرافة بينة ، كذلك الذى فعله المبشر الدومينكانى يوحنا تتزل John Titzel إذ وعد الناس أنهم إذا اسهموا طواعية واشتروا الصكوك ، فان تلال سانت أنا بورج St Anaborg ستتحول إلى فضة خالصة وأنه بوصول نقود الشراء إلى الصندوق تكون روح الشخص الذى دفعت من أجله متجهة إلى الفردوس .

وهكذا صار الغفران للأموات كما هو للأحياء ، وحقا زادت هذه الطريقة محصول الكنيسة ، وزادت فى ضلال الناس ، ولكنها أيقظت امتعاض المثقفين وأثارت غضبهم .

١٠ ـــ حركة الاصلاح فى انجلترا

يبدأ توتر العلاقات بين انجلترا والكنيسة الرومانية من بداية القرن السادس عشر وعهد الملك هنرى الثامن ، فقد كان ملكا مستنيرا شابا قام باصلاحات مشكورة، وكان ـــ على غير ما هو مألوف فى انجلترا ـــ شغوفا بالمسائل الدينية ، وامتزجت فيه روح الانجليز الكاثوليكية المحافظة بروح الانسانية العلمية ، وكان هذا من أثر دراسته ، فقد قرأ فلسفة توما الاكوينى وناقشها ، ويبدو أنه لم يكن منفعلا بما فيها من مبادىء الالهام ونكران خلو مريم فطريا من كل الخطيئة الادمية، فأخرج عام ١٥٢١ ردا على لوثر ففرح به البابا ليو العاشر ولقبه بحامى العقيدة، كما أنه جارى الكنيسة فى مسائل خاصة ، منها القداس وتحريم الزواج على رجال الدين ، وعمل فى حربه على نصر البابا ضد ملك فرنسا ، وبوجه عام تتمثل فى هذا الملك طبيعة الانجليز المحافظة ، وأن شذ عن الانجليز فى اهتمامه بهذه التيارات الدينية نتيجة دراسته الفلسفية ، ولهذا السبب نفسه وقف البارونات وأهل الريف بمعزل من هذه الحركة بينما تأثر بها على الأقل عدد كبير من أبناء الجامعات خصوصا جامعة كمبردج التى ظهرت بها حركة دينية وفكر بروتستانتى،ومن جانب الأثرياء وكبار التجار بدأ بينهم استياء من امتيازات رجال الدين فقد كانت لهم أملاك واسعة معفاة من الضرائب ، وساء الأثرياء اعفاؤها وسعتها على السواء وكانوا يعفون أيضا من العقوبات الجنائية ، هذا بينما كانت محكمة الأسقف تحكم على الشخص بالاعدام حرقا بتهمة الهرطقة والكفر ، وبعبارة أخرى كان هناك تياران للقضاء أو نوعان من الحكومة فى وقت واحد ـــ وكانت حكومة الكنيسة أقوى إذ كان باستطاعتها أن تعفى المذنب من الأحكام التى تصدر ضده إذا تحول إلى رجل دين ، وكان يكفى فى هذا التحول أن يتلو مقطوعة من المزامير أو ينضم للقسس بوجه ما [(١)] ومما أثار سخط الشعب إذ ذاك أن أحد الأثرياء وجد مشنوقا فى قصر أسقف لندن ، وانعقدت محكمة من الأساقفة فقررت أنه كان زنديقا وأنه أقدم على الانتحار فحكمت باحراق جسده ومصادرة أملاكه وضمها إلى ممتلكات التاج ، وأثار هذا الحادث سخط الناس ، ولكن طبيعة الشعب

(١) سبق ظهور هذه الحالة فى ايطاليا .

الانجليزى الهادئة لم تثر أو تتحمس للمذهب البروتستانتى كما فعل فلاحو ألمانيا ، وإنما كان انفعالهم ازاء طريقة جمع الضرائب وثقلها مع ازدياد غلاء الأسعار وفى سنة ١٥٣٤ صدر ما سمى قانون السيادة The Act of Supermacy الذى ينص على أن الملك هو الرئيس الأعلى للكنيسة ، وكان هذا القانون أهم ما أثار غضب الشعب البريطانى إذ اعتبر أن قسم الناس على طاعته يعنى نكثهم بالقسم على طاعة البابا بينما كان رفض هذا القسم يعنى مواجهة الاعدام ، ولَقِيَ الموت جزاء على الامتناع من القسم اثنان من أعظم الشخصيات الكاثوليكية هما سير توماس مور ، والاسقف فشر ، ولم يؤد اعدامهما إلا إلى كبت الشعب واجباره على القسم ، ومع كل هذا ظل الملك يتمتع بشعبية كبيرة .

انفصلت الكنيسة الانجليزية بهذا عن كنيسة روما ، وبدا الملك هنرى الثامن على أنه بابا كنيسته ، وبدت فى هذه الحركة على أى حال رغبة عامة فى الا تكون انجلترا تابعة لفكر ألمانى ، ولا تابعة لروما ، ومن الأشخاص البارزين فى هذا العهد توماس كرانمر الذى ألف صلوات وأناشيد والحانا قيمة للكنيسة الانجليكانية حلت محل اللاتينية وكان هذا العالم الدينى والأديب المهذب الذى منح الكنيسة الناشئة قوة وحيوية ضعيف الشخصية جدا ، فقد أجبرته الملكة مارى أن يوقع على ست وثائق تنكر مذهبه فوقعها ثم غضبت عليه بعد ذلك وحكمت باعدامه احراقا ، فلما سيق إلى المحرقة أخذ يعلن مايؤكد به عقيدته ويكذب وثائقه التى وقعها كرها، ثم ألقى بها فى النار ، ثم مد يمنى يديه إلى النار ، وقال هذه هى اليد التى ارتكبت الخطيئة بتوقيعها على الوثائق الست ، ويجب أن تكون أول ما يحرق من جسدى(١) .

(١) كان هنرى الثامن قد تزوج من كاترين الأرجوانية وقد كانت قبله زوجة لأخيه آرثر ، ومات عنها بعد أربعة شهور من زواجهما ، وكان زواج هنرى هذا مما لا تبيحه الكنيسة الكاثوليكية طبقا لنصوص التوراة ، ولكن البابا يوليوس الثانى أفتى بصحته ، وأنجبت كاترين بنتا سميت مارى ، ولم تنجب ذكرا مما جعل الملك يفكر جادا فى التخلص منها ليتزوج من فتاة كان يحبها ، وشجعه على طلب طلاقها من كنيسة روما أن صهره كان قد طلق زوجته وتزوجت غيره ، وأن أخته كانت طلقت زوجها وتزوجت غيره ، وكان ذلك كله بافتاء البابا كليمنت السابع ، ولكن البابا الآن كان خاضعا لسيطرة أسبانيا الكاثوليكية الجامدة الصلبة ، ونشأ من هذا الموقف عداء شديد بين هنرى والبابوية ، وكان هنرى ذا قوة مستبدا ، فحارب رجال الاكليروس وصادر أملاك الأديرة . ولما تلاه أدورد السادس دبرت كاترين ومارى قتله فمات صبيا ، ومما يذكر فى قضية الملك هنرى وزواجه أن البابا حاول امضاءها بوجه ما فاقترح اجازة

كانت مارى كاثوليكية متعصبة فرجعت بالاصلاح الدينى إلى الوراء ، ثم تزوجت من فيليب ملك أسبانيا ، مما أثار سخط الشعب الانجليزى وأيضا ثورته وقضت الظروف إذ ذاك أن تكون أختها اليزابث (١٥٥٨ ــ ١٦٠٣) بنت هنرى من زوجته الثانية آن بولين هى ولى العهد ، ولم يحد ذلك من تعصب مارى وتحديها البروتستانتيين وقتلهم حتى زاد من قتلتهم على ثلثمائة ، وكان هذا الاضطهاد مما بغض الانجليز فى روما والبابوات ، كما كان استبسال الشهداء مما أغرى باعتناق مذهبهم ، ونمت حركة الاصلاح الدينى بصفة خاصة فى اسكوتلاند ، وظلت الأراضى المنخفضة والنمسا واسكوتلاند مسرحا لتنازع المذاهب الدينية مدة طويلة.

وفى نحو سنة ١٥٤٥ عقد مجمع دينى فى ترينت Trent علق الناس عليه أمالا ولكن بدا من أوله تراخى أعضائه وكثر تأجيل جلساته ، وبلغت إحدى تأجيلاتها عشرة أعوام وكان يرجى أن تفصل فى المسائل الثلاث الرئيسية سلطة نصوص الاناجيل ، ومبدأ التبرير بالايمان وحده ، وطبيعة القربان المقدس ، ولكن الكاثوليكية انتصرت على البروتستانت ، فخيبت أمال المصلحين وطبعت نفسها بالتعصب والفساد ــ ثم أعيد المؤتمر سنة ١٥٦٢ بعد عشرة الأعوام التى توقفها، ولكن الكنيسة انتصرت ثانيا بفضل لينيز القائد الثانى لجماعة اليسوعيين .

١١ ــ بداية التحسن

ظهرت بوادر التحسن فى الكنيسة فى النصف الثانى من القرن السادس عشر، إذ تولاها بابوات ذوو ثقافة ، تخلوا عن مساوىء أسلافهم ، ويبرز بين هؤلاء بيوس الخامس سنة ١٥٦٥ م [١] . وكان رجلا شديد التمسك والمحافظة شديد التقشف، يمشى فى الظهيرة حافى القدمين ، ويصحو مع الفجر ، وقلل نفقات بلاطه ، فرضى الناس عنه والتفوا حوله .

= الجمع بين زوجتين وأحال اقتراحه إلى محكمة فى لندن يرأسها الكاردينال ، وعقدت لذلك جلسة علنية حضرها الدهماء ، فرأت أخيرا اعادة القضية إلى البابا بروما ثانيا .

(١) اسمه الأصلى ميشيل جسليرى .

وحاكاه أتباعه ولكن اصلاحه لم يدم طويلا ، وانتكست الكنيسة فى عهد سكستو الخامس الذى أحب الدس والاغتيال ، وهكذا كانت حال الكنيسة .

وبدت خلال القرن السادس عشر حركة بارعة من اليسوعيين إذ قام أجناتيوس لويولا بحركة التعليم التى ذكرناها فى الحديث عن جماعته، ثم أخذ الكهنة الأسبان ـ وهو اسم أطلق على اليسوعيين ـ ينشئون المدارس فى ربوع ألمانيا لرد الناس إلى المذهب الكاثوليكى ، فأحرزوا بذلك انتصارا على اللوثريين ، وفى القرن السابع عشر أستطاع اليسوعيون أن يحولوا بولاندا إلى مركز كاثوليكى، وكانت منذ سنة ١٣٨٩ قد اتحدت مع لتوانيا وكونت مملكة كبيرة فى غرب أوروبا ، ثم انهزمت هناك وتضاءلت حركة البرتستانت التيوتونيــة والحضارة اليونانية التى كانت سائدة فى روسيا الشرقية ، وفصلت هذه الحركة بولاندا عن روسيا رغم روابط الجنس ولم تدخل دائرة الشيوعية اللادينية إلا فى القرن العشرين ، وما تزال بها الكاثوليكية إلى الآن .

وأشنع ما يحفظه التاريخ للتعصب الدينى هو تلك الحرب الضروس التى استمرت ثلاثين عاما ، وكان مسرحها الأراضى الجرمانية ولكن تورط فيها عدد من الدول الأوروبية الكبيرة وتحملت نفقات ومشاق وخسارات مالية باهظة انهكت كل هذه الدول ، ولا يعنينا تفصيلها الطويل ولكن بدايتها جاءت على يد الامبراطور فرديناند الثانى ، هذا الشاب الذى تخرج فى كلية يسوعية غرست فى نفسه كراهة المذاهب التى تعارض الكاثوليكية خصوصا المذهب البروتستانتى اللوثرى ، ووقف أيضا تجاه انصار كلفن والبروتستانت البوهيميين وكان من أثار هذه الحرب المريرة أن وجهت هذه الجماعات بدعوتها إلى ميادين أخرى خارج أوروبا وخصوصا فى الاقطار الشرقية ، فاتجه التبشير بذلك وجهة جديدة .

ومما يسترعى النظر فى أمر الكنسيين خلال العصر الوسيط أنهم كانوا ينقادون لجهلهم أنقيادا أعمى ، ولو وجه هذا الاخلاص توجيها صالحا لكان ذا فائدة فى تقدم بلادهم وهناك قصة طريفة تروى عن الكونت دى تواتيه (١١٠١) فقد اشترك فى الحملة الصليبية الأولى وتغنى بنصر الأوروبيين فيها على السلاجقة ، ولكنه كان ملحدا فطرده الأسقف من الكنيسة ، ثم تلاقيا مرة فطلب الكونت الملحد

من القس أن يغفر له ذنوبه أو يقتله فآثر القس القتل على أن يغفر للملحد لايستحق المغفرة ، ومد له عنقه ليضربه ولكن الكونت ضن عليه بالقتل شهيدا ، وقال : لست أحبك بالقدر الذى أرفعك به إلى السماء[1] .

ومهما يكن أمر ذلك كله فقد ظهر بين حين وآخر ، وبين بلد وآخر أفراد نظموا الدعوة والعبادة وتكون منهم ومن أتباعهم جمعيات تبشيرية ، نذكر أبرزها وأشهرها بعد .

---

(١) المستشرقون ١٠٣/١ الطبعة الأولى .

الباب الخامس

الحـــروب الصليبية

بسم الله الرحمن الرحيم

« أن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون » .

(قرآن كريم)

الحـــروب الصليبية

لا يعنينا هنا أن نكتب شيئا تفصيليا عن تلك الحرب ، ولكنا نورد فقط كلمة توضح جانبها الدينى ، فمن المعروف أن هذه الحروب كان لها أسباب أخرى اقتصادية وسياسية لايعنينا ذكرها هنا .

والأساس الدينى لهذه الحروب يرجع للعداء المرير بين المسيحية والاسلام منذ ظهور الاسلام ومنذ أن أحتك المسلمون بالدولة الرومانية ، وبعد امتداد الدولة الاسلامية حتى آسيا الصغرى شرقا وحتى جبال البرانس غربا ، أحرز الغرب انتصارات أخرى ، فقد رد الامبراطور ليو الثالث الايسورى (٧١٧ــ٧٤١م) جيش سليمان بن عبد الملك الكثيف الذى أراد فتح القسطنطينية ، ثم قمع ثورة فى صقلية سنة ٧١٨ م ، إلى انتصارات أخرى .

وفى الغرب كانت معركة بلاط الشهداء وانتصار شارل مارتل على عبد الرحمن الغافقى سنة ٧٣٦ م ، ثم منذ القرن الحادى عشر أخذت الدولة الاسلامية فى الشرق والغرب تميل إلى الضعف بسبب ما سـرى فيهـا من التفكك وكثرة الانقسامات . ورأى الغرب فى هذا الضعف فرصة سانحة للهجوم على المسلمين فقام أحد الرهبان الكلونيين يستحث نبلاء فرنسا على محاربة المسلمين فى أسبانيا ، ورأت الكنيسة فى هذه الحرب أداة لوقف الحروب التى كانت دائرة بين الأمراء بتوجيههم إلى هذا الجهاد ، ورأى رهبان الأديرة الكلونية فرصة أيضا لنشر نظامهم الديرى فى أسبانيا ووسيلة للحصول على معونات مادية فنزحت جماعات عديدة من الأمراء بدءاً من سنة ١٠١٨ م إلى أسبانيا لحرب المسلمين (١) وهذه كلها حروب صليبية قبل الحرب الصليبية المعروفة .

(١) دكتور / سعيد عاشور أوروبا العصور الوسطى جـ ١ / ٥٣٠

أما أسباب هذه الحرب القريبة فترجع إلى الهزيمة الفاضحة التى أنزلها الب أرسلان سنة ١٠٧١ م بروما نوس الرابع فى موقعة ملازكرت (مانزكرت) [١] وفيها جرح الامبراطور ووقع أسيرا فى يد أعدائه السلاجقة ، وكان جيشه مائتى الف ، وجيش أعدائه خمسة عشر ألفا ثم قبل صلحا مذلا تعهد فيه بدفع جزية سنوية مرهقة ولم يكد الإمبراطور يعود إلى وطنه حتى واجه ثورة وعقوبة فخلع من عرشه وسملت عيناه ومات فى العام نفسه .

وغرقت الدولة فى اضطرابات استمرت عشرة أعوام ، تولى العرش خلالها ثلاثة أباطرة آخرهم اليكسوس كوينين (١٠٨١ م) وكان أقدر من سابقيه سياسة . فرأى أن يرسل بعثة إلى البابا أوريان لتشرح له خطر السلاجقة على دين المسيح [٢] .

وكان الب أرسلان قد توفى سنة ١٠٧٢ م فخلفه أخوه ملكشاه ، وكان شديد البأس أيضا ، ومات سنة ١٠٩٢ م فتنازع أبناؤه الملك من بعده ودب بينهم النزاع والضعف .

وقد تحمس البابا أوريان الثانى لهذه الحرب فعقد مجمعا فى كليرمونت ــ بفرنســا سنة ١٠٩٥ م وألقى بين مستمعيه خطابه الشهير وعلى أثره حملوا الصليب واتجهوا إلى القسطنطينية فتجمعوا فيها استعداد للذهاب إلى بيت المقدس .

انطلق بطرس الناسك ودعاة مثله يحرضون على المشاركة فى هذه الحرب ، وأثاروا فى الناس مشاعر وعواطف دينية ، قالوا أنهم سيتاح لهم السجود أمام القبر الذى رقد فيه المسيح ويقبلون الصخرة التى صلب عليها ، وستفتح لهم أبواب الجنة ويبوءون بالغفران وهكذا فثارت حميتهم لكل هذه الأمانى .

لقد كان القرن الحادى عشر عصرا سيئا بالنسبة للمسلمين ، اكتسحت فيه الحملة الصليبية الأولى جيوش السلاجقة ثم توالى زحف الصليبيين تجاه بيت المقدس .

(١) مدينة شمال بحيرة فان .

(٢) المصدر السابق ٤٢٢ ــ ٣ .

وفى سنة ١٠٨٥ م استولى ملك قشتالة الفونس السادس على طليطلة ، وفيه كان روبرت جويسكارد وأخوه يعملان على زحزحة المسلمين من صقلية ، وكانت أساطيل جنوه وبيزا توالى هجماتها على جزر البحر الأبيض لتخرج المسلمين منها(١).

وغنى عن الذكر أن المسلمين فى كل هذه البقاع كانوا قد أصيبوا بالتفكك ، وإذ ذهبت وحدتهم ذهبت هيبتهم وانحلت قواهم ، وهذا ما أطمع فيهم أعداءهم.

قضى الصليبيون فى الشرق مائتى عام كونوا فيها ممالك لهم ولكنهم لم يستطيعوا تنصير المسلمين ، وبدت وحشيتهم أول الأمر وفظاعة أعمالهم ، ولكنهم رأوا أخيرا أنهم على درجة كبيرة من التأخر والجهل أمام حضارة المسلمين .

استولوا على بيت المقدس سنة ١٠٩٩ م فارتكبوا جرائم شنيعة من القتل والتمثيل، فلم يتركوا الأطفال ولا الشيوخ ولا النساء ولا العباد حتى قتلوا فى المسجد الأقصى أكثر من سبعين الفا (٢) .

وظهر صلاح الدين الأيوبى فأبدى شجاعته النادرة ، وأخذت الوفود المتطوعة تأتيه تترى من شتى الأمكنة فكانت موقعة حطين الشهيرة سنة ١١٨٧ م وفيها أبدى من الانسانية والتحضر ما أبدى من الشجاعة والقوة ، فقد سقط ملوك أوروبا أسرى بين يديه فأحسن معاملتهم حتى أخجلهم أدبه وحسن صنيعه ، ويستثنى من ذلك واحد فقط هو ريجينالد صاحب شاتيون Reginald of Chatillon فقد عامله معاملة تناسب سوء أدبه .

وقد قام الصليبيون بقيادة ريجينالد (ويسميه المؤرخون العرب أرناط) بمشروع جديد خطير هو الاستيلاء على البحر الأحمر ، وتأسيس مركز مسيحى فى عدن ، وكان هذا الرجل محاربا لا يعرف للشرف معنى ولا يرعى للعهود ذمة ، وكان قد قضى ١٥ سنة أسيرا لدى العرب فلما أطلق سراحه نقض معاهدته مع المسلمين وعمل على محاربة الحجاج — فأغار على قافلة متجهة إلى مكة فنهبها وقتل منها من

---

(١) أوروبا العصور الوسطى — سعيد عاشور ٤٢٦ .

(٢) راجع الكامل لابن الاثير جـ ١٠ / ١٩٣ وما بعدها .

قتل ، ثم بدأ خطة أشنع وهى الاستيلاء على الحرمين الشريفين ليطعن الاسلام طعنة قاضية (٣) ، بل أراد أن ينبش قبر رسول الله ــ ﷺ ــ ويعود بجسده الشريف إلى « الكرك » حيث يضعه فى متحف يحصل من زائريه الرسوم المثرية . وقد أقسم صلاح الدين ليذبحه بيده إن ظفر به. وهيأت له ظروفه أن يظفر به ، فاستتابه ثلاثة أيام فلم يتب فذبحه وبر بقسمه ، واسترد صلاح الدين بيت المقدس ولم يقض على الصليبين نهائيا .

واحداث الحروب الصليبية ــ مع سعتها وكبرها ــ تحوى مواقف اسلامية نبيلة كبيرة والذى ينبغى الا يغيب عن ذهننا أن بطولة صلاح الدين تسبق موقعة حطين ، وأنها يجب أن تقدر فيما بذله من جهود لتوحيد المسلمين ، وفى قضائه على المبادىء والأفكار المنحرفة من الباطنية والحشاشين وغيرهم حتى شملت الاقطار الاسلامية كلها وحدة فكرية اسلامية ، لولا تأسيسها ما استطاع أن يقهر الصليبين ، ومن الجانب الآخر لولا هذا التفكك الذى أصيب به المسلمون من قبل ما طمع فيهم الصليبيون .

واستطاع خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين والمماليك أن يقوموا بأعمال ايجابية أخرى ، فقد نجح الملك العادل فى توحيد صفوف البيت الأيوبى وتحقيق سيادته على مصر والشام لمواجهة الحملات الصليبية الأخرى ، وكان قد شق عليهم بقاء بيت المقدس تحت يد المسلمين فدعا البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ــ ١٢١٦م) إلى حملة تتجه إلى مصر التى كانت مصدر القوى ضدهم وعهد إلى البندقية أن تنقل المحاربين على سفنها ولما لم يكن ثم مال كاف لأجور السفن فقد وجه البابا رجال الحرب إلى غزو مدينة زارا وتقديمها للبندقية مكافأة لها على نقل المحاربين ، على سفنها ، وزارا مدينة مسيحية على ساحل دلماشيا الايطالى كان الهنغاريون قد استولوا عليها ، فنهبت سنة ١٢٠٢ ولكن المحاربين الصليبين والبنادقة قد تنازعوا قسمه الغنائم ، وفى الوقت نفسه قامت ثورة فى القسطنطينية خلع فيها الامبراطور واستنجد ابنه ببابا روما ، ووعد أن يخضع له الكنيسة الشرقية وأن يساعد بماله الحملة المتجهة إلى مصر ، واتجه الصليبيون إلى القسطنطينية فنهبوها

(٣) يحسن بالدارسين مراجعة هذه الاحداث فى كتاب الروضتين لأبى شامة جـ ٢ ص ٣٥ــ٥٥ وابن الاثير حوادث ٥٧٨ ، وتفاصيل هذه الاحداث هناك مما يغيظ له المبشرون .

وأسرفوا فى أعمالهم حتى نهبوا الكنائس والأديرة ، وهكذا حارب الصليبيون أنفسهم ــ فانظر أثر التفرق والجشع .

وانتهى أمر الصليبيين أخيرا على أيدى ثلاثة كبار من المماليك ، وهم الظاهر بيبرس (١٢٦٠ ــ ١٢٧٧ م) وقلاوون (١٢٧٩ ــ ٩٠) الذى لم يبق للصليبيين معه غير عكا ثم ابنه الأشرف خليل الذى استولى عليها سنة ١٢٩١ ، وبذا قضى على حملات الصليبيين بعد مائتى عام تقريبا .

ولا يستطيع المتحدث عن الحروب الصليبية أن يغفل الدور الذى قام به زنكى اتابك الموصل وقد خلفه نور الدين ، الذى مهد طريق الوحدة بين عدد من الاقاليم الاسلامية ثم أسلم القيادة لصلاح الدين .

مواقف تستحق الذكر

قدمنا ما كان من صلاح الدين من حسن معاملة أسراه ، وأنه لم يقتل «أرناط» إلا بعد أن استتابه ، وفضلا عما ذكرنا لأرناط هذا من سوء الفعل ، نذكر أنه أعد سفنا حربية تبحر من ايلات إلى سواحل الحجاز لنهب الحجاج ، وأنه كان ينهب من يمر منهم تحت قلعة الكرك ، ونذكر أيضا أنه حين حصار عكا وجه الصليبيون كل قواهم لاستنقاذها وتولى زعامة هذه الحملة الملك جاى King Gay الذى كان أسيرا تحت يد صلاح الدين ثم أطلق سراحه بعد أن أقسم له جهد إيمانه وبشرفه الا يرفع سلاحه فى وجه المسلمين ما عاش .

وعندما دخل الصليبيون بيت المقدس قتلوا كل من بالمدينة حتى كانت الجثث تعوق المشى فى الطريق ، فلما استولى عليها صلاح الدين بعد ذلك لم يفعل مثل هذه الفظائع ولكنه أخذ الصليبيين أسرى واشترط فدية مالية لاطلاق سراحهم ، ثم وجد بينهم فقراء لايملكون الفدية فاطلق سراح ألف منهم بدون أى شىء لا فدية ولا استرقاق ولا تكليف بعمل ثم طلب منه البطريق أن يطلق عدداً آخر ففعل ، ورأى البطريق أن يتصدق على بعض الفقراء بالفدية فلم يشأ صلاح الدين أن يكون أقل كرما منه على هؤلاء الأعداء ، فاطلق سراح آخرين من باق الاسرى وخصوصا النساء والأطفال بدون فدية .

وعند حصاره عكا كان تحت يد الصليبين مسلمون واشترطوا لاطلاق سراحهم أن يدفع المسلمون مائتى ألف قطعة من الذهب مع شروط أخرى ، ومضى شهر ولم يتوفر الذهب فأمر ريتشارد قلب الأسد بقطع رقاب ألفين وسبعمائة منهم ، وهذا يعنى أن الصليبيين ظلوا على خشونتهم وسوء أخلاقهم رغم ما لاقوا من حسن معاملة المسلمين (١) .

---

(١) يحسن مراجعة الروضتين جـ ٢ / ١١٧ ـــ ١٢٢ .

من نتائج هذه الحروب :

لا يعنينا أن نفيض فى ذكر النتائج العديدة المنوعة التى يذكرها المؤرخون ونكتفى بالاشارة إلى بعض النتائج الدينية ، فقد حطت هذه الحروب من مكانة البابوات وقضت على سيطرة الكنيسة فاتجه الأوروبيون إلى العلوم الحقيقية ، وكانت جامعات المسلمين فى أسبانيا هي المعين الذى استقوا منه ، ولكن الكنيسة ورجال الدين ظل لهم أحترامهم وظلت مكانتهم الأدبية مرعية .

أما فى الشرق فعادت انتصارات المسلمين عليهم بكثير من الخديعة والغرور ، فأخلدوا إلى السكون بينما جد خصومهم ، ومع ماشاهدوه غير مرة من أثار تفرقهم السيئة ونتائج اتحادهم العظيمة ، وأن هزائمهم وانتصاراتهم كانت تدور على هذين العاملين كان التفرق هو السائد بينهم واليه يعزى ما منى به الشرق من ضعف وتخلف ، ورأى الغربيون ، مع احترامهم للكنيسة ورجال الدين ، أن يعزلوا الدين عن السياسة بسبب ما أصابهم من البابوات ، فرأى المسلمون أيضا أن يفعلوا ذلك ، ولكنهم جحدوا احترام رجال الدين بل اعتبروهم حجر عثرة فى طريق تقدمهم . وقد كان المسجد والقرآن الكريم ــ على العكس مما كانت الكنيسة والبابوات ــ من أسباب نصر المسلمين وتقدمهم وايجاد وحدة بينهم ، ومع ذلك أغضوا عن كتابهم مبالغة فى تقليد الغربيين .

رؤيا المسيح والتلقى منه :

يتكرر لدى المسيحيين أن يرى اتقياؤهم وغيرهم شخص المسيح هابطا عليهم من السماء ، فيلقى اليهم بتعاليمه فيأخذوا بها ويتخذوها شريعة ، ويبدأ ذلك برؤيا بولس التى أدخل بها على المسيحية تغييرات واسعة ، وقد ذكرنا فى الحديث عن جماعات الأدفنتست والميثوديزم مثل هذا ، وجماعة المورمون أحدث فرقة مسيحية نشأت بسبب هبوط المسيح على مؤسسها يوسف سميث[1] ، وسبق رؤية لول المسيح ثلاث مرات فى يوم واحد .

وفى أواخر الحروب الصليبية أدعى صبى ناشيء أن المسيح هبط عليه وأمره أن

(١) أنظر المورمون فيما سيأتى مع الفرق المسيحية .

يجمع أقرانه للحرب ضد المسلمين ، فقال بعض رجال الدين أنه صبى لايعرف الكذب ولا التلفيق وأن المسيح قد تراءى له حقا ، وتحمس له الصبية وساعدهم الأثرياء، وتوقعوا أن عناية السماء ستهبط عليهم، ومن العجيب أن الراهب بطرس الناسك الذى كان شديد الحماس فى الدعوة للحملة الأولى تزعم هذه الحملة ، وحملتها سفن هيئت لها ، فأبحرت بالصبية إلى الشرق ولكنها لم تعد ، وقد بيعوا فى تونس وما حولها من شواطىء أفريقية ، وهذه الحملة تذكر فقط لما لها من دلالة على عقلية الأوربين والصليبيين فى هذا الوقت [1] .

حـــرب مستمرة :

لم تنته الحروب الصليبية بخروج الصليبين من عكا وما حولها ، ولكنها تحولت إلى ميدان حربى آخر فى غرب أفريقية وفى أسبانيا ، وتزعمها فى هذه المرة الأسبان والبرتغاليون ولم تقف عند هذا الحد بل تحولت إلى حرب باردة تضايق الاسلام وتسد السبل أمام دعاته فلما جاء عصر الكشوفات وعصر استعمار الغرب للشرق ثم تفوق الغرب فى ميادين التكنولوجيا والعلوم فى العصر الحديث استعملت كل هذه القوى فى حرب الاسلام ، وتفوق المبشرون على دعاة الاسلام بالوسائل المادية الغذيدة .

وكان الصهيونيون من قبلهم يعملون على كيد الاسلام ، ثم رأوا ـــ وهم أعداء المسيح والمسيحية ـــ أن يقفوا بجانب الصليبين لأسباب سياسية ، وظفروا من البابا لويس السادس ببراءتهم من دم المسيح ، فاكتسبوا صلة أقوى بالمسيحيين ، ثم كانت الظروف المؤسفة التى أصابت دعاة الاسلام وجمعياته فعادت على دعوته بركود أكثر .

ونحن الآن فى حاجة إلى داعية مثقف حازم حكيم يقود الجماعات الاسلامية ويوحد صفوفها ، ويتجنب بحكمته مآزق السياسة واندفاعات التهور ، وينقصنا وسائل كثيرة أهمها رفع المستوى الثقافى بين الدعاة .

---

(١) حول هذه الحملة أنتشت قصيدة أو ملحمة رمزية للشاعر بايب رمز فيها إلى الأطفال بالفيران .

الباب السادس

الجماعات والارساليات التبشيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

« ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا ، حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » .

(قرآن كريم)

مدارس التبشير والارساليات

مدارس التبشير هى التى تخرج المبشرين ، وهى دور علم أنشأتها الكنائس والأديرة المختلفة لدرس مناهج ثقافية خاصة ، بعضها لتكوين المبشر علميا ، وذلك بدرس الكتاب المقدس بقسميه والتاريخ القديم على الأخص ، وبعضها لتهيئته للقيام بمهمته التبشيرية ونذكر بعد منهجها تفصيلا .

أما الأرساليات فهى البعثات التى توفد من الهيئات المسيحية لتبشير الناس بالانجيل ، وأعضاؤها من المثقفين الذين تخرجوا فى مدارس التبشير ، وهؤلاء حين يذهبون إلى بلد ما يؤسسون به كنيسة لهم أو أكثر ، وفى أكثر الأحيان ينشئون بجانب الكنيسة مدرسة ومستشفى ، وكلاهما للتبشير ومحاولة ادخال الناس فى المسيحية ، وهذه الارساليات نشأت ونمت بعد الحروب الصليبية ، وكان الرهبان ورؤساء الأديرة هم السابقين اليها وإلى درس الفكر الشرقى بمدارسهم وأديرتهم هناك بوصفهم الطبقة المثقفة المستنيرة ، وبسبب تقديرهم رسالة المبشر وحاجته إلى هذه الدراسة ، وقامت لذلك فى الجامعات الأوروبية مدارس استشراق وكراسى للدراسات الشرقية ، وكان ذلك بفضل مجهود الرهبان وحماسهم الدينى ويتبع ذلك فضل لهم آخر ، وهو نقلهم جزءا كبيرا من علوم العرب فى أسبانيا إلى بلادهم ، وكان ذلك بعد أن مضى على المسلمين فى أسبانيا نحو قرنين ، وهذا ما جعل المؤرخ الانجليزى جيبون يتمنى لو أن المسلمين كانوا انتصروا فى موقعة بواتيه ليتقدم ظهور الجامعات الأوروبية قرنين من الزمان .

وكانت عناية الرهبان والنقلة موجهة إلى العلوم الأدبية والعلمية أكثر منها إلى النواحى العقلية ، فقد حاربوا فكر ابن رشد كما حاربوا رواد التفكير الحر أمثال كوبرنيكوس وجاليليو . وفريدريك الثانى وتنديل وغيرهم ، وهذا كثير ومعروف ، وهو يرجع إلى أن الطبقة المستنيرة المثقفة كانت قليلة ، وكانت تخشى الجهر بما

لديها ، لأنه قد يتعارض مع ما يدعو إليه رجال الدين ، وكانت الطبقة المحافظة الجامدة على موروثاتها هى الأغلبية وذات السيطرة ، وهؤلاء تقبلوا الكتاب المقدس والاناجيل على ما فيها ، وقد حاربوا كل ما يعارضهم فسبب ذلك لهم ولحركة التبشير متاعب كثيرة ، وكان الحل الحتمى لذلك هو الفصل بين الدين والدولة ، ولكن رجال السياسة والاستعمار ظلوا بحاجة إلى رجال الدين استرضاء للعامة فى بلادهم وللاجانب فى المستعمرات ، لهذا مدوا ارساليات التبشير بالمال وسندوهم بالجاه (١) .

أما من الناحية الأدبية فقد استفاد القسس والرهبان كثيرا من الفكر الاسلامى ومن الجامعات الاسلامية فى أسبانيا ، وكان للرسامين والمثالين حرية واسعة ونشاط كبير لأن لهم لدى رجال الدين مكانة ، لاهتمامهم بالرسوم والتماثيل الكلاسيكية ، ومعظم الأحداث الكبيرة التى جاءت فى الكتاب المقدس لها صور وتماثيل من عمل الرسامين والمثالين ذوى العبقرية والشهرة ، وقد رسم الفنان الايطالى الشهير ليوناردو دافنشى « صورة العشاء الربانى » العشاء الأخير للمسيح مع تلاميذه — على الدير الدومينكانى فى ميلانو سنة ١٤٩٥ م فبقيت هذه الصورة إلى الآن أشهر صورة فى العالم .

ومهما يكن من أمر الكنائس والأديرة فى العصور الوسطى فان مدارسها قبست من الفكر الاسلامى حظا أفادت به أبناءها .

وأرساليات التبشير الآن منتشرة فى أنحاء العالم ، وأفسح ميادينها أواسط أفريقية وجنوب وشرق آسيا ، وجزر الفلبين وأندونيسيا .. وفى الأيام الأخيرة انبعث لها نشاط جديد فى البلاد الاسلامية ، حتى فى دول الخليج والمملكة السعودية ومصر. وهى فى كل بلد تنزله تستعين بالوسائل المادية وخصوصا المدارس والمستشفيات ، وتقوم إلى جانب ذلك بدعايات واسعة كثيرة المبالغات .

ولأن لكل ارسالية منهجها ولكل كنيسة عبادتها يقوم بينها نفور احيانا ، وتنعزل كل جماعة عن الأخرى ، ولكنها فى المجامع المسكونية تدعى كلها ، على مختلف

---

(١) انظر توضيح ذلك فى باب المؤتمرات من كتاب « معركة التبشير والاسلام » .

فرقها . إذ فى هذه المجامع — أو المؤتمرات العامة — توضع الخطط التى يتبعها الدعاة ، وتشرح المشاكل العامة التى تواجههم وطرق التغلب عليها ، ولذا تختار كل طائفة مندوبين من أبنائها بقطع النظر عن اختلاف مناهج الجماعات ، وما بين نحلها من تباين .

وتبذل الآن مجهودات لتوحيد هذه الجماعات وتعاونها فى ميادين التبشير — مع بقاء الدعاة على انتمائهم إلى جماعاتهم ، وأثيرت هذه الفكرة فى المؤتمرات المسكونية ولكن لايبدو أنها سهلة التنفيذ .

وتمتد جذور هذا النشاط إلى عصر الاستكشافات ، فقد رأينا من قبل أن كل رحلة كشفية كان معها ارسالية تبشيرية ، ويوكل إلى الارسالية عادة تكوين كنائس ومدارس وكتابة نشرات وعمل كل ما تراه مجديا فى أداء رسالتها ، وبعض هذه الارساليات كان سابقا لنشأة الفرق المذهبية من اليسوعيين والفرنشسكان وغيرهما ، وكانت كلها كاثوليكية تابعة للكنيسة الأم أو الأباطرة الكاثوليكين . ولما قامت هذه الجماعات المذهبية كان لكل جماعة ارسالياتها وكنائسها فى الشرق والغرب .

وكانت نشأة هذه الارساليات — كما ذكرنا من قبل — نتيجة لفشل الحملات الصليبية إذ أدرك الأوروبيون أن الشرقيين تفوقوا عليهم بعامل الدين ، وأن المشاعر الدينية هى التى اجتذبت المسلمين من الأماكن البعيدة ليقفوا — متطوعين — إلى جانب المحاربين المسلمين ، ونال العسكريين اليأس البالغ من انتصارهم على قوم يتمسكون بدينهم كل هذا التمسك ، ونال رجال الكنيسة حزن أعمق إذ كانوا يتوقعون بعد خطاب أربانوس والجمع الغفير الذى استجاب له أن تسيطر أوروبا فى جولة خاطفة على الشرق وأن تسود المسيحية كل ربوعه ، فلما باءت كلها بالفشل الذريع ولم ينل الأوروبيون بعد طول الزمن وتكرار المحاولات سوى خسارة الأرواح والأموال والعتاد ، لجأوا إلى غزو سلمى مأمون العاقبة وهو العمل على نشر المسيحية بالدعاية والاغراءات المادية ، ودعا الأمر إلى اعداد مبشرين ذوى مقدرة على أداء هذه الرسالة مسلحين بثقافات خاصة تمكنهم أن ينالوا بالسلم ما لم ينله تطاول الحروب ، ويرجع فضل الأسبقية فى هذا إلى المستشرق الأسبانى ريموند لول

فهو أشهر وأكبر مبشر فى العصر الوسيط وأول من نهج طريق التبشير المبنى على أساس علمى .

وبمجهوده هو وأتباع رأيه هنا وهناك نشأت ارساليات منظمة تعتمد على دراسات خاصة ، ودعت الظروف السياسية أن تعمل الدول الأوروبية على انشاء ارساليات لها فى البلاد الشرقية ، وكانت أسبانيا والبرتغال بما امتازتا به من تعصب كاثوليكى أبرز وأنشط الدول الأوروبية فى تأسيس الأرساليات ، وارسال المبشرين إلى الشرق ، واليهما تنتمى أكثر الارساليات الكاثوليكية فى الشرق ، وقد كانتا أيضا أسبق الدول إلى كشف الجوانب المجهولة فى القارات وجزر المحيطات فأنشأتا فيها ارساليات كاثوليكية كثيرة . ثم قامت الجماعات الكبيرة وكانت جماعة الجزويت أسبقها وأنشطها ، وكذلك كانت جماعة الدومينكان ، فلما ظهرت جماعة الميثودتستس « النظاميون » كان نشاطها فوق كل نشاط سبقها .

وفى القرن الثامن عشر وما بعده . عهد الاستعمار — ظهر أعظم نشاط تبشيرى ، ولايزال تياره مستمرا ، ثم توالى انشاء الجمعيات المحلية فى أوروبا ، وما لبث أن امتدت إلى الشرق ، وفى هذا المجال كان لبريطانيا نشاط أوسع نظرا لما كان لها من مستعمرات واسعة فى الشرق ، وكان وليام كارى أبا التبشير الانجليزى، كما كان لول أبا التبشير عامة ، ونذكر كلمة عن كل منهما .

ريمـــوند لول

لول شخصية بارزة بين المستشرقين والمبشرين ، لأنه قام فى كلا الحقلين بنشاط ملحوظ وترك منهجا قويما لمن يأتى بعده .

ولد فى جزيرة ميورقة حول سنة ١٢٣٥م، عقب استخلاصها من المسلمين، ونشأ على غير دين ، وفى الثلاثين من عمره أو ما حولها كان قد بدا شابا فطنا وشاعرا وقصاصا ورياضيا ورحـالة وذا ذكاء متفتح لتحصيل المعارف المختلفة ، وأثناء ما كان سادرا فى هذه المشاعر تراءى له طيف المسيح ثلاث مرات فى يوم واحد ، فدعاه لنفسه ، وطلب منه أن يعمل لخدمة المنقذ المخلص ومنذ هذه الرؤية دخل المسيحية وقضى خمسين عاما فى خدمتها ، وكانت رغبته الأولى فى كل خدماته هى أن يهدى الناس إلى الانجيل وأن يدخل الكفار فى المسيحية، والكفار قد يكونون وثنيين وقد يكونون مسلمين ، وكان أول أمره مفتونا بجماعة الدومينكان، ولكنه ازاء ما فى نظامها من صرامة ولعدم ملاءمتها لخططه تحول إلى جماعة الفرنشيسكان .

وكان نشاطه بارزا فى مجالين واسعين : تعلمه وتعليمه ، وجولاته الواسعة بين مختلف البلاد والهيئات والجماعات .

أما من حيث ثقافته فقد كان جامعيا له معرفة بالفلسفات والأديان القديمة ، وكان له قراءة واطلاع لاينقطع . وقرأ والف الشعر فى لغته القطالونية Catalonic وفى اللغة اللاتينية . وكان التصوف هو مذهبه الذى يدين به فى كل أعماله وعباداته ، وله محاولات فلسفية لعقد صلة بين المحب ومحبوبه ، وشبهت نزعته الصوفية بحالة القديسة "سانت تريزا" والصوفيين الآخرين من الجنس اللاتينى ، وأمتاز هو بشعور حاد بالحقيقة ولذا برز فى أعماله انتباه إلى التفاصيل الدقيقة الشعورية .

أما جولاته فى العالم المسيحى وأيضا فى العالم الشرقى من البحر المتوسط ،

فليست منفصلة عن اتجاهه الثقافى والتصوفى ، لأنها كانت بين الجامعات ورجال العلم والدين فزار جامعات باريس ونوتبلير ، وبلاطات الملوك فى فرنسا وأراجون وصقلية وأيضا قبرص والبابوات الذين تبوأوا كراسى البابوية بدءا من عام ١٢٦٥ ، وزار جمهوريات جنوا ونيسا والبندقية التى كانت على صلة بالمسلمين ، وحضر المجلس المسكونى العام الذى عقد فى فينا سنة ١٣١١ وكذلك قابل كبار الصوفية من المسلمين منهم ابن السبعين وابن هود ، والشّشْترى ... وغيرهم ، وسجن فى تونس مرة وفى الجزائر أخرى ، وقد مات بها جريحا أو قتيلا (١) .

وهو أبو التبشير وواضع مناهجه ومنشىء مدارسه ، وكان قد تعلم اللغة العربية وقرأ القرآن الكريم ويقال أنه حفظه(٢) وأن كنا نستبعد ذلك ، وصرف جهودا كبيرة عملية وفكرية . لتنصير المسلمين بالاقناع بصحة المسيحية من غير حرب ، وليس هو أول من اتجه إلى هذا التفكير ولكنه أبرز وأول من خطط لهذا المنهج ، ويتلخص منهجه فى ثلاثة جوانب :ـــ

١ ـــ أن يدرس المبشر اللغات الشرقية ، وهذا لتكوينه العلمى ، وأن يدرس لغة القوم الذين يعمل بينهم ، وهذا ليستطيع تفهيمهم ما يريد من مبادىء المسيحية وتأييدها دينا ، ولهذا دعا إلى درس اللغات الشرقية فى الجامعات الأوروبية ، وعمل على اقناع الملوك والبابوات بهذه الفكرة ، ويبدو أنها كانت عسيرة القبول لديهم ، وفى أواخر القرن الثالث عشر سنة ١٢٧٤ منحه ملك أسبانيا سلطة تكوين كلية لدراسة اللغات الشرقية ولكن لايعرف إن كانت حقا قد أنشئت أولا ، وإذا كانت قد أنشئت فلا يدرى شىء عمن خرجتهم ، ولا عن الارساليات التى نشأت عنها.

وفى سنة ١٣١١ قرر مجلس فينا الذى كان لول من حاضريه انشاء خمس كليات تلحق بأكبر وأشهر الجامعات الأوروبية ، وهى جامعات روما وبولونيا وباريس وأوكسفورد وسلامانكا ، لدرس اللغات السائدة فى العالم الاسلامى ، وقرر لول فى تخطيطه حتمية درس اللغات العبرية والعربية والسريانية والاغريقية ، وقدم

---

(١) أنظر عنه Neil p 134 والمستشرقون ١/١٢٢ــ٢٣ وهو هناك بالأسبانية لوليو Liollo وفى المراجع الانجليزية Lull .

(٢) المستشرقون ـــ نفسه .

للمجلس اقتراحا آخر هو أن يدعى المثقفون من كل انحاء العالم إلى هذه الكليات ليتلقوا بها دراسات لاهوتية من غير أن يطلب منهم الدخول فى المسيحية ـ وهذا يعنى أنه كان يريد ابلاغ الدعوة المسيحية إلى اسماع الآخرين بوجه ما .

ولا ينبغى أن يغيب عنا الفرق الواسع بين منهج لول وبين أعمال الدارسين من قبله فى مدارس المسلمين فى أسبانيا ، فهؤلاء درسوا لأنفسهم وترجموا من العربية للعلم وليس لغرض التبشير وخدمة المسيحية ، وحقا كانت دراستهم ذات أثر كبير فى الثقافة الأوروبية ونتج عنها معرفة الفلسفة الارسطية ، وكانت منسية فى الغرب ، ولكن لم يكن لها صلة بالتبشير ففضل «لول» أنه رجع بدراسته إلى منهج عملى لادخال المسلمين والشرقيين عامة فى دين المسيح .

٢ ـ والأمر الثانى من تخطيطه هو تأليف كتب توضح حقيقة الدين المسيحى والأدلة التى تؤيده ، وبعبارة أخرى لم يكتف برسائل التبشير المسموعة بل زادها أن تكون مقرؤة أيضا إذ ليس من المتاح لكل شحص أن يسمع ، ولكن الكتاب ينقل اليه المعلومات اينما كان ، ولم ينجز شيء من هذه الفكرة ، بل يقول نيل Neil[١] أننا ينتابنا الشك فى امكانية تأليف كتاب كهذا الذى اقترحه لول ، ولكن وجهات النظر التى أبداها كانت لمدة طويلة محل تفكير وموضوعا لمناظرات حية فى العالم الرومانى الكاثوليكى ، وقد كان لول مندفعا لهذا الغرض بسبب مقابلته لعلماء المسلمين ، وما قام بينهم من مناظرات وبما رآه لديهم من مناهج علم الكلام الاسلامى ، وكانت عقائد المسلمين أو ما نسميه علم الكلام والتوحيد تدرس فى البلاد الاسلامية التى زارها . وكان مفتى تونس الكبير قد تحدى المبشرين المسيحين ودعاهم إلى مناظرته ، وقال للول : إذا كنت تتمسك بأن القانون المسيحى هو الصحيح ، وأن قانون محمد ﷺ غير صحيح فانك لابد أن تؤيد رأيك بالأدلة الضرورية ، ولم يتقدم أحد لمناظرته ، ولكن هذا التحدى كان مما دفع لول إلى فكرته .

ونحن لا نعرف لماذا لاقت فكرة تأليف هذا الكتاب مقاومة واستغرقت زمنا

---

(١) Neil p 136 .

لدرسها كما لا تدرى لماذا يبدى المبشر الكبير المعاصر نيل تشككه فى امكانية تأليف كتاب كهذا .

٣ ــ والمطلب الثالث أمر غير ثقافى ، بل يتعلق بشخصية الداعية والمسيحى ايا كان ، وهو أن يكون المسيحى جريئا شجاعًا يعلن إيمانه وعقيدته أمام المسلمين حتى لو كلفه ذلك حياته ، وقد كانَ التبشير فى هذا الوقت شاقا لا يخلو من خطورة ، إذ كان المسلمون بعد انتصاراتهم فى الحروب الصليبية قد استهانوا بالمسيحيين ، واستهان معهم مجاوروهم ، وربما استحيى المسيحيون أن يجهروا بمسيحيتهم ، وأنتاب مبشروهم اليأس من تنصير المسلمين ، فكانت وصاة لول هذه رد فعل لما كان واقعا ، وظل هو مؤمنا بأن العالم كله سيتحول إلى المسيحية ولكن لايتم ذلك ألا بمجهود كبير وتضحيات بالغة وجاء فى مذكراته : أن الارساليات ستحول العالم كله إلى المسيحية ، ولكن هذا سيكون من خلال سفح الدموع وأراقة الدماء والجهد المضنى ، ثم أيضا من خلال الموت المرير .. » ولم يكن هو نفسه يقتنع بفكر لا يحوله إلى عمل ، وقد رحل إلى شمال أفريقية ثلاث أو أربع مرات لمقابلة العلماء المسلمين ومناظرتهم ، ولاعلان فكرته بين عامة المسلمين ودعوتهم إلى المسيحية ، ولكن لم تؤثر مناظرات وقعت له هناك ، وكانت رحلته الرابعة أو ربما الثالثة إلى بوجيا ــ الجزائر ــ سنة ١٣١٥ وقد مات هناك فى هذا العام فى سن الثمانين . هذه هى الخيوط الرئيسية لاعمال مؤسس التبشير ومنظمه ، وقد أخذ بعض البابوات المعاصرين بوصيته هذه . وجدير بدعاة المسلمين أن يعرفوه ويعرفوا منهجه . وهو بلا ريب مثل جيد للداعية الناجح لأى دين ولأى مبدأ .

وليـــام كارى

كارى مبشر انجليزى عاش بين سنتى ١٧٦١ ، ١٨٣٤ م فهو قد جاء بعد لول بأكثر من خمسة قرون ، ولكنه استفاد من تعاليمه ، فأثرنا أن نذكره معه ، وكان موضع الحديث عنه فى فصل لاحق ، وعمله مكمل لأعمال الرواد الكثيرين الذين سبقوه ، ومنفذ لوصاياهم ، وأعماله كثيرة وكبيرة حقا ، والانجليز يعتزون به لأنه أول مبشر وراع للارساليات البروتستانتية فى الشرق ومثبت قواعدها فى الهند .

تزود قبل رحيله إلى الهند بمؤهلات علمية واسعة اليها يرجع الفضل فى نجاحه ، فهو قد درس اللاتينية واليونانية والفرنسية والعبرية ، ثم درس بعض اللغات الهندية، وعملا بوصايا لول وكبار المبشرين السابقين رأى أنه لابد من ترجمة الكتاب المقدس إلى لغات القوم الذين يراد تنصيرهم ، فلذا بدا بترجمة العهد الجديد إلى اللغة البنغالية ، واستغرقت ترجمته هذه خمسة أعوام ، ثم تبين أنها ترجمة غير جيدة لأنه لعصاميته فى درس اللغة البنغالية لم يكن يجيد اصطلاحاتها ، فأعاد الترجمة كلها من جديد ، وهذا يبين مدى صبره ومبلغ اصراره على نجاح ارساليته(١) .

بدا أعماله بنشر بعض الكتب فى انجلترا ، وهى كتب تبشيرية ، تدعو إلى تنشيط التبشير وترسم الخطط التى تقود إلى نجاحه ، ونالت كتبه نجاحا وانتشارا واسعا ، ودعا إلى انشاء الجمعيات التى تعلم المسيحية ، فأعجب الناس بكتاباته وبآرائه ، وفتح اكتتاب لمعاونته فتدفقت عليه الأموال لتنفيذ مشروعاته(٢)، وأعانته الجمعيات بالمال والأعوان الذين يساعدونه وطلبه الهولانديون للتبشير فى مستعمراتهم فلبى رغبتهم وأمدوه بالمال الكثير ، ومن هنا برزت شهرته وصار أماما للمبشرين .

كانت أكثر تعاليمه مأخوذة من لول ، دعا إلى نشر الانجيل بكل لغات العالم ،

(١) أنظر عنه Neil 207 والغارة على العالم الاسلامى ١٣ .

(٢) فتحه له بعض المتحمسين لآرائه والمعجبين به .

لتتسع دائرته ويقرأ بين جميع الأمم ، ويبدو أن الفكرة امتداد لعمل لوثر ، ودعا كارى مبشرى المسيحية أن يدرسوا بعمق ديانات الأمم الأخرى وفلسفاتهم الدينية، ورأى أن الاقتصار على درس المسيحية وفلسفتها مما لا يؤهل المبشر لنشرها بين الآخرين ، وأن درس الديانات الأخرى يمنح المبشر المسيحي قدرة على دحضها ، ودعا إلى الاهتمام ببناء الكنائس فى كل بلد ينزله المبشرون بأسرع ما يمكن ، وإلى الاكثار من بنائها .

ونالت آراؤه وأعماله نجاحا كبيرا فأسست كنائس عديدة فى الشرق فى بلاد كثيرة ، وترجم الكتاب المقدس إلى لغات الشرق العديدة ، وفى مدة قصيرة أصبح متداولا فيما يزيد على ثلاثين لسانا ، ويبدو أن ترجمة كارى إلى اللغة البنغالية كانت أساسا للترجمات الأخرى ، لأنه راجعها عدة مرات بلغت سبعا ، وأثناء المراجعة الثامنة وافته منيته وهذا يعكس صورة من صبره الطويل على ممارسة أعماله ــ وقد ترجم إلى اللغة السنسكريتية (١٠٠٠) أ ب ورقه من الكتاب المقدس.

أما نجاحه ونجاح رفاقه فى ادخال المسيحية فى البلاد الشرقية فيرجع أساسا إلى الجهد الكبير الذى بذلوه فى درس المجتمعات التى عملوا فيها ، لأنه كان درسا عميقا تناول كل حياتهم بمختلف جوانبها ، وأعانه على هذه الدراسة وعلى تعليم المسيحية ثقافته الواسعة المنوعة ، وقد كون من المتنصرين دعاة للمسيحية فى بلادهم ، وهم بطبيعة الحال أقدر على تفهيمها واشاعتها بين ذويهم .

ويعتبر القرن الثامن عشر مدينا لهذا الرجل بأعماله التبشيرية .

ومات كارى سنة ١٨٣٤ م وأوصى الا يكتب على قبره إلا اسمه ، وتاريخ ميلاده ووفاته ، وأيضا نشيد قديم يقول : « مذنب فقير عاجز ، وقعت بين يديك الرحيمتين » .

خلاصلا عابرة :

منذ العهد الصليبى نشأت جمعيات تبشيرية صغيرة ، ثم طرأت عليها تنظيمات جديدة بعد ذلك ، ففى سنة ١١٥٧ م أسس بعض الصليبين جمعية الاخوة الكرملية ، فى بقعة قريبة من جبل الكرمل ، ومنه استمدت اسمها ، وفيها تخرج عدد كبير من المبشرين ولا تزال قائمة إلى الآن فى سوريا ، ولها نشاط استشراق وتبشيرى واليها ينتمى أباء كبار [١] .

واتجه السياسيون والاقتصاديون هذا الاتجاه أيضا ، ووجد المستعمرون فى ارساليات التبشير عونا لهم أيضا فأمدوها بالمعونات ، فكانت كلها قوىً متساندة يشد بعضها بعضا ، واقتضى التخطيط لنجاح هذا العمل أن تنشأ مدارس لاعداد المبشرين ، والمرسلين ، فوضعت لهم مناهج خاصة كالتى ذكرها القس ابراهيم خليل [٢] ولم تبق دراستهم قاصرة على الكتاب المقدس ، وزودوا — على وجه أخص بدراسة الشعوب الشرقية لغة ودينا واجتماعا ، ومن هذه الدراسة نشأ التبشير والاستشراق جميعا ، ثم برزت الجماعات التى نذكرها بعد ، ولها تنافس كبير فى ارسال البعثات إلى الشرق ، وهى فى كل أماكنها تعنى بطعن الاسلام وتشويه تاريخه ، لأنها ترى فيه منافسا خطيرا .

ظهرت الجماعتان الكبيرتان — الدومينكان ، والفرنشيسكان فى أوائل القرن الثالث عشر وسيأتى حديث كل منهما .

ومن المبشرين البارزين فى هذا العهد وليم الطرابلسى (المولود فى طرابلس) وهو ينتمى إلى جماعة الدومينكان ، وقد كتب عن المسلمين رسالة مستفيضة ، شرح

---

(١) تذكر من محدثيهم الأب انستانس مارى الكرملى المتوفى سنة ١٩٤٧ ، وهو لبنانى الأصل من بكفية (بكيفا) تخرج فى مدرسة الاباء ، الكرمليين والاباء اليسوعيين ، وترهب فى بلجيكا ، ودرس اللاهوت فى مونبليه بفرنسا ، ثم رسم كاهنا باسم الاب انستاس مارى الالبادى فى سنة ١٨٩٤ وعين مديرا لمدرسة الكرمليين . تعلم اللاتينية واليونانية وكان يعرف الارامية والعبرية والحبشية والفارسية والتركية والصابئة ، ودرس علاقاتها باللغة العربية ، وكان يكتب فى مجلة الرسالة مقالات غاية فى الجودة من حيث البحث اللغوى (أنظر ترجمته فى الاعلام) .

(٢) أنظر فصل منهج الدراسة التبشيرية بعد هذا .

فيها أفكارهم وأحوالهم الاجتماعية ، ووضح المسائل التى يتفق فيها الاسلام والمسيحية ، ثم وضح أن بيت المقدس لايمكن استرداده إلى المسيحيين إلا عن طريق السلم وبواسطة المرسلين المبشرين ، وليس عن طريق الجنود المسلحين ، فكانت عملة تجاوبا مع دعوة لول .

ومن البارزين أيضاً وليم الصورى (المولود فى صور) وهو أيضا من الدومنيكان ويشارك معه فكرته .

ولكن سير هذه الحركة ظل يمشى ببطء ولم ينبعث النشاط إلا فى القرن السادس عشر على أثر نجاح الرحلات الاستكشافية وامتداد الاستعمار الأوروبى فى الشرق .

ومن هذا نجد أنه منذ القرن الرابع عشر بدأ فى ذهن الأوروبيين اقتناع وتخطيط لحرب صليبية بارزة ، واتخذت التدابير والاستعدادات لتكوين الدعاة بالوسائل الثقافية بدلا من الاستعداد الحربى ، ودب فى التبشير نشاط جديد لم يكن فى واقعه إلا صليبية جديدة ، وحربا مقنعة لا تعتمد على السيف ولا على اراقة الدماء ولكن على الغزو الفكرى . وكان النشاط التبشيرى يقوم بعملين متلازمين ، دعوة للمسيحية وتنفير من الاسلام ، ولم يكن هذا المنهج قاصرا على البلاد الاسلامية أو التى بها مسلمون بل كان ولا يزال قائما متبعا حتى فى البلاد التى ليس بها اسلام أصلا ، وذلك للاحتياط من ميل واحد إليه وسدا على الناحية الاسلامية أن تجد اذنا واعية ، ونجح هذا الاتجاه فى البلاد الأوروبية إذ نجد معظم الناس هناك بين من لايعرف عن الاسلام شيئا أصلا أو من يعرف أنه دين البدو أو سفاكى الدماء أو ما أشبه ذلك . أما فى البلاد الأفريقية والآسيوية فان المبشرين يعتمدون على الوسائل المادية لاجتذاب الناس إلى الكنيسة وكما يقولون « نيل » يدخل خمسة فى الاسلام كلما دخل واحد فى المسيحية ، وربما لفت الهجوم على الاسلام أنظار الآخرين اليه ، ودعاهم إلى التساؤل عنه .

وليس فى استطاعة الدعاة الاسلاميين أن يتسلحوا بالاسلحة المادية التى يتسلح بها المبشرون ، ولكن عليهم أن يتسلحوا بسلاح الثقافة وسعة المعلومات ، وهم للاسف لم يفعلوا ، ومازال الاسلام فى كل بقعة بحاجة إلى الدعاة .

منهج الدراسة التبشيرية

بينا فيما سبق أن التبشير والاستشراق صنوان ، وأنهما يشتركان فى مواد دراسية كثيرة ، ولكن الدراسة الاستشراقية أعمق وأكثر تخصصا ، ونوضح هنا مواد الدراسة التبشيرية ، وهى تقوم أساسا على درس الكتاب المقدس ، إلى جانب دراسات تثقيفية غير متخصصة ، وقد تستعين — عند تقدم الدارسين — بكتب المستشرقين ، خصوصا فيما يتعلق بالاسلام ، ولا تقبل مدارس التبشير ما لدى المستشرقين من نقد للكتاب المقدس ، وليس بها دراسات اسلامية عميقة ، ولكن عندما يهيأ الدارس للارسال إلى بلد اسلامى أو شرقى يدرس من ديانته وتاريخه ما يهيئه لنجاح دعوته ، ويكفى أن يعرف من الاسلام عمومياته وما يمكن أن يهجم به عليه ، ويقوم اعداده الاساسى على درس الكتاب المقدس كله ثم يتناول درس التاريخ الذى يمس الاحداث التى جاءت فى العهدين القديم والجديد .

وقد لخص القس السابق الاستاذ ابراهيم خليل أحمد ، مواد الدراسة التبشيرية فى كتابه « المستشرقون والمبشرون فى العالم العربى والاسلامى »[1] فذكر أنها ست عشرة مادة يبدأ بها الطالب حياته ليكون قسيسا وراعيا للكنيسة ، وأنها بداية لدراسات على مستوى أعلى يؤهله لدرجة قسيس وراع ، فهى دراسات تكوينية تنتهى إلى تخصص ودرس أعمق وأوسع ، وهذه المواد هى :—

١ — اللغـــة الانجليزيـــة : الأدب والقواعد والقراءة فى أمهات الكتب .

٢ — اللغـــة العربيـــة : القرآن الكريم ، الحديث النبوى ، الاراء المذهبية ، عقيدة الاسلام ، والرد على الاسلام بدراسة كتب المستشرقين .

---

(١) ص ١٤ ، ١٥ — وقد غير اسم الكتاب إلى « الاستشراق والتبشير » وزاد عليه بحوثا جديدة .

٣ ــ اللغـــة اليونانيـــة : لدراسة الاناجيل ــ وتستغرق ثلاثة أعوام متتالية .

٤ ــ اللغـــة العبريـــة : لدراسة التوراه ــ وتستغرق ثلاثة أعوام متتالية.

٥ ــ مقارنـــة الأديـــان : (وهذه طبعا لاظهار ونصاعة المسيحية وبطلان الاسلام) .

٦ ــ مقدمات الكتاب المقدس : وهى دراسة عن أسفاره وحوادثها .

٧ ــ تفسير الكتاب المقدس :

٨ ــ تاريخ الكنـــيسة : دراسة للعالم المعروف عند ظهور المسيحية حتى القرن ١٥ ، (وتوجد كتب شهيرة تتحدث عن نشأة الكنائس تاريخاومذاهب).

٩ ــ التـــاريخ القـــديم : (وهى دراسة الأمم التى عاصرت الأمة العبرانية ــ بدءا من حياة الكلدانيين فى أور ــ والأمم التى كانت تعمر الهلال الخصيب) .

١٠ علـــم الوعـــظ : (ويراد به تعليم طريقة الوعظ والتأثير فى سامعه).

١١ــعلـــم الرعويـــة : أو رعاية الكنيسة والذين يتبعونها .

١٢ــعلـــم المنطـــق :

١٣ــعلـــم النـــفس :

١٤ــعلـــم الخطابـــة : والتدريب على الالقاء ومواجهة الجماهير .

١٥ــالفلسفـــة : وهى تدرس فلسفة عامة ، ولكنها تتركز فى الجوانب الالهية فى الفكر البشرى حتى ظهور المسيحية.

١٦ـ سياسة الكنيسة : وهى دراسة فقهية عن الشريعة، وعلاقات الأفراد والمجتمعات .

هذه دراسة قد تستغرق بضعة أعوام ، وفى المدارس الكاثوليكية يتحتم أن تكون سبعا من السنوات الدراسية ، ومنهجها قريب من هذا المنهج ، ويتضمن أيضا بطلان الاسلام وبيان ما فيه من فساد وسوءات، وهذه مغالطات يتفنن فيها معلموها ، ولا يفطن لها الدارسون لعدم فهمهم اللغة العربية فهما كافيا . ولعدم قراءتهم القرآن إلا الآيات التى يقدمها لهم هؤلاء المعلمون لتفنيدها والرد عليها .

ويقول الاستاذ ابراهيم خليل أحمد فى كتابه السابق : أن من قواعد الالتحاق بكلية المرسلين الأمريكان « أن يكون الطالب منتظما انتظاما داخليا » ، وتوقع هو أن يكون السبب فى هذا مراقبة الطالب للتعرف على أخلاقه ومدى صلاحيته للائتمان على أسرار شعب الكنيسة [1] ولكن هذا أيضا مما يوفر على الطالب زمنا للدراسة والبحث .

ولفت الاستاذ خليل نظرنا إلى حقيقة أخرى وهى أن عدد الأساتذة الأمريكان يعادل ثلثى هيئة التدريس، وأن الهيئة كلها كانت فى كلية أسيوط التى تلقى هو فيها مكونة من أحد عشر استاذا بينما لايتجاوز عدد الطلبة فى الكلية بكل سنواتها ستة عشر طالبا ، ومدة الدراسة النظرية ثلاثة أعوام، ثم يتبعها عام للتدريب على العمل فى الكنائس أثناء الاجازات ، والكلية ــ شأن الارساليات الأمريكية الأخرى ــ تتبع جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية [2] .

وغنى عن الذكر أن هذه المدارس الارسالية تتلقى معونات سخية وأن الطلبة فيها يسعدون براحة كافية فى اقامتهم ، ويجدون المغريات الكثيرة لاعتناق المسيحية أو الثبات عليها .

ولكن مما يلاحظ فى منهج الدراسة أن مواده العديدة ليست كلها سواء فى العناية بها وعمق درسها ، فاللغات اليونانية والعبرية والعربية لا تدرس دراسة عميقة، بينما يدرس التاريخ القديم الذى يتصل بما جاء فى الكتاب المقدس ، وعلم

(١) ص ١٣ ، ١٤ .
(٢) نفسه ١٣ .

اللاهوت وتاريخ الكنائس ... بكثير من العناية ، والدراسة اللاهوتية تأخذ أوجها وطرقا منوعة على نحو ما نجد فى المنهج السابق — إذ نجد تفسير الكتاب المقدس ومقدماته وعلوم الرعوية والوعظ وسياسة الكنيسة .. كلها تدور حول الكتاب المقدس ، وقد قابلت غير واحد من خريجى هذه المدارس فرأيت معرفتهم باللغة العربية قليلة جدا ، وكذلك معرفتهم بالعلوم الاسلامية التى ينص عليها المنهج ، لأنها فى واقعها مقتطفات مما جاء فى كتب المستشرقين عن الاسلام ، والغرض منها تشويهه وطمس مزاياه ، وتحريف آياته عن مواضعها .

وهذا المنهج هو منهج الارساليات الأمريكية والانجليزية ، ولا تختلف عنه مناهج الارساليات الأخرى إلا فى فرعيات قليلة ، وارساليات الدومينكان والفرنشيسكان والجزويت تعنى بدرس اللغة الفرنسية ، وتدرس أيضا اللغة الانجليزية وفى بعض الارساليات تدرس اللغات المحلية ليسهل على داعية التبشير أن يخاطب جمهور الناس بلسانهم، ففى السودان مثلا تعلم اللغة العامية بدلا من العربية الفصحى ، وتعلم فى جوانب أفريقية لغات القبائل من السواحلية والهاوسا واليوربا وما إليها.

ويوكل لكل ارساليات أن تطور مناهجها وتدرس ما تراه مؤديا لنجاحها ، ولكن العلوم الأساسية لابد من درسها .

الباب السابع
أشهر الجماعات التبشيرية

« لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ، متاع الدنيا قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » .

(قرآن كريم)

الجماعات التبشيرية

الجماعات التبشيرية هيئات مسيحية تكونت فى سنوات وظروف مختلفة، وكانت مهمتها نشر الدعوة المسيحية واعداد دعاتها ، وكان الباعث الأهم على قيامها مالاحظه مؤسسوها من سوءات وفساد فى بلادهم ، من جور حكامهم وانقياد رجال الدين لهم طمعا فى المال والجاه ، فرأى هؤلاء أن الحياة الروحية هى الأساس الأول لاصلاح هذا الفساد .

والفرق بين هذه الجماعات والجماعات البروتستانتية ، أنها لم تأت بتعاليم جديدة تخالف ما درجت عليه الكنيسة الكاثوليكية ، وبعض المؤسسين لهذه الجماعات كان عملهم مجرد اعتزال لحياة الناس ، وعكوفا على العبادة ، وحملهم اخلاصهم الدينى على بث أفكارهم بين الآخرين ، ثم تطورت دعواتهم فتعددت وسائلها وكثرت مدارسها فى الشرق وكان يعوقها تضارب بعضها مع بعض ولكنها عملت أخيرا على اتحاد نشاطها رغم اختلاف مذاهبها .

ولما نشأ المذهب الانجليكانى ونقل إلى أمريكا كان نشاطه أوسع من نشاط الآخرين ، لسعة المستعمرات البريطانية ولثراء أمريكا ولقدرتها المادية .

ويبدو أنه من الصعب توحيد هذه الجماعات لأن كل جماعة لها منهج وتفكير خاص فالادفنتست مثلا يحتفلون بيوم السبت ، ولا يمكن أن يجعلوا يومهم المقدس هو يوم الأحد والكاثوليك يختلفون عن الأرثوذكس فى صلواتهم ، وهكذا نجد فروقا كثيرة لايسهل معها اندماجهم ، ولكنهم يتعاونون على نشر المسيحية بوجه ما .

ونذكر هنا أشهر هذه الجماعة ومذهبهم وبه نتبين الفوارق بينهم .

(١) الآباء البندكتيون

The Benedictines

هذه الجماعة أقدم جماعة تبشيرية ، وهى منسوبة إلى القديس بندكت ، ويسمى أيضا بندكت النورسى Benedict of Norsia لأنه من بلدة نورسيا الايطالية وتاريخه غير معروف بدقة ، وحين ترجمت آثار الاب جريجورى الأكبر (جريجورى الأول) وجد بالجزء الثانى منها ترجمة لحياة وأعمال بندكت ، وكان جريجورى محبا له معجبا به ، وهو أيضا من هذه الجماعة ، وفى سنة ١٩٤٩ ظهر كتاب بعنوان « حياة ومعجزات القديس بندكت » من تأليف شخصين اعتمدا على مذكرات جريجورى[١] وهى على أى حال ليست ترجمة كافية .

ولد سنة ٤٧٧ تقريبا ، وتوفى سنة ٥٤٣ ، وهى حياة ليست قصيرة ، وكانت مليئة بالنشاط والتفكير والعمل ، وكان نشاطه كما يبدو من ترجمته فى القرن السادس، وأحيطت حياته بكثير من المبالغات ونسبت إليه أعمال أسطورية .

كانت أسرته ايطالية طيبة معروفة بثرائها وارستقراطيتها، أرسلته إلى روما ليتعلم باحدى مدارسها فقضى بها مدة تزيد على الثلاثين عاما ، تحولت خلالها المدينة من روما الامبراطورية إلى روما البابوية ، وأزعجتها أحداث حربية وسياسية تركت آثارا عميقة فى نفس هذا الشاب ، ففى سنة ٥٤٦ هوجمت بجيوش القوط ، فاحتلتها وصار « توتيلا » ملكا عليها ، وفشل جوستنيان الأول فى استرجاعها ، وترك فشله أثرا بالغا ويأسا عميقا فى نفوس رعاياه ، غير أن البابا بسبب ضياع الامبراطورية ، وكراهة الأهلين لحكم القوط أصبح يمثل قوة روحية خاصة لها نفوذها .

كان « بندكت » بتعاليمه وسلوكه ومنهجه الديرى يمثل حلقة بين الحياة الديرية القديمة فى الجانب الشرقى من روما ، وبين الحياة الجديدة التى لاح فجرها ، وكان

(١) المؤلفان هما : B.R. Auenyt., O.J. Zammermon وحديث هذه الجماعة موضح فى كتب التاريخ وفى Enoyclopdediaof Religion & Ethic, Eneyclopedia Britiinica ومنهما استخلصنا الحديث عن هذه الجماعات فى موادها .

استياؤه من فساد الحياة الديرية قد بلغ مداه ، فآثر العزلة والانفراد فى مكان جبلى منعزل وأقام فى كهف هناك يتعبد . وهذه فى الواقع نقطة غامضة وغير مشرقة فى حياته ، إذ كان قبل هذه العزلة يشغل وظيفة يأتيه رزقه منها ، وهو من أسرة ثرية كانت قديرة على امداده بما يكفيه لكنه آوى إلى كهف فى سفح جبل «إيزورى» يبعد عن روما بنحو ٤٠ ميلا ، فكان يعيش على ما يمده به مقدروه وملتمسو البركة منه وطالبو قضاء الحاجة بدعائه ، واشتهر بين الناس أنه ممن تقضى بهم الحاجات فكثر زواره ومريدوه ، وكثرت تبعا لذلك عطاياهم ، وأقام فى هذا الكهف وعلى هذه الحال ثلاثة أعوام ، وكان حوله أديرة قديمة أخرى ، وكان رهبانها يمدونه أيضا بحاجياته ، وكان المكان ملائما إذ كان بجانب بحيرة صغيرة وبمقربة من بقايا قصر الامبراطور نيرون ، وربما زكى شهرة بندكت ما أبداه من استياء بالغ ونقد مرير للحياة السيئة فى روما ثم اعتزاله إياها ترفعا ورغبة فى البعد عن فسادها[1] ، وأختير رئيسا لبعض الأديرة التى حوله ، فأبدى حماسا ضاق به الاخرون ، فحاربوه وكرهوه حتى أنهم حاولوا التخلص منه بدس السم له ، فترك الدير وعاد إلى كهفه وعثر له تلاميذه على معبد قديم كان معبدا لابولو فى مونت كاسينو — بين روما ونابلى ، وكان الوثنيون لايزالون يحجون إلى هذا المعبد ، فانتقل اليه وأسس به أول دير له ، وهو أول دير يعمل وفقا للتعاليم التى وضعها . وأسرع الرهبان فى اعداد مساحة من الأرض حوله للزراعة طبقا لقواعده ، فأزالوا الاحراش التى بها ومهدوها ثم زرعوها فكفتهم وأمدت جيرانهم أيضا ، وهذه الحقبة من أبرك حقبة وأملئها بالنشاط .

أسس ١٢ ديرا ، وجعل فى كل دير ١٢ راهبا ، وكلها تحت اشرافه . فاشتهر أمره أكثر وقدم عليه كبار القوم من روما ، وقدموا له أبناءهم ليتدربوا رهبانا تحت اشرافه ، حتى أن الملك القوطى زاره أيضا ، وغيظ رجال الأديرة الأخرى منه فهجموا عليه وحطموا معبده فرحل إلى الجنوب ولكن بقى نشاط الأديرة الاثنى عشر مستمرا .

ذهب هو إلى قمة جبل بين روما ونابلى ، وكان الاقليم لايزال على وثنيته ، أو

(١) فى هذا مجال للموازنة بينه وبين لوثر ورونجلى وبيد وغيرهم من الذين شعروا شعوره .

ولعل الوثنيين كانوا يترددون عليه سرا وخفية من الحكومة [1] ، فأخذ بندكت يبث عظاته وتبشيره بالمسيحية فانضم اليه عدد كبير ، ومن جميل ما حدث فى هذا الوقت أن أخته « سكولا ستيكا » قدمت إليه هناك لتكون راعية مسيحية ومدربة للراهبات ، وقد نجحت فى رسالتها غير أن الموت عاجلها بسرعة ، كذلك زاره ملك القوط حول سنة ٥٤٢ م ، وانتشرت تعاليمه وظلت حية بعده ، وبقى مما شرعه صيام يوم ٢١ مارس ، ويصوم أتباعه أيضا يوم وفاته ، وهو بحساب الكنيسة الرومانية ١١ يولية سنة ٥٤٧ ، فهو قد عاش بوجه التقريب ٧٧ عاما .

ويلاحظ فى حياة هذا القديس أنه كان فى منهجه الديرى شديد التأثر بحياة الرهبنة ، التى كانت شائعة فى عصر المسيح والتى كشفت عن تعاليمها وطقوسها لفائف البحر الميت ووادى القمر ، ولعلها هى التى وجهته هذه الوجهة التى خالف بها الدير ما كان سائدا بين الأوروبيين ، وواضح أيضا أثر الاحداث السياسية والاجتماعية التى سادت فى عصره فهى التى اضطرته إلى العزلة والتقشف ، ونفوره من الفساد فى مجتمعه جعله يركز دعوته على العفة والطهارة .

وحياة الرهبنة فى الشرق التى أشرنا اليها كانت ذات نظام خاص قريب من نظام بندكت غير أنه أدخل عليه تعديلات خاصة ، ولكن نظامه يوحى بأنه كان على علم بذلك النظام ، وكان من المعروف أنه نسخ قوانين رهبان الصحراء .

ومن التجديدات التى أدخلها أنه سمح للرهبان أن يلبسوا ملابس تلائم الجو الذى يحيط بهم ، وكانت لهم قبله ملابس معينة لايلبسون غيرها كذلك أباح لهم أن يتناولوا طعاما كافيا ، وأن يناموا نوما كافيا حدده ما بين ٧,٣٠ — ٨ ساعات ، وقسم اليوم لسكان الدير ثلاثة أقسام متساوية تقريبا كما يلى :—

من ٥ — ٦ ساعات للاعمال الدينية من صلاة وتراتيل وسماع عظات أو القائها .

(١) معلوم أنه بدءا من عهد الامبراطور جراشان (٣٧٥ — ٨٣) كانت الوثنية قد تعرضت لحرب عنيفة ، وبلغت أشدها فى عهد أركاديوس (٣٩٥ — ٤٠٨) الذى أمر بهدم المعابد الوثنية ، وبحماس هذه الحركة أغلق جستنيان مدارس الفلسفة اليونانية فى أثينا لما بها من تفكير وثنى ، وقضى على جميع معابدها تقريبا فى سنة ٥٢٨ ، وكان معبد مونت كاسينو الذى أوى اليه بندكت مما خفى على الحكومة وكان ايواؤه اليه سنة ٥٢٩ م .

٥ ساعات للاعمال اليدوية سواء فى عمل المنزل أو الحديقة أو المزرعة .. الخ.

٤ ساعات لقراءة الكتاب المقدس والكتب الدينية .

وبذا كان رهبان الأديرة البندكية يعملون يوميا ما بين ١٤ ، ١٥ ساعة

أما مبادئه العامة فكانت تقوم على ثلاثة أشياء هى :ـــ

١ ـــ انكار الذات ، وبه يعمل البندكتى لصالح الآخرين حتى ولو آذوه ، ويقتضى ذلك الفقر وعدم ملكية شىء حتى الأدوات الصغيرة .

٢ ـــ الطاعة ، وهى تقتضى طاعة القوانين الدينية ، وطاعة رئيس الدير .

٣ ـــ العمل ، وبه يقوم الراهب بأى عمل مفيد ، حتى لايكون الرهبان عالة على غيرهم بل كان الآخرون يستفيدون من نتاجهم .

وكان الشخص البادىء فى الرهبنة وحياة الدير يقضى عاما كاملا فى التدرب على حياة الدير ، ثم يقسم الطاعة الكاملة لقوانينه ولرئيسه الذى يمثله ، ويقتضى هذا القسم أن يكون الراهب فى ديره إلى الأبد ، ومن نظام الدير أن ينتخب الرئيس بواسطة الرهبان وتظل له رياسته إلى الأبد أيضا ، وهو يختار مجلسا للشورى ولكن لايلزم بالأخذ برأيه ، لأن الرئيس لايلزم بشىء الا بقوانين الله وقوانين الجماعة الأصلية ولكن على المجلس والرهبان أن يذكروه دائما بمسئوليته أمام الله ، عن نفسه وعن الرهبان الذين معه ، وله وحده حق تعيين العمال والموظفين الذين فى الدير ، ومن المعروف أن رهبان الدير الأول ـــ دير مونت كاسينو ـــ بدأوا أول ما نزلوا به بممارسة هذه الأعمال ونفذوا هذا النظام .

وكان يلحق بكل دير مدرسة لتعليم المسيحية ومعارف أخرى ، وكان الرهبان البندكتيون أول من عنى بدرس اللغة العربية والنقل عنها ، ثم درسوا بعد ذلك لغات شرقية أخرى ، وفى هذا الوقت لم يكن قد خطر ببال الفاتيكان ولا الأوروبيين أن يعنوا بهذه الدراسة ، ولا كان اقبال عليها من الأوروبيين ، ولكنها درست بعد ذلك لغرض الاستشراق والتبشير .

ومن نظام هذه الأديرة أن يظل رهبانها عزابا ، وأن يكونوا متساوين فى كل شىء ويتحلون دائما بالفقر والطاعة ، وأن يعتبروا العمل عبادة .

ظهر الدير البندكتى نموذجا حديثا يمتاز بالنظافة والجد فى العمل والعبادة وعلى هذا النظام قامت حركة الاصلاح الكلونية ، وبه دخلت المسيحية انجلترا ، وقامت بها أديرة بندكتية ونشاط تبشيرى على نظامها ، واليه ينتمى البابا جريجورى الأول ، إذ كان أحد الرهبان البندكتيين ثم أختير بابا الكنيسة كلها ، وهو الذى أرسل أوغسطين الصغير على رأس بعثة مكونة من تسعة وثلاثين شخصا إلى انجلترا لنشر المسيحية ومبادىء البندكتية بها ، وكان اوغسطين مقدم الدير الذى أنشأه جريجورى فى روما فاختاره لهذه الرحلة ذات الأثر فى انجلترا وايرلاند ، وهو الذى أسس دير كانتبرى Counter Beury وشيدت مكانه الكاتدرائية الشهيرة التى لاتزال إلى الآن مركزا لتخريج الدعاة والمبشرين الانجليكان .

وبنشاط هذا الدير ودعايته حول عدد من المعابد الوثنية إلى كنائس بدلا من هدمها كما فعل الرومان من قبل . وبدعوة أوغسطين الصغير دخل ملك كنت Kent المسيحية ، فمنح رجال الكنيسة أراضى وأعطى رجالها أعطيات ، وتبعه كثرة من رعاياه فى دخول المسيحية .

ولهذه الجماعة الآن ارساليات ومراكز تبشير واسعة فى الشرق .

(٢) الفرنسيسيكان

هذه الجماعة من أشهر مدارس التبشير الآن فى الشرق الأوسط ، وهى واسعة النشاط فى أنحاء العالم كله، وينتمى اليها رجال بارزون فى الدراسات الشرقية والفكر الدينى ، وهى فى بدايتها قامت على اقلال بالغ فى العلم والمال ، ثم مازالت تنمو وتمتد حتى وصلت إلى هذا المركز العالمى .

كانت بدايتها فى أوائل القرن الثالث عشر ، ومؤسسها الذى تنسب اليه هو فرنسيس الآسيزى (١١٨١ — ١٢٢٦) [١] ، وكانت أول أمرها جماعة من الفقراء يعيشون على التبرعات والصدقات ، وتسموا باسم « الاخوة الصغار »[٢] .

سمع فرانسيس بدعاة الرجوع إلى الحياة البسيطة تشبها بالمسيح ، حياة الفقر والتوبة والتبشير بملكوت الله ، فصادفت هوى من نفسه ، وقام يدعو اليها فى سنة ١٢٠٩ م فانضم اليه عدد من الأتباع ، فألف لهم قانونا مبسطا مختصرا ، سمى بعد ذلك باسم « القانون الأول » لأنه غير وجاء بعده قانون ثان وثالث ، وفى سنة ١٢١٠ أصطحب معه أحد عشر تابعا وذهبوا إلى روما لطلب تأييد البابا ، فوافق على الجماعة وزعامة فرنسيس موافقة شفوية ، ولم يكن لهم حينئذ مكان يجتمعون فيه ، فكانوا يعقدون اجتماعاتهم فى كنيسة صغيرة ، وأخذ عددهم فى النمو والزيادة وعرفت الجماعة ، فقام أبناؤها بنشر دعوتها فى أيطاليا كلها وأيضا خارج ايطاليا ، وكانوا يعقدون اجتماعا سنويا فى احدى كنائس آسيزى Assisi .

كانت دعوة فرنسيس صدى ورد فعل للون الحياة التى كانت سائدة فى شمال ايطاليا ووسطها ، والتيارات الفكرية والأحاديث التى تناقلها الناس عن البابوات وانحراف الكنيسة وهذا سر استجابة الناس بسرعة لدعوته وانضمامهم إلى جماعته وسر توالى الأمدادات عليه ، واضطر البابا أمام المناقشات الكثيرة والرجاءات أن يعين من

(١) Francis of d'Assisi نسبة إلى هذه البلدة الايطالية .

(٢) راجع المادة فى دائرة المعارف البريطانية واسمهم بها هو Mendicent-Friars ومعناها « الاخوة المتسولون » وراجع المادة أيضا فى دائرة معارف الدين والاخلاق ، ودائرة المعارف الأمريكية .

هذه الجماعة قسسا ومبشرين بصفة رسمية ، ولكن فرنسيس لم يعترف بالبابا ولا بقراراته ، وانكر مكانة البابوية الرسمية ، ثم أخرج قانون الجماعة الثانى فكان شاقا مستحيل التنفيذ ، فأخرج القانون الثالث الذى سمى « القانون المنقح » ، وهذا أيده البابا واكتسبت به الجماعة رسمية أقوى ، وكان اصداره فى سنة ١٢٢٣م، وأخيرا فى سنة ١٢٢٦م كتب فرنسيس وصية ظلت دستور الجماعة إلى اليوم ، وفيها أعاد تأكيد إيمانه العميق بالفقر وانكار امتيازات البابا وقداسة قوانينه ، كما أكد أنه سمع النداء المقدس ، يأمره أن يقفو المسيح فى فقره الذى ذكرته الاناجيل ، وأن يحاكيه فى بساطة عيشه ، وأعلن أنه استجاب لهذا النداء ، وتبنى هذه الحياة الزاهدة وشارك فيها الآخرين ، ودعا أتباعه إلى تبنيها رجالا ونساء ، وكانت القديسة كلار Clare من البارزات فى جماعته النسوية ، فخصها بمزيد من الوصاة ودعا رفيقاتها أن يكن معها وقال أنها دعوة موجهة لكل شخص حسن النية صافى الضمير ذكرا أو انثى ، وأعلن أن جماعته جديدة ذات منهج جديد وأنه لايمكن أن يتبع الديرية السابقة .

من هذا يتضح أن فرنسيس لم يكن يهدف مبدئيا إلى تكوين فرقة دينية ، ولكنه كان يعمل من أجل اصلاح دينى ويرى وجه الاصلاح فى الفقر والبساطة، وقد كبرت الهيئة وتعددت مدارسها وفروعها ، ولكنها لم تنس قانونها الأول ، وأن لم تحرص على اقامته كاملا . ولهذا انشق عليها جماعة كونوا فرعا أو فروعا بقدر ما رأوا من الأخذ من هذا القانون وما يدعون منه ، فظل القانون رغم الانشقاق هو الدليل المهتدى به .

وتقاربت الفروع أحيانا ، ولكن هذا الانشقاق ظل عسير الالتئام طوال الأربعة القرون الأولى من حياة هذه الجماعة .

وكان فرنسيس قبل دعوته وتكوينه هذه الهيئة يمتاز بفكر انسانى يميزه عن دعاة الصليبية المعاصرين له ، فقد كان الصليبيون يجرون على فكرة آمنوا بها ، وكانت حروبهم تنفيذا لها ، وهى أن المسلمين كفار يجب أن يستأصلوا من الدنيا ، فان لم يقض عليهم نهائيا فليكونوا عبيدا أرقاء تحت أيدى الصليبيين، لأنهم بسبب كفرهم مقدور لهم أن يصيروا إلى جهنم ، فاذا سمح لهم بالبقاء فان ذلك ليكونوا فى

خدمة المؤمنين المسيحيين . وقليلون جدا عارضوا هذه الفكرة منهم روجر بيكون Roger Bacon وكان توما الاكويني يرى أن الحياة حق للمؤمنين وللكفار أيضا ، ولابد أن تحترم أرواحهم ، وهذا الرأى كان لفرنسيس الاسيزى أيضا ، ويرى أنه بدلا من ابادة الكفار يدعون إلى الهداية والايمان ، وأنهم لم يكفروا إلا لأن الانجيل لم يقدم اليهم فى صورة مبسطة تبدى جماله وتجتذبهم اليه ويذل هو من جانبه محاولات لهذا الغرض ، وقام بثلاث رحلات فى الغرب والشرق ، ذهب إلى مراكش سنة ١٢١٢ وإلى أسبانيا ١٢١٤ ، ولكن الرحلتين معا باءتا بالفشل ولم يتنصر فى أى من الاقليمين واحد من المسلمين ، وفى سنة ١٢١٩ م ، خلال الحملة الصليبية الخامسة على مصر ، ذهب مع المحاربين وطلب مقابلة السلطان المملوكى ، واعتبرت هذه المقابلة نجاحا كبيرا له ، ولم يبد السلطان له ازدراء ولا تعاليا عليه. وطبعا لم يتنصر أحد لكن هذا كله كان تطبيقا عمليا لمبادىء جماعته ، ومنذ هذا الوقت ولمدة قرنين تاليين كانت قيادة التبشير بيد الفرنسيسكان والدومينكان، حتى ظهرت جماعة اليسوعيين (الجزويت) فى آخر القرن ١٦ ، وأوائل القرن ١٧ (١) .

أما عن نظام هذه الجماعة التكوينى فأنا لا نجد لها كما عند البندكت أو الدومينكان دستورا يبين نظام الرياسة أو العضوية فيها ، ذلك أن فرنسيس كما ذكرنا لم يكن يريد مبدئيا تكوين جماعة ، وقد ترك موته أتباعه فى حيرة وربكة ، لعدم وجود قانون ، والقانون الذى وضعه ونقحه مرتين كان يمكن فقط أن يكون هيكلا عظيما مجردا لا تقوم عليه الحياة ، فلم يكن من يفهم شرحه غيره هو والقسيس العام الياس الكرتونى (Elias of Carton) أحد الذين شغلوا مركزا رياسيا فى الجماعة ، أو تدرب عليه ، لهذا قامت المشادة بين الجماعة إذ أراد بعض منهم أن يتحولوا من مجرد جماعة روحية وأخوة متعبدة إلى هيئة منظمة ذات قانون ، بينما أصر الآخرون على البقاء على ما كانوا عليه ، واعتبار طيف القديس فرنسيس محلقا فوقهم منارا للعقيدة التى تعلم وتمارس من الاتباع الكثيرين ، الذين يعلمون الآخرين حب الفقر والاخلاص للمسيح ، وظلت هذه مشكلة بين الفرنسيسكان إلى زمن طويل بعد ذلك .

وكان الياس الكرتونى بحكم بروزه فى حياة فرنسيس صاحب المكانة الأولى فى

---

(١) أنظر Neil ص ١١٦ .

الجماعة ولكنه كان يتسم بقلة الثقافة وبنزعة استبدادية أغضبت الأعضاء ، فكان هذا مما عاق سير الجماعة لمدة غير قصيرة ، وانقذ الموقف بتدخل بعض محبى الهيئة بعد عشرين عاما تقريبا إذ تقدم أحد الانجليز فوضع للجماعة قانونا استمد بعض مواده من جماعة الدومينكان ، فجعل بعض القسس يشرفون على المقاطعات والذين فرقهم يشرفون على الاقاليم ، وجعل اجتماعهم ينعقد ثلاث مرات كل عام ، كما استعار نظام الدومينكان التعليمى أو شيئا كثيرا منه .

أما الذين لم يكونوا يريدون هذا التنظيم فانفصلوا نهائيا عن الجماعة ، ولم يشاركوها مجالسها ولا اجتماعاتها ، وكونوا لهمّ مجموعة مستقلة ، وبهذا صارت الجماعة جماعتين .

وحدث تطور أو انقلاب آخر فى القرن نفسه ذلك أن الاقبال الواسع البعيد على هذه الجماعة دعا إلى دخول أساتذة من الجامعات وتلاميذ ناضجين لهم ، فحولوا الجماعة الساذجة البسيطة إلى هيئة دينية مثقفة وتحول الاخوة الصغار إلى أخوات كبار ذوى نظام وقوانين ، بينما ظل الآخرون يعتمدون على الممارسة الروحية وحدها ، وكانوا بهذا أقرب إلى قلوب العامة ، وكانت لهم رياسة ولكنها ليست بالانتخاب كما يفعل رفاقهم ، بل يكفى أن يتلقوا توجيها من الممتازين من عبادهم ، أشبه شىء بالفتوى التى يبديها من له دراية وكان مما حببهم إلى الشعب أنهم أبقوا على الحال التى كان عليها فرنسيس ، من ايثار الفقر والبساطة والاخلاص ، فهم ظلوا اخوة صغارا كما بدأوا ، وأحبتهم أيضا الكنيسة والبلاط الملكى .

واتسع الشقاق بين جماعتيها بما بدا من تذمر أتباع الجماعة خارج ايطاليا ، خصوصا الذين كانوا وراء جبال الألب ، فهؤلاء كانوا يرغبون فى مزيد من التعليم ، فزادالموقف تعقيدا بين المثقفين والطبقة الدنيا ومعها الكنيسة ورجال القيصرية ، ثم بينهم — وبين سكان الاقاليم وبذا تعرضت الجماعة إلى شىء كثير من القلق .

فى هذا الجو ظهر القديس بونا فنتورا (Bona ventora) الذى يوصف بأنه المؤسس الثانى للجماعة فوضع تفسيرات مقربة لوصايا فرنسيس لاءمت بين النزعتين المتباينتين .

وانتشرت جماعات الاخوة الصغار فى أنحاء أوروبا ، بينما كانت ارساليات المثقفين قد وفدت على الشرق فى أفريقية وسوريا . أما العواصم التى بها جامعات مثل باريس واكسفورد .. فقد تحولت بيوت الاخوة فيها إلى مدارس لاهوتية ، ودرست بها فلسفة الأديان ، وأصبحت أهتم ما يتجه اليه الدارس الأوروبى . ونمت الجماعة عددا من كبار الجامعيين رجالا ونساء ، وبذا اقتربت من جماعة الدومينكان التى تعنى بالثقافة أكثر مما تعنى بالعبادة .

ويعتبر هذا الموقف مثالا واضحا لسلطان الدين ، وأصالة فطرته ومدى سيطرته على مشاعر الناس ، حتى نجد كبار الجامعيين يرتمون فى أحضان هذه الجماعة التى قامت على الفقر والتأخر الثقافى .

وفى هذا الوقت كانت دراسة الفلسفة الارسطية قد أصبحت موضع نقاش فى تفسيرها وأدى درسها إلى خلاف عميق بين الفرنسيسكان والدومينكان ، وظل هذا الخلاف شديدا ، مع أنه خارج عن رسالة الطائفتين .

ونجم بجانب ذلك خلاف داخلى بعد موت « بونا منتورا » بين الروحانيين الذين يرعون وصايا فرنسيس بحرفية ودقة وينكرون كل مشروعات البابا وبين الديريين الأقل صرامة وأكثر ملاءمة بين القانون والحياة ، وظل هذا الخلاف أيضا طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وقد صبغ الفكر والادب والفن فى العصر الوسيط بألوان خاصة متأرجحة بين هذه المذاهب .

ومن ميزات هذه الجمعية أنها كونت تيارا علميا نشيطا فى الشرق ، وامتدت مدارسها ومكتباتها فى معظم بلاده ، وأعمالها التبشيرية كثيرة وناجحة ، ولها بمصر الآن عدد من المدارس فى القاهرة والاسكندرية وطنطا والمنصورة ودمياط وسوهاج ومحافظات ومدن أخرى ويقوم بالتعليم بها رهبان وراهبات وأساتذة كبار وتمتاز مدارسهم بالجد وحسن النظام ولكنها تعنى بتعليم اللغة الفرنسية أكثر ، وقد عنوا من زمن بعيد بتعليم اللغة العربية واللغات الشرقية الأخرى ، وهذه الفروع التى فى مصر ومعظم بلاد الشرق مما يتبع الجماعة الديرية وتوجد هيئات أقل للجماعة الروحانية .

وفى الجامعات الأوروبية التابعة لهؤلاء فى الشرق تنشط أعمال استشراقية

ودراسات عربية لم يكن الشرقيون بقادرين عليها ، ولهم منذ سنة ١٩٣٩ كلية لاهوتية بالقاهرة أمتدت لها الآن فروع كثيرة ، ونشاطهم الاستشراقي مقسم إلى مجموعات لكل مجموعة جماعة متخصصة ، بعضها للتاريخ وبعضها للتراجم ، وبعضها لأعمال المكتبات ، وأعمال المكتبات ذات تخصصات وفرع أيضا .

وقد أخرجوا مصنفات عديدة عن الشرق بلغات مختلفة واستعانوا بالعلماء ذوى المقدرة فى كل علم وفى كل بلد ، ودراساتهم وكتبهم عن الشرق أفادت المبشرين والسياسيين والباحثين وطلاب المعرفة ، كما نشروا وحققوا مخطوطات كثيرة ، بل أن نشاطهم فى أحياء التراث يضع لهم فى أعناق الشرقيين دينا ثقيلا .

وفى سنة ١٨٤٦ م أسسوا أول مطبعة عربية فى القدس ، وجماعة الفرنسيسكان يعتبرون أنفسهم مسئولين عن رعاية البلاد المقدسة ، ومع تنافس الجمعيات المسيحية على هذا العمل يبدو أن هذه الجماعة منذ سنة ١٢٤٩ ، أى بعد قيامها بنحو أربعين سنة اضطلعت بالعبء الأكبر من هذا العمل وظلت معنية به . وفى سنة ١٨٥٠ م أسست بالقدس مركزا لدراسة الكتاب المقدس ، ثم انشأوا له مكتبة ملحقة به ، وهى تحوى الآن ما يزيد على ٧٠٠٠٠ مجلد ، ولهم مجلة الأرض المقدسة ودراساتهم تتركز حول تعليم المسيحية وطرق التبشير بها .

ومنذ سنة ١٩٥٤ انشأوا بالقاهرة مركزا للدراسات الشرقية ، وبه مكتبة كبيرة الآن تحوى كتبا اسلامية ، ومخطوطات نادرة ، ونصوصا من اللغات الشرقية الأخرى ، وأعانهم على نمو هذه المكتبة الحديثة استعانتهم بتصوير المخطوطات من مختلف المكتبات ، واستعمالهم الأجهزة الحديثة ، وهذا المركز وثيق الصلة بالسفارات الأوروبية جميعا وبالسفارة الأمريكية وبالمكاتب الثقافية التابعة لهذه السفارات .

وصدر عن هذه الجماعة فى القدس وبيروت وغيرهما كتب وبحوث لاهوتية تقوم على الفكر الاسلامى ، وعلى أعمال وآراء فلاسفة المسلمين ومقالات الاسلاميين فى التوحيد .

وأصدر الاب روهمر (Rohmer) كتابا عن « العقيدة الفرنسيسكانية » ــ وفيه

نص لابن رشد ، كما أخرج « نظرية التجريد فى المذهب الفرنسيسكانى » .

وتعنى هذه الجماعة ـــ شأن الدينيين من اليهود والمسيحيين ـــ بالجوانب ، التاريخية الشرقية خصوصا الأرض المقدسة ، وتاريخ الهلال الخصيب القديم ، كما تعنى بتاريخ الكنائس وأعمالها ورجالها ، وأخرج غير واحد من هذه الجماعة كتبا بعنوان « ذكريات موسى فوق جبل مؤاب » وكتبا أخرى بعنوان « النصرانية والاسلام » ، وأخرجوا فهارس مبوبة عن الموضوعات والاعلام والبلدان والقبائل ... وهكذا ... فسهلت مهمة الباحثين وكتاب الرسائل والمؤلفين ، ولا غنى للباحث الاسلامى الآن عن هذه الفهارس لأنها تحوى أثارا اسلامية كثيرة منوعة ، ولا ينبغى أن يكون ما فى نتاج هذه الجماعات كلها من طعن على الاسلام صارفا عن قراءتها والاستفادة منها .

وكان بين الدومينكان والفرنسيسكان تنسيق وتوزيع لاعمال الدعاة ، وارشاد الحجاج الوافدين على الأرض المقدسة ، فاختص الفرنسيسكان بارشاد من يفدون على فلسطين ، واختص الدومينكان بمن يقصدون سوريا ومصر ، وكانوا ينشرون دليل الحاج وفيه أبجدية عربية كاملة وطريقة للنطق بها بحروف لاتينية ، وكان هذا أول طباعة عربية تعرفها أوروبا سنة ١٤٨٦ .

ولكلتا الجماعتين الآن ارساليات عديدة ، ومن هذه الاعمال يبدو اتحاد التبشير والاستشراق فى هذا الجانب الثقافى . كما يبدو أثر الفلسفة الاسلامية وخصوصا فلسفة ابن رشد فى الجماعتين كلتيهما ، وقد كان توما الاكوينى مع معارضته ابن رشد مستفيدا منه ، وتقبل أو اعتنق كثيرا من أفكاره .

(٣) الآباء الدومينـــكان

The Dominicans

أسس هذه الجماعة القديس دومينيكوس (١١٧٠ — ١٢٢١ م) سنة ١٢١٦ م وكانت تحمل اسم الاخوة الوعاظ ، وكانت مهمتهم الأولى هى دحض البدع وإزالة الخرافات بطريق العلم والاستنارة العقلية ، ولذا عنيت بالتعليم العالى ، فقدمت لأوروبا قواعد ثقافية هامة ، كانت ذات أثر فى بناء نهضتها الحديثة ، ومنذ القرن السابع عشر بدأوا يؤسسون لهم فروعا فى الشرق وينشئون بها مكتبات ومعاهد ، وفى أواخر القرن التاسع عشر انشأوا مكتبة الكتاب المقدس ، ومجلة الكتاب المقدس بالقدس، ثم معهد الدراسات الشرقية بالقاهرة فى أعقاب الحرب الثانية سنة ١٩٤٤ ونظموا له مكتبة ، وفى سنة ١٩٤٥م أصدروا مجلة باللغة الفرنسية تسمى Melanges de L'institute « مجلة المعهد الدمينكانى للطلبة الشرقيين أو Dominican d'eludes oriental (منوعات المعهد الدومنكانى للدراسات الشرقية) ، ومكتبة المعهد بالقاهرة كبيرة منظمة على الطريقة الحديثة ، وتحوى عديدًا من الكتب العربية وجميع المجلات الاسلامية من مختلف أنحاء العالم تقريبا .

ورسالة هذه الجماعة هى القضاء على البدع والهرطقات ، أو الضلالات التى تشوه جمال المسيحية ويدخل حرب الاسلام فى أعمالها ، لأنه ينفى ألوهية المسيح ويعتبره بشرا، ورغبتها فى نشر اصلاحاتها حملتها على الاشتراك فى الحروب الصليبية ، والتدخل فى بعض الشئون السياسية ، ففى سنة ١٢٤٩ ، أرسل لويس التاسع (١٢٢٦ — ٧٠ م) هدايا إلى ملك التتار حملها وفد كان على رأسه الراهب الدومينكى اندريه لونجيمو (André Longimo) ومن بين هذه الهدايا قطعة من الصليب المقدس ، وصورة للسيدة العذراء ، ونماذج لعدد من الكنائس[1] وفى

(١) لويس التاسع كان شابا مجازفا مدفوعا بتيار الدين ، وكان شديد الحماس لمسيحيته وقد قام بحملتين صليبيتين أحدهما إلى مصر استولى فيها على دمياط سنة ١٢٤٩ ، وفيها وقع أسيرا فى أيدى المسلمين ، ولم يطلقوه إلا بفدية ، وأعد لحملة أخرى على غرب أفريقية — عند تونس ، وهناك وقع من فوق جواده فمات سنة ١٢٧٠ م . وقد كان شديد الاهتمام بتنصير التتار ، وعلق عليهم أملا كبيرا فى القضاء على

الحديث عن التبشير فى الهند والصين وأفريقية ذكرنا أطرافا من نشاط هذه الجماعة، وينتمى اليها من العلماء الاب جاك جوميه Jacque Joumé الفرنسى، وهو مستشرق معروف ومبشر معروف ،وله عدد من الكتب الاسلامية منها « تعليق المنار على القرآن الكريم » ، وهو بحوث تتعلق بتفسير المنار الذى كان يخرجه الشيخ رشيد رضا وله : « الاتجاه الحديث لتفسير القرآن بمصر » ، « المحمل وقافلة الحج المصرية إلى مكة من القرن الثالث عشر إلى القرن العشرين » — ونشر بمعاونة الاب قنواتى — رئيس الدير الدومينكانى ومعهد الدراسات الشرقية بالقاهرة الآن وله « ورق بردى مسيحى » باللغة العربية ، وترجم إلى اللغة الفرنسية مقالا للمرحوم مصطفى صادق الرافعى عنوانه « قرآن الفجر » وله عدد من المقالات الاسلامية وترجم ثلاثية نجيب محفوظ .

ولجوميه اهتمام كبير بالاسلام عامة وبمصر خاصة ، وهو قد زارها سنة ١٩٤٥م واهتمامه كما تدل هذه الأعمال ليس قاصرا على الناحية الدينية .

ويلى الاب جوميه فى علماء هذه الجماعة الاب دى موركاى ، وهو يصغر صاحبه بثلاثة أعوام فقط ، فهما متعاصران ، وهو فرنسى أيضا تخرج فى جامعة السوربون وتخصص فى درس فلسفة توما الاكوينى ، وكان سنة ١٩٤٦ عضوا بالمعهد الدومينيكى للدراسات الشرقية بالقاهرة ، وملحقا غير متفرغ فى المعهد الفرنسى للاثار الشرقية بالقاهرة فى سنة ١٩٥٦م وقد شرح ونقل إلى الفرنسية عددا من الكتب الصوفية — عربية وفارسية ، ومؤلفاته كثيرة .

والنتاج الاسلامى الذى صدر عن هذه الجماعة كثير متنوع ، وكلها بمكتبة الدير بالقاهرة .

وبوجه عام هذه الجماعة أنجبت عددا من المستشرقين وقامت بدراسات اسلامية كثيرة ونشاطها التبشيرى يقوم على الدراسة والبحث ، وهذا ما تمتاز به

المسلمين فى الهند ، وحماسه الدافق لنشر المسيحية والقضاء على الاسلام مما أغرى هذه الجماعة بمشاركته ، ولأنه ملك وتحت يده مالية دولة ولديه امكانيات تغرى اتباعه .

أنظر Neil p. 116 ذكرناه فى حديثنا عن الاسلام فى الصين والهند . وفى مجلة « الأمة » القطرية عدد ٢١ من السنة الثانية مقال للواء الركن محمود شيت خطاب يتصل بجومية ويستحق أن يراجع . وانظر كتابنا « معركة التبشير والاسلام » .

عن جماعة الفرنسيسكان ، فهى تعتمد على الثقافة الواسعة ، وترى أن التبشير الذى يعتمد على الثقافة هو الوسيلة الناجحة لهداية الكفار إلى الأناجيل وخصوصا المسلمين .

وفى سنة ١٣٠٠ كونوا « جمعية الاخوة المقيمين فى الاجزاء الخارجية وبين الكفار للهداية إلى المسيح » ، وهو اسم طويل يصعب أن يكون عنوانا ، ولكن هكذا وجدناه .

ومن الأعمال التى اشتهرت بها هذه الجماعة جهادها فى تثبيت المسيحية فى أوكرانيا وهى الآن من أقاليم روسيا ، وفى أوائل القرن الثالث عشر هبط على هذه الأراضى قوم من أصل تركى . أو من فروع التركستان الكثيرة التى كانت تفد من أواسط آسيا وكانوا يعرفون باسم الكيومان (Cuman) ، وكانوا يمثلون تهديدا خطرا على جيرانهم ، وكانوا طبعا وثنيين ، ولم تهتم بهم أو تعمل لدفع خطرهم أى من الكنيستين فى روما والقسطنطينية ، ولم تعمل لهم الكنيسة الروسية شيئا ، إذ كانت مشغولة بتثبيت نفسها فى الشمال والشرق وكانت تتعرض لمناوشات ممن حولها ، وكانت القسطنطينية مهددة بغزو الاتراك العثمانيين ، وفى هذا الوقت الحرج بدا الدومنيكان قوما مخاطرين يحملهم اخلاصهم على التضحية فى سبيل دعوتهم ، فأرسلوا جماعات منهم تدعو « الكيومان إلى المسيحية » ، فقتلوا منهم كثيرين ، واسترقوا آخرين ، ولكن الجماعة ثابرت ، وأخيرا فى سنة ١٢٢٧م تنصر أمير يدعى بورت Bort ثم أسست أبروشية هناك ، وكان أول أسقف لها من الدومينكان ، وكان من هنغاريا ووضعت الأبروشية تحت توجيه البابا مباشرة ، وذلك قطعا لمطامع هنغاريا أن تستقل بها وبالدعوة فى هذه البلاد .

وهذا مما جعل للجماعة اسما ووضعها بين المجاهدين المشهورين ، ولكن أعمالها الأخرى ليست قليلة — والميزة الكبرى التى تتفوق بها هذه الجماعة على الفرنسيسكان هى اهتمامها بالثقافة واعتمادها عليها .

ولا ينسى المسلمون لهذه الجماعة دورها الوحشى فى ابادة مسلمى أسبانيا فقد أشار الراهب الدومينكى « بليدا » بقطع رقاب العرب جميعا ، سواء فى ذلك من تنصر ومن أصر على اسلامه ، لأنه أتهم الذين تنصروا بالنفاق وأن صدق إيمانهم

ليس معروفا وقتلهم جميعا بالسيف ينجى من شرورهم ثم يحكم الله بينهم فى الدار الآخرة ، فيدخل صادق الايمان الجنة ويدخل المنافقين النار ، وقد أيده رجال الاكليروس فى هذا الاقتراح لكن الحكومة خشيت مغبته ، فلجأت إلى حيلة أخرى ، فأمرت باجلاء المسلمين من البلاد ثم هوجموا فى الطريق بعصابات مسلحة، فأبيد أكثرهم وبقيت قلة سيقت إلى السفن لترمى بهم إلى شواطىء البحر وأبدى « بليدا » ارتياحا لهذا العمل ، وأشرف أيضا على قتل مائة مسلم من قافلة كانت مهاجرة إلى أفريقية وكانت تتكون ١٤,٠٠٠ مهاجر مسلم .

ولا نظن هذه النزعة الوحشية باقية فى رجال الدومينكان إلى الآن ... ولكنهم بوجه عام يمتازون بكراهة الاسلام والمسلمين .

(٤) اليسوعيون (الجزويت)

هذه الجماعة الآن من الجماعات التبشيرية النشيطة ، ولا يكاد يخلو إقليم فى العالم كله من ارسالياتها ، وهى تقوم على مجموعة من رجال الكاثوليكية منوعى الثقافة ، أساتذة فى الجامعات والمعاهد العليا ، معلمين ومرسلين ، وكلهم من ذوى الثقافة الواسعة . وهى بدأت أساسا فى جامعة باريس إذ كون عدد من الطلبة الاتقياء فيها جمعية دينية لنشر دعوة المسيح وتعاليمه ، ولم يكونوا هيئة دينية رسمية ولا خاضعة لقوانين الكنيسة ولكن اعترف بها فيما بعد ، وكان البابوات يوافقون على قراراتها ، ثم نمت بسرعة وصار لها هذا الكيان الفكرى الكبير .

ومؤسس هذه الجماعة هو القديس اجناتياس لويولا Ignatus of Loyola (١٤٩١ ـــ ١٥٥٩) ، واسمه الاساسى هو انجو Ingo .

كان جنديا أسبانيا محاربا ، وكان أبوه ذا رتبة فى الجيش الاسبانى وأسرته أسرة كريمة ثرية ، وفى حصار « بامبليونا » أصيب بجرح عاقه من الحرب والزمه المستشفى للطب . وبينما كان على فراش مرضه وفى دور النقاهة منه قرأ كتابا عن الحياة الروحية وجهه إلى الجهاد الروحى من أجل مملكة المسيح . واعتمد فى جهاده على الأسلحة الروحية وحدها وكان كثير الصلاة كثير التأمل ذا عطف وحنو على الفقراء ويحب مساعدة المحتاجين ، وقد جاد بثروته للفقراء . وأنفق وقتا طويلا يروض نفسه على الطريقة التى يمكن بها أن يخصص باقى عمره لخدمة الجلالة الالهية العظمى ، وكان يلح عليه سؤال نفسه كيف ينفق حياته فى هذه السبيل ، وهداه تفكيره إلى طريقة مكونة من عناصر خاصة هى العلم والفاقة والتأمل والعفة . وهو آثر الفاقة كيلا يرتبط الشخص بالدنيا وتشغله أطماعه فيها عن التأمل والتفكير ، والأمر كذلك فى العفة والبعد عن ملذات الجسد ، فمضى يقيم حياته على هذه المبادىء ويدعو الآخرين إلى اتباعها .

عندما كان فى الثالثة والثلاثين من عمره رجع إلى المدرسة ليحصل على معلومات أكثر فانفق أحد عشر عاما فى جامعة باريس يدرس ويفكر .

وكانت حياته العسكرية قد أضفت على أعماله كلها ثوب النظام والتشدد والطاعة العمياء وكان ذا شخصية قوية ومنظر مهيب يدفع إلى إكباره واحترامه ويوحى بطاعته والثقة به ، لذلك التف حوله فئة من زملائه فى الجامعة ، وانضم إليهم جمع ممن كانوا ينتسبون إلى زافيير Xzavier . ونمت هذه الجماعة بسرعة . ووضعت نفسها تحت شعار دينى خاص عرف بالدستور الجزويتى (اليسوعى) وهو من وضع اجناتس لويولا .

وظلت هذه الجماعة تنمو وتنمى طلبة وأساتذة وهى غير معترف بها رسميا من الكنيسة حتى سنة ١٥٣٤ م إذ أعلن البابا بول الثالث صحة هذه الجماعة ، ولكن لم يعترف بها من الكنيسة جماعة دينية رسمية إلا فى سنة ١٥٤٠ م أى فى منتصف القرن السادس عشر تقريبا ، وقد اتخذوا منذ أقر البابا بول وجودهم اسم « فرقة يسوع » وهو اسم كما ترى مأخوذ من النظام العسكرى الذى مارسه لويولا ، وبعد الدستور أو القانون الذى وضعه للجماعة وضع لها أيضا كتابه الروحى « كتاب التدريبات الروحية » Book of the Spiritsual Experience ولايزال يعمل به فى مدارس الجزويت .

كان كيان هذه الجماعة القائم على الثقافة والطهارة مما يغرى بالانضمام إليها ، وكانت نزعة التقشف والتخلى عن الملكيات الخاصة مما يصرف عنها . وكثيرون انضموا إليها ولم يتخلوا عن ملكياتهم ، أو بعبارة أخرى خففوا من حدة التقشف والنسك الذى رسمه لويولا وظلت الجماعة تنمو نموا مطردا .

وفى سنة ١٥٣٤ م التى ظفروا فيها باقرار البابا . كان لويولا وبعض رفاقه قد ازمعوا الرحلة للحج . ولكن عاقهم عما أرادوا وجود حروب فى الشرق . فذهبوا إلى البابا وأعلنوا طاعتهم وولاءهم له ، ووجدوا فى هذا الموقف وفى روما ميدانا عمليا لخدمة البابا والكنيسة فزجوا بأنفسهم فيه .

أقسموا ثانيا على الطاعة ورسموا قساوسة وسموا أنفسهم « جماعة المسيح » — والاسم فى الاسبانية يحمل معنى الجهاد والحرب من أجل المسيح .

ولنلاحظ أن سنة ١٥٣٤ التى تقاسم فيها هؤلاء التلاميذ فى باريس هى السنة

التى قطع فيها هنرى الثامن علاقته بروما ، والتى دفع فيها توماس مور حياته ثمنا لتمسكه بعقيدته الكاثوليكية ، والتى رفع فيها جاك كارتيه الصليب على خليج سانت لورانس . فهو عام مشهود .

ولنلاحظ أيضا أن جماعة الجزويت لم تتبع مذهبا مسيحيا معينا ، وغرضها الأساسى هو اعداد رهبان وقسس يكونون أعوانا للبابا فى روما ، وهم وهبوا أنفسهم نهائيا لخدمة المسيح .

وفى سنة ١٥٣٩ وضع اجنيتس مؤسس الجماعة دستوره فوافق عليه البابا بولس الثالث فى سبتمبر سنة ١٥٤٠[1] ، وأصبحت به جماعة رسمية واعتبر هذا التاريخ بداية قيامها الرسمى ، وهى موجودة من قبل كما رأينا ، وفى العام الذى تلا ذلك ١٥٤١م أختير اجنيتس أول رئيس لهذه الهيئة . ويبدو من الدستور الذى وضعه والنظام الذي اتبعه أن للجماعة جانبا نظريا وآخر عمليا ، وهى لذلك تعتمد على الممارسة الروحية والامتحان العام ، ومن أهم الافكار التى جروا عليها أن يسوع هو قائد المتطوعين للجهاد ، لأنه ضحى بنفسه على الصليب من أجل محاربة الباطل ، وهو يشارك اتباعه بالعون فى مواقف الشدة ، كما أنهم يشاركون فى ثمار النصر ، وأن كل من يملك حظا من الشجاعة وقبسا من العقلية المسيحية المستنيرة لايملك أن يصم اذنيه عن هذا النداء ، وعدو الانسان هو الشيطان هذا الذى يعمل دائما على ايقاع الانسان فى الشر بتحبيب المال اليه ، ولكى ينجو الانسان منه عليه أن يقيد نفسه بالفقر والتواضع اقتداء بما فعل يسوع ، ولم يكتف اجنيتس بدستوره السابق بل شرع فى سنة ١٥٤٧ فى وضع نظام آخر وافق عليه البابا أيضا فى سنة ١٥٥١ .

ويقوم تدريب من ينتمى إلى هذه الجماعة على قراءة الكتاب الذى وضعه لويولا وهو يدعو إلى التفكير والتأمل ويدرب على الصلاة وقوة الارادة ، ويلفت الذهن والقلب إلى مبادىء خاصة تقرب من المسيح وتعمل على التخلق بأخلاقه ، وقسم الكتاب إلى أربعة فصول كل فصل يدرس فى أسبوع ومعه ملحق يوضح طرقا خاصة للصلاة ، أما الفصول الأربعة فهى التفكير فى الآثام ، والتفكير فى

(١) أنظر أيضا Neil من ص ١٣٤ إلى ١٤٨ ، وأنظر أعمال زافيير بعد ، وفى كتابنا « معركة التبشير والاسلام » .

حياة المسيح ، والتفكير فى عواطفه ونبله ، ثم بعثه بعد صلبه ورفعه إلى السماء ، وجاء فى تعاليم الجماعة أن الانسان خلق ليعبد المسيح ويعظمه ، وهو بهذا يصون روحه وقلبه من كل شر ، ولا يقف عمل الشخص عند خلاص نفسه بل عليه أن يعمل بقوة لتخليص جيرانه، ومهما يكن من أمر نظامها المفصل فانه استعار كثيرا من الجمعيات التى سبقته ح هذا مع زراية اجنيتس ونقده الكثير لها . وكانت الميزة الواضحة فيها هى اعتمادها على القرابين كوسائل أولية للطهارة ، وكانت حياة أبنائها تقوم على المساواة التامة ، ومبدأ العيش على الفاقه كان يقضى بعدم ملكية أى شىء حتى الأدوات الصغيرة ، فكل ما فى الدير ملك لكل من فيه، والطاعة كما فسرها لويولا خضوع مطلق للكنيسة والبابا حتى إذا قال عن شىء أبيض أنه أسود، وحب الاعتقاد بأنه أسود[1] .

(١) رجعنا فى هذا الحديث إلى دائرة المعارف البريطانية ، وأصول التاريخ الأوروبى » وأوروبا العصور الوسطى و Niel » .

نظام الجزويت التكوينى

لا تزال هذه الجماعة إلى الآن تقوم على النظام الذى وضعه اجنيتس ، وفيه أن الجمعية تختار لها رئيسا يظل رئيسا مدى حياته ، وتسير الجماعة كلها — من فى الدير ومن فى خارجه أو فى قطر ناء عنه — على توجيهه ووفق ارادته ، ويختار الرئيس مجلسا من الرهبان ومن الذين يمثلون الاقاليم ، فيجتمعون للنظر فى شئونهم ولكن آراءهم لا تلزم الرئيس باتباعها ، وهذا المجلس ووعاظ الدير ينفذون سلطته بطريق التذكير والتخويف من الحساب ، وعليهم أن يقوموا بهذا التذكير بصفة مستمرة ، وفى الوقت الحاضر يوجد بجانب الرئيس مساعدون من خمسة أقطار هى ايطاليا وأسبانيا وألمانيا وفرنسا وانجلترا .

واجنيتس مع دراسته التى قاربت عشرين عاما لم يستطع أن يتخلص من قيود ماضيه فهو أسبانى صليبى النزعة ، وهو عسكرى صارم النظام ، وحيث عجز عن الحرب بالسلاح اتجه إلى نوع آخر من الحرب ، وهو حرب الكلمة والتخطيط وسعة المعلومات ، وهو استعار من البندكت والدومنيكان والأديرة التى كانت منتشرة حوله معظم نظامه .

وهذه الجماعة فريدة حقا فى عملين كانا شغلها الشاغل وبهما تتميز عن الجماعات الأخرى هما نشاطها ومهارتها فى تكوين ارساليات هنا وهناك لتبشر بديانة المسيح، وارسالياتها أيضا تمتاز بالنشاط والعمل الدائب من أجل رسالتها ، وهى أيضا فريدة فى تعليم الشباب ، واتخاذ الوسائل الناجحة لطبعهم بطابعها ، وقد أنشأت لذلك كليات تعليمية ، ووضعت لها نظما مدروسة ، وتكيفت بحسب البيئات والاقطار التى تنشى بها مدارسها ، وارسالياتها الآن فى الشرق كثيرة جدا وتبدأ ارسالياتها بالقديس فرانسيس زافير Francis Zavier الذى يعتبر الشخصية الثانية بعد اجنيتس وهو أسن منه وأسبق ، وقد ذهب إلى الهند واليابان (١٥٤١ — ٥٢) وبعث رسائل تبشيرية إلى الصين (١٦٠٠ — ١٩) وذهب إلى أمريكا للتبشير أيضا ، ولكنه لم يستطع دخول الصين فى حياته وقد مات ١٥٥٢ ، قبل اجنيتس بأربعة أعوام ، ويليه فى نشاطه متى ركسى Matteo Ricci .

وتتدرج مراكز الجمعية فى ثلاث درجات : تلميذ ، ومساعد ، ورئيس أو استاذ،ومراحل التدريب والترقى فيها شاقة طويلة .

يبدأ من يريد الالتحاق بالجماعة بممارسات روحية لايراد منها الا تأليف قلبه وانشاء علاقة تعارف بينه وبين رفاقه السابقين . وهذه تستغرق عامين يؤدى بعدهما قسما إذا كان لائقا للالتحاق ، ثم يمضى ثلاثين يوما فى ممارسات روحية أشق مما سبق ، فإذا بدا أنه مستعد للمبادىء الثلاثة : الفقر ، والطاعة ، والعفة قُبِلَ تلميذا وتخصص للدراسة ، ومدة هذه الدراسة تسعة أعوام ، يدرس فيها الاداب والفلسفة والعلوم وأصول الدين ، وبهذا تنهى مرحلة التلمذة فيعمل اذن مدرسا لمدة عامين أو ثلاثة أعوام تحت رقابة مشرف ، وتعتبر هذه المرحلة المتوسطة ، ويلحق بها عام أخير لدراسة متقطعة يوما بعد يوم ، وبهذه الممارسات كلها يصبح ذا دراسة عالية ، فيتقدم للقَسَم ثانيا أمام الرؤساء ثم يقبع فى عزلة أخرى شهرا كاملا للرياضة الروحية واعداد نفسه للقيام بواجبات الجماعة والعمل على القربى من المسيح فاذا ثبتت لياقته بعد هذا كله رقى إلى منصب الاستاذية ، وفيه يتقلد وظيفة قسيس أسقف. والقسس الأساتذة هم الذين يعملون فى الاجتماعات ويباشرون أداء القسم ممن يريدون الانتماء إلى الجماعة ،أو قسم الطاعة للبابا ، ويكونون رؤساء الكنائس فى الاقاليم والجهات النائية .

ومن المقرر عليهم أنهم لايمارسون أى عمل دنيوى أو سياسى ، ويكرسون حياتهم للدعوة والقرابين وبعث الارساليات للتبشير بالمسيحية والحث على الصدقة.

نظرة فى نظام هذه الجماعة :

١ ـــ لم تتخل نهائيا عن نظم الجماعات السابقة واستفادت أكثر من جماعتى البندكت والدومينكان والأديرة القديمة ، فكان بها نظام التوبة والتكفير عن الخطايا والنشيد الجماعى والتراتيل الموسيقية ، وأيضا توحيد الجماعة فى مظهرها وعبادتها .

٢ ـــ تخلت عن النظام السابق الذى كان يوصف بالديمقراطية ، والذى كان

يكل البحث فى مشاكل الجماعة إلى مجلس معين ، فجعلت الرئيس هو الموجه الوحيد وأوجبت طاعته بدون نقاش ، وهذا أثر من الروح العسكرى الذى نشأ عليه اجنيتس — وأراد به قطع الجدل والمناقشات التى تؤدى إلى التفرقة ، وهو فى الواقع خضوع روحى وجسدى فى الجمعية والأديرة والكنائس التابعة لها ، لأن تدريب الجسد على أعماله المقترحة يعين على تقوية الروح وكبح الغرائز .

٣ — خضعت الجماعة لقسم مبسط ، وكان للجمعيات الأخرى عدد من الاقسام الغليظة المعقدة ، هذا لأن اجنيتس اعتمد على الجوانب العملية أكثر من الجوانب النظرية وهذا أيضا من أثر تربيته الحربية .

وبهذا يبدو أن منهج هذه التربية جمع بين تربية الروح وتربية الجسد وتربية العقل، وأعطى فرصة كافية لنمو هذه الجوانب كلها . ولا يستطيع أحد أن ينكر فضل هذه الجماعة فى تعليم الشباب والقدرة على طبعهم بطابع صليبى بارز فى حياتهم ، ثم أنهم على استعداد دائما للتضحية فى سبيل فكرتهم ، وبهذين العنصرين — التعليم والاستعداد للتضحية — أتيح لهذه الجماعة انتشار واسع ونمت مدارسها تلاميذ من مختلف النحل والبلاد .

نظرة فى تاريخها :

قسم كاتب المادة فى دائرة المعارف البريطانية تاريخ هذه الجماعة إلى قسمين تفصلهما حركة ركود أو توقف كامل ، من سنة ١٥٤٠ — ١٧٧٣ ، ثم من سنة ١٨١٤ إلى الآن وفترة التوقف تقع بين سنتى ١٧٧٣ ، ١٨١٤ وكانت بسبب معارضة البابا كلمنت الرابع عشر لها وظلت خلال هذه المدة التى تزيد على أربعين عاما محتفظة بكيانها إذ كانت تمثلها جماعة صغيرة فى روسيا ، وكان لها اتباع منبثون فى أنحاء كثيرة ، وفى خلال الفترة الأولى كانت قد نمت بسرعة ، وبعثت بمبشرين فى جهات نائية ، بعثت إلى أيرلاندا وبولاندا وألمانيا ، ثم قام النزاع بينها وبين اللوثريين الذين أنشأوا المذهب البروتستانتى ، ولما عقد مجلس ترنت كان لها ممثلون فيه .

وقد أجملت دائرة المعارف هذا الجزء وكان يستحق أن يذكر بتفصيل ، لأن المرحلة الأولى من حياة هذه الجماعة لم تكن تتمتع بصفاء أو هدوء مستمر ، حتى مركز البابوية الذى استفاد منها أكثر من أى هيئة أو امبراطورية تنكر لها تحت ضغط الظروف السياسية .

واشتبكت الجماعة فى غير موقف مع الجماعات الأخرى . البندكت ، والدومنيكان،والفرنسيسكان ، وعندما كان البابا سكستوس الخامس Sixtus 5 فى مركز البابوية فى روما — وهو من جماعة الفرنسيسكان — أراد أن يغير دستور اجنيتس ، ولكنه لم يجد جرأة كافية لما يريد ، وأبدى بعض أعضاء الجماعة عدم اقتناع به أيضا ، وكان هذا أخطر على الجماعة من كل العداوات التى واجهتها ، لأنه كان نتيجة تأثر بدعوة مارتن لوثر ، ومع ذلك بقى الدستور كما كان ، ولهذا السبب نفسه هوجمت الجماعة فى فرنسا عدة مرات ، ثم صودرت نهائيا سنة ١٥٩٤ ، وظلت متوقفة هناك حتى سنة ١٩٠٨ م .

وفى أوائل القرن السابع عشر تعرضت لضغوط وعداوات سياسية متعددة — طردت من فينسيا سنة ١٦٠٦ ، وظلت طريدة منها خمسين عاما ثم أعيدت سنة ١٩٥٦ .

وفى القرن الثامن عشر كان الضغط عليها أشد نتيجة لتقدم الفكر الفلسفى ونمو المذهب الانسانى ونيل المذاهب المنشقة من البابوية ، ففى المدة التى بين سنتى ١٧٣٠ ، ١٧٧٣ م أعلن عداءها كبار السياسة وكبار الفلاسفة فى فرنسا وايطاليا والبرتغال وأسبانيا — أى أنها عوديت فى مهدها الأول والبيئات التى نشأت فيها ، فالامبراطور الاسبانى تشارلس الثالث قرر استئصالها من بلاده نهائيا وأيضا من المستعمرات التى تتبعه فصودرت أملاكها وطرد الذين ينتمون اليها إلى أرض البابا ، وفى سنة ١٧٦١ قرر البرلمان الفرنسى ادانة دستورها واغلاق مدارسها وأرسل إلى البابا فى روما يطلب منه مصادرة الجماعة كلها — وكان البابا إذ ذاك هو كليمنت الثالث عشر ، فلم يقبل هذا الاقتراح على الرغم مما هدد به من اقامة كنائس قومية فى روما . ولما جاء كليمنت الرابع عشر أذعن لهذه المطالب وأعلن سنة ١٧٧٣ قرار يقضى باستئصالها متعللا بأنها لم تتبع الغاية التى قامت من

أجلها وذكر أن لديه أسبابا سرية تقتضى ذلك ، وأنه لابد منه حفظا للسلام فى الكنيسة .

جوانب من نشاطها :

قلنا أنها تقوم على التعليم والتضحية ورأينا رجال الدين فيها يتلقون دراسات عالية أدبية وعلمية ، وفى بدايتها أنشأت عددا من الكليات أهمها الكلية اللاهوتية فى روما، أنشئت عام ١٥٥٢ ، وهو العام الذى مات فيه زافيير وفى هذه الكلية تعلم عدد من القسس الألمانيين ليحلوا محل اخوان لهم فى المانيا ، وكانوا قد تأثروا بدعوة لوثر وتحولوا إلى مذهبه وبجانب منهج هذه الكلية التعليمى — أو قل أن من منهجها — تخريج عباد يخصصون أنفسهم لمعاونة المرضى والمسجونين ومساعدة مرتكبى الاثام على التوبة والعودة لحياة الطهارة ودعوة الشبان إلى علومها ليكونوا مسيحيين مخلصين .

ومن بواكير أعمالها ما قام به فرانسيس زافيير إذ أسس ما يزيد على ١٥٤٠ كلية للتبشير فى جنوب الهند ، ومنها تمشت المسيحية فى بعض الجزر والبلاد المجاورة ، ووصل أعضاء مبشرون من الجزويت إلى الكونغو سنة ١٥٤٧ ومراكش ١٥٤٨ ، والبرازيل سنة ١٥٤٩ وترك زافيير يوم موته نحو ألف من الدعاة الاساتذة ونحو مائة بيت دينى للدعوة ، وقسم مراكز الدعوة إلى ١٢ قطرا لكل قطر دعاته يعملون على نشر الدعوة وتأسيسها به ، والجماعة الآن لها مراكز أصلية فى ايطاليا وأسبانيا والبرتغال وتتعاون كلها على العمل لنشر المسيحية على طريقتها ، خصوصا فى الشرق ، وظلت اليابان حتى نهاية القرن ١٦ فى قبضة اليسوعيين .

وقبل أن تقوم كلية روما بعام كان هناك مدرسة لاهوتية قامت نموذجا للمدارس اللاهوتية ثم قامت بعدها بعام واحد مدرسة لاهوتية فى ألمانيا ثم كثرت فروعها بسرعة وظهر لها ممثلون بارزون فى كل أنحاء العالم تقريبا ، وقد وفدت على الشرق الأوسط أوائل القرن السابع عشر ، وكان مجالها فى الأراضى الشامية سوريا ولبنان وفلسطين ، وحين عاودت نشاطها بعد توقفها اتخذت لها مقرا فى بيروت سنة ١٨٣١ ، ولا يزال بها مركزها الرئيسى فى الشرق الأوسط كله إلى الآن

مثل من تضحياتها :

قادت هذه الجماعة دعوتها إلى بلاد نائية لا تعرف شيئا عن المسيح ، وتعرضت بسبب تفانيها فى دعوتها لاخطار كثيرة ، ففى سنة ١٥٦٦ ذبح الاب بطرس مارتنز على ساحل فلوريدا الشمالى ، فخلفه اثنان فى الحال أسسا ارسالية فى فرجينيا فذبحا مع ستة آخرين سنة ١٥٧٠ ، كما أريقت دماء كثيرة منهم فى الهند واليابان إذ قررت الحكومة اليابانية اجلاء هذه الجماعة نهائيا من أراضيها ، وفى انجلترا اتهمت بتدبير مؤامرة لثورة يستعمل فيها البارود ، وواجهت اتهاما مماثلا فى فرنسا أثناء التناحر الدينى أوائل القرن السابع عشر وقد ذكرنا فى غير هذا الموضع مثلا أخرى لها .

أعمالها الثقافية :

مع كل ما يحفظ التاريخ لهذه الجماعة من حماقات وسخافات وتعصب ، يحفظ لها أن نشاطها الثقافى لم ينقطع فى أى وقت حتى فى أيام محنها العديدة ، وكانت ثقافتها أول الأمر لاهوتية تأخذ من العلوم الأخرى مما يسند أفكارها اليسوعية ، فقد رأى اجنتيس أن جهل الاكليروس كان السبب الأول لخروج البروتستانت عليهم ، وأن الانسانيين شغلوا عقول الشباب بقيم جديدة طغت على الفكر اللاهوتى فى عقولهم ، فاختار منهجا خاصا جعل تعليمه بالمجان وأختار له الأشخاص الذين تؤهلهم مواهبهم لقيادة الآخرين ، وأدخل فى منهجه العلوم الانسانية وتعليم اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية ، وهى اللغات التى كانت قوام الثقافة فى ذلك الوقت ، كما أدخل فيه العناية بالصحة والسلوك . فلقى نظامه هذا اقبالا واسعا .

وفى القرن الثامن عشر ظهر للجماعة نشاط ثقافى أوسع ، إذ توسعت فى درس العلوم الطبيعية ، وتبنت المذهب التجريبى ، وكانت السنوات التى سبقت اضطهادها ذات خصوبة علمية .

وفى أوائل هذا القرن أسست فى باريس مركزا للبحوث والتدريبات ، وكان له تأثير كبير على الجهات الأخرى خصوصا التى تتكلم اللغة الفرنسية فى أفريقية

وأمريكا اللاتينية، ومن نحو ٤٠٠ سنة انشأوا لهم جمعية دينية سموها جمعية سيدتنا الاخوية ، Sodality of our Lady أسهمت فى الرسائل والارساليات والأعمال الاجتماعية ثم تسمت بعد ذلك باسم جمعية المسيح Sodality of Jesus وعدلت قوانينها بعد التعديل ولكنها لم تخرج عن نطاق ما رسم اجنيتس — وزار رئيسها فرنسيس آروب Francis Arrope معظم أقاليم أوروبا .

وتعتبر الكاثوليكية فى فرنسا وأسبانيا وإيطاليا وألمانيا الجنوبية مدينة لهذه الجماعة لأنها حمتها من موجة البروتستانتية التى غمرت البلاد الأخرى .

(٥) جماعة الميثوديزم (النظاميون)

Methodism

هذه الجماعة نشأت في القرن الثامن عشر واستحقت اسم النظامية للتنظيمات التى أخذت نفسها بها ، وهناك ظاهرتان باديتان فيها هما الاخلاص والتفانى فى ذات المسيح والكتب المقدسة ، وهذا ما قامت عليه وأصر عليه مؤسسها جون ويزلى Jon Wesley (١٧٠٧ ـــ ١٧٨٨) والأمر الثانى أنها اكتسبت صفة الشعبية ، وظل اتباعها دائما من الطبقة الوسطى والدنيا ، وبهذه الصفة كثر اتباعها جدا ونمت بسرعة عجيبة ، وهناك صفة ثالثة جاءت نتيجة للقاعدة الأولى وهى التحرر من التشديدات والرسوم الكنسية ، وهذه الصفة هيأت قيام كنيسة لهذه الجماعة بدون مبالاة برسامة البابا أو الكنيسة الانجليزية، ولكنها من جانب آخر كانت سببا فى تقسيم هذه الجماعة وجعلها فرقا كثيرة ، ويتضح ذلك من عرض تاريخ مؤسسها وتاريخها هى وتطوراتها .

مؤسس هذه الطائفة هو جون ويزلى John Wesley ومعه أيضا أخوه تشارلز ، وجون ثقف ثقافة لاهوتية ، وكان أبوه رئيس كنيسة ، أتم تعلمه سنة ١٧٢٦ ، فاختير زميلا للتدريس فى كلية لانكلن باكسفورد ، وكانت الكنيسة الانجليزية قد منحته الرسامة اللاهوتية ، ولم يعمل زميلا بها الا زمنا قصيرا ثم ترك كليته مؤقتا ليعمل مع أبيه، ولكنه عاد ثانيا إلى جامعته، ثم جاء أخوه فاشتركا معا فى تدريس الكتاب المقدس فى جمعية كانت باكسفورد، وأختير جون رئيسا لها . واتخذت الجمعية فى منهجها أعمالا انسانية لمساعدة المحتاجين ، وسنت زيارات منتظمة للسجون القذرة فى اكسفورد حافظت عليها بانتظام فسماهم الناس باسم النظاميين Methodisims . واتسمت الجماعة بالاخلاص فى عملها والحرص على تعليم المسيحية .

وفى سنة ١٧٣٥ رحل الاخوان معا إلى جورجيا ، بأمل أن يرسلا إلى الهند دعاة لبعض الكنائس ، أو مع ارساليات لبعض المستعمرات الانجليزية هناك ، ولكن ذلك لم يتم لظروف خاصة فعادا معا ، وظلا ينميان معلوماتهما الدينية

بواسطة بعض الأعضاء فى كنيسة الاخوة ، ومن الذين عاونوهما فى هذا الوقت وكان له أثر فى حياتهما بعد ذلك بطرس بهلر Perter Bohler ، وفى مايو ١٧٣٨ كتب جون مقالة فى احدى الصحف جاء فيها أنه يثق فى المسيح والمسيح وحده فى الخلاص ، وأنه تلقى تأكيدا قاطعا بأن المسيح قد أزال كل آثامه ، وخاصة من قانون الاثم والموت ، وقد كان تشارلز أخوه كتب أيضا من قبل شيئا مشابها ولكن مقالة جون أخذت مكانة بين الناس ، ولذا استدعى بعد هذه المقالة بقليل ليلقى محاضرات فى بوسطن ، وكان الداعى له هو جورج وايتفلد من رجال الدين المعروفين ، وكان جون متحمسا شديد الاخلاص فى محاضراته ، فحاضر هنا وهناك فى المحافل والحدائق والأمكنة العامة ، والتف حوله جماعة من الفقراء فكانت هذه ارهاصاً لجماعته التى ظلت تنمى أتباعا من الطبقة الوسطى والدنيا طوال ما عاشت وحتى الآن ، وكانت هذه الظاهرة ذات أثر فى أعمال الجماعة التبشيرية .

ويقوم مجد جون وشهرته على موهبته الخطابية ، واخلاصه العميق فى دعوته واخلاصه هو الذى دفع به إلى خوض المسائل السياسية ، وبلاغته هى التى استمالت اليه السياسيين والمثقفين ورجال الشارع على السواء ، واتسمت خطبه وعظاته بالحيوية وعمق التأثير ، وترك هو يوميات تحدث فيها عن تأثير وعظه فى مستمعيه (١) وأنه كان يفضى بهم إلى الهستريا والتشنجات ، وبعض الخطاة كان يصرعهم الألم فيرتمون على الأرض بينم يجثو المؤمنون إلى جوارهم يصلون من أجلهم ولخلاصهم من الشيطان .

ووصف بعض الذين شهدوا خطابه فى اجتماع ميثودى بأنه أخرج مستمعيه عن حالهم الطبيعية فكان منهم من يصرخ ، ومن يرتفع شهيقه عاليا كما لو كان مخنوقا يلهث طلبا للحياة ، أو يعالج سكرات الموت ، وهكذا نجد مبالغات كثيرة حول عظاته وماينال من سماعها ، وكان هو يفسر هذه التشنجات بأنها مس من الشيطان أعقبه شفاء إلهى وأنها حالات طهرت النفس فيها من الخطيئة وافتتحت لها حياة جديدة ، كما كان يعلل ما يبدو على سامعيه من انفعالات بأنها نشوة فرح لم تحتملها طاقتهم البشرية .

(١) أنظر قصة الحضارة جـ ١٩٣/٥ وما بعدها .

كان أكبر نجاح لهذه الجماعة هو بث دعوتها بين الطبقة الدنيا من العمال والزراع والمجرمين فى السجون ، ولم يكن دعاتها ذوى ثقافة عالية فكانت أفكارهم قريبة من أفكار الذين يبشرونهم ، وكان تبشيرهم يقوم على التخويف من العذاب فى الدار الآخرة أكثر مما يدعو إلى المحبة، ولكنه أشاع بين هذه الطبقات سلوكا أخلاقيا اكتسبوا به كثيرا من التهذيب ، ومما قرب بين دعاة هذا المذهب وبين هذه الطبقات ، أنهم كانوا — تبعا لتعاليم ويزلى — يميلون إلى التقشف وينفرون من الترف أيا كان لونه .

كان ويزلى يحرم الذهاب إلى المسارح والمراقص ، ولبس الحلى والملابس الثمينة وكان للجماعة مدرسة فى كنجس وود (Kings Wood) لم يخصصوا فيها وقتا للعب وقالوا : « من يلعب وهو طفل فسوف يلعب وهو رجل » .

وكان لويزلى أعمال سياسية تتسم بالمحافظة ، ومع هذا سبق معاصريه فى المطالبة باصلاحات هامة — مثل تفاوت التمثيل النيابى فى البرلمان ، وفساد السياسة الانجليزية ومجافاتها الديمقراطية ، ووحشية الرق ، وقسوة السجون .. الخ ، وهى اصلاحات نابعة من طريقته التبشيرية ، ومخالطة العوام والمساجين ، ولم يطالب بمحو الفوارق بين الطبقات إذ كان يرى أن التكوين الطبقى لابد منه فى كل أمة .

ولم يحاول الانفصال عن الكنيسة الانجليزية ، ولكنه كان يرى أن رسامة القسس لايجب أن تكون على يد أسقف رسولى رسمى ، ولهذا رسم هو قساوسة لاسكوتلاندا وأمريكا ، وأباح لغير الاساقفة الرسوليين أن يفعلوا ذلك ، وكان يقول العالم كله أبروشيتى، يريد أنه سيقوم بالوعظ فى كل مكان ودون توقف على اذن من الكنيسة أو تعيين أسقفى .

واستراح الحكام للدعوة « الميثودية » لأنها شغلت العامة عنهم بفكر دينى وتجمع العوام حول دعاتها لعدم وجود فجوة ثقافية بين الجانبين ، واستفاد الفكر الدينى نشاطا وشعبية وقال المؤرخون أنه كان فى انجلترا يعانى وقارا مميتا وشكوكا ربوبية يضيق بها رجل الشارع ، فأصبح عنصرا مدويا لايعلو عليه الا السياسة والحرب ، وعندما مات ويزلى ١٧٨٨ م كان أتباعه فى انجلترا نحو ٧٩,٠٠٠ ، وفى

أمريكا الشمالية ٤٠,٠٠٠ ، وظلوا يتزايدون بعد موته حتى كانوا سنة ١٩٥٧ ، ٢٢,٢٥٠,٠٠٠ فى أوروبا و ١٢,٠٠٠,٠٠٠ فى الولايات المتحدة و ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ فى بقية العالم ، وفضلا عن ذلك كان لها تأثير على الكنيسة الانجليكانية .

ويؤخذ على ويزلى أنه كان ذا نزعة استبدادية ، ويرى نفسه جديرا بالزعامة وكان سريع التفكير سريع التحرك سريع تغيير الرأى ، مما يجعل من الصعب أن يستريح إليه مخالطوه ، وفى سنة ١٧٥١ تزوج ممرضة كانت تقوم على خدمته فى مرضه ، وشاركته فى أسفاره المحمومة طوال عامين ، ثم أنهارت صحتها وكلت أعصابها فتركته ، بينما كان هو يرى فى هذه الأسفار مصدر صحته وحيويته .

وقرر مرة هو وصديق له أن يعيشا نباتيين ، ثم قررا أن يعيشا على لون واحد من الطعام ، وقالا لم نكن حين نتناول ألوانا عديدة من الطعام أشد منا قوة ونحن نعيش على طعام واحد ، ولكنهما لم يستطيعا أن يستمرا على ذلك فرجعا إلى تنويع طعامهما .

ويؤخذ على المذهب أنه لم يقدم ثقافة ولا فكرا ، وكل ما كان له هو اشاعة الترانيم الدينية وشغل أذهان الناس بخوف الآخرة ، ومن هنا اعتبرت نكسة فكرية ، وقد عاصرت حركة التنوير التى تأججت نارها فى فرنسا ، والصراع الكبير بين العقل والايمان فلم يكن لها فيه أى مشاركة ، وكانت أعمالها مركزة على الخوف وتعتمد على العاطفة وترى أن العقل فخ للانسان .

ولم تنج — مع كثرة الأتباع — من العداء المرير ، فقد رأى المثقفون أنها ردة إلى فكر العصر الوسيط الذى كان كل شغله هو الجحيم والخطيئة ، فسحب رجال الكهنوت الانجليكانيون تأييدهم لهذه الجماعة ، وضاق العامة بهذا التبشير وبما فى المذهب من تقشف ، وبلغ بهم الأمر أن هاجموا وعاظ الهواء الطلق فى غير مدينة ورموهم بالحجارة ، وفى بعض المدن هدمت بيوت « الميثوديزم » وأوذيت نساؤهم ، وكان جون يصر على إلقاء عظاته تحت وابل القذائف من الحجارة والبيض ، وأوذى أخوه أيضا ، وصديقه المشارك فى بناء الدعوة هو ايتفلد . وأوذى أتباعهم بمثل هذا .

وكانوا جميعا يتلقون هذا الايذاء بحلم وصبر ، وربما سرهم أنهم صاروا أقرب شبها للمسيح . وكان هذا مما عطف الناس عليهم .

وعلى أى حال لا يقدر ويزلى بما أضاف إلى عصره من فكر وإنما يقدر بما كان له من تأثير وكثرة أتباع ، وهو فى هذا لايفوقه أحد من عظماء الانجليز غير « بت » Bat .

ولم يدم عمل هوايتفلد مع ويزلى طويلا ، بل اختلفا بعد زمن قليل فى الرأى ، واتخذ كل لنفسه ميدانا خاصا ، ويرجع اختلافهما إلى أن هوايتفلد كان قدريا ، بينما كان ويزلى يرى أن محبة الله والاخلاص والطاعة هى الخلاص ، ويرى أن الانسان فى استطاعته أن يتأكد من خلاصه إذا أكد محبته لله ولأصحابه ورفاقه فى هذه الدنيا ، وكل شخص بيده أن يعرف ما إذا كان قد خلص أولا ، وذلك بحسب مايكون من محبته ، وبهذا خالف مبادىء الكنيسة الانجليزية وأن لم يخالفها فى العقيدة ، وأصر على رأيه فيما خالف فيه فتبعه عدد قليل من رجال الكنائس ، وانفض عنه الأكثرون ، وكان أخوه تشارلز معه بطبيعة الحال ، وتشارلز كان شاعرا ومؤلف أناشيد . فألف أناشيد للصلاة فى الكنيسة زادت على ٦,٠٠٠ نشيد ، وكانت للعامة والخاصة على السواء ، ولكن أتباع جون بوجه عام كانوا من قليلى الثقافة العوام ومن الفقراء ، ولم تقرر الكنيسة الانجليزية شيئا ضده ولم تنه عن طريقته ، بل كون انصاره معها أول جمعية لهم ، ولكن العلاقة بين الجانبين كانت متوترة فى أكثر أحيانها ، ولعل ذلك لاختلافها فيما اختلفا فيه من قبل ، وفى الواقع كان هو يريد أن يظل متصلا بالكنيسة متعاونا وإياها فى الدعوة ، ولكن بدا أن هذا الاستمرار غير ممكن فافترقا .

وفى سنة ١٧٨٤ كان القسس فى أمريكا قلة بعد قيام الثورة الأهلية فيها ، وأرادت منظمة « الميثوديزم » أن ترسل قسسا ومعلمين من جماعتها ، فلم يوافق رئيس القسس فى لندن ، وكان هذا يعنى عدم اعتراف الكنيسة بها أو عدم الثقة فيها ، ولكن جون ويزلى جريا على مذهبه عين قسسا للعمل فى أمريكا ، وقال أن مبادىء الكتاب المقدس تتيح لرئيس الكنيسة — أى كنيسة — أن يعين قسسا ، وأرسل إلى أمريكا وعاظا وعين معهم ثلاثة قسس ، كان أبرزهم توماس كوك

Thomas Coke وبهذا تولى عملا كبيرا من غير إذن الرئيس أو على الرغم من الرئيس ، وذهب يلتمس له مبررات ويلبسه ثوب الشرعية ، وكان هذا الحادث بنا ، إذْ سَدَّ فراغا فى أمريكا وجعل كنيسة ـــ الميثوديزم ـــ تتصرف تصرف الكنيسة الرئيسية ، غير أن هذا فتح لأعضاء هذه الجماعة بابا واسعا من حرية التصرف فلجأوا إليه وقسموا جماعتهم أقساما كثيرة ، وفى العام نفسه عقد مؤتمرا مكونا من ١٠٠ قسيس لينتخبوا من يخلفه فى رياسة الجماعة بعد موته ، ومات بعد هذا المؤتمر بسبعة أعوام ، وظل نشاطه وعمل جمعيته مستمراً .

وفى عام ١٧٩٥ م بعد وفاته بأربعة أعوام انفصلت كنيسة الميثوديزم عن الكنيسة الانجليزية نهائيا ، وكانت هذه نقطة حاسمة فى تاريخ هذه الجماعة ، لأن ويزلى كان يرغب دائما أن يكون متصلا بالكنيسة الانجليزية ولكنه يتصرف بما لاتوافقه عليه ، أما الآن فقد أصبح أتباعه مستقلين ، وتحمس كثيرون لهم فى بريطانيا وأعجبهم هذا الاستقلال ، فقام لهم أتباع فى آيرلاند ، وويلز ، واسكوتلاند، ونما عددهم بسرعة فانتقلوا من جمعية إلى كنيسة ، وظلوا على نظام ويزلى المألوف من عقد مؤتمر سنوى يبحث كل شئون الكنيسة ، ولشعورهم بانتشار نظامهم قسموا البلاد إلى مناطق ، وقسموا كل منطقة إلى دوائر أو جماعات ، وعين على الدوائر قسس ، وعلى الأقاليم أساقفة أو رؤساء أعلى منزلة للاشراف على الدوائر ، ولكن منح رؤساء الدوائر حرية التصرف وأعطوا حق المناقشة فكانوا يعارضون المؤتمر أحيانا ، وهذا من ميزات هذه الكنائس ، اجتذبت أتباعا أكثر وكثر أعضاؤها تبعا لنموها حتى كان عدد أعضائها خلال القرن التاسع عشر نحو ٤٥٠,٠٠٠ عضو ، ولكنها بسبب هذه الحرية أعطت القسس شيئا من الاستبداد فضلا عن الاستقلال ، كما فتحت للرعايا باب التمرد ، ونتج عن هذين حدوث انقسامات متتالية للكنيسة ، فبدءا من سنة ١٧٩٧ بدأت هذه الانقسامات ثم ظلت تتوالى . وتعددت أسماؤها ولا يعنينا سردها واستقصاء أعدادها .

ومن أهم الكنائس المستحدثة أو الفرق المستقلة منهم فرقة : « المسيحيون الكتابيون » ، أى أنصار الكتاب المقدس ، وتسموا The Bible Christian : ظهروا

سنة ١٨١٥ يدعون إلى الاستقامة على تعاليم الكتاب المقدس ، وتخليصه من الانحرافات ، وهى دعوة قديمة ، بها أنشق لوثر على الكنيسة الكاثوليكية ، وعليها قامت فرق أخرى فاعتمد عليها جون ويزلى فى ارساله قسسه إلى أمريكا .

واتصلت جماعة منهم بحزب الأحرار السياسى الانجليزى المعروف ، وكان ذلك بسبب جلادستون إذ كان من أنصار ويزلى وأتباعه .

وفى سنة ١٩٠٧ م اتحدت مجموعة من فرق هذه الجماعة المستحدثة وكونوا كنيسة النظاميين المتحدة United Methodists فانضمت إليهم جماعات أخرى فصاروا أكثر قوة وعددا .

وبوجه عام كانت هذه الجماعة كثيرة الانقسامات سهلة الالتئام ، وظهر فى حياتها القصيرة كثير من هذه الذبذبات .

وقد كان من نشاط جون ويزلى أن ضم إليه بعضا من الايرلانديين ، ورسم منهم قسسا ، وأرسل منهم رسلا إلى أمريكا دعاة ومبشرين ، وهاجر معهم آخرون ليسوا بذوى رتب ، ونما عدد الجماعة هناك ، حتى صارت الكنيسة النظامية فى أمريكا تناظر أختها الانجليزية ، وكانت لهم أصابع فى السياسة ساعدت على ظهورهم أكثر . وجريا على سنة ويزلى أباحو لأنفسهم أن يرسموا قسسا وأن يقيموا من بينهم رؤساء كنائس ، فاكتسبوا إستقلالا هناك عن كنيستهم الأصلية فى انجلترا ، وهذا النهج بما فيه من استبداد وديمقراطية وتواضع ، أفاد هذه الجماعة فى أعمالها التبشيرية فى أمريكا وفى غيرها من البلاد الآسيوية والأفريقية وفى كل مكان أسست لهم فيه كنيسة .

وظهرت هذه الجماعة فى كندا على أيدى مهاجرين من أمريكا ، ولكن أثناء الحرب الأهلية سنة ١٨١٢ بعث ويزلى مبشرين من انجلترا أعطوا الكنيسة الكندية نشاطا أكثر .

وجاء توماس كوك فزاد ارسالياتها بأعماله هو الخاصة ، وأسفاره الكثيرة إلى مختلف أنحاء العالم ، ورحلاته الكثيرة مهدت لبعثات أخرى ولتكوين ارياليات وكنائس فقد سافر إلى غرب الانديز ثم إلى سيراليون وجنوب أفريقية ، وساحل الذهب

وأفريقية الغربية الفرنسية التى أصبحت الآن مقسمة إلى عدد من الدول فى كل دولة كنيسة أو كنائس للنظاميين، ثم إلى نيجريا وما حولها، ونظراً لأن هذه الجماعة قامت على الاخلاص الصادق للدعوة والمسيح تحمل مبشروها المشقات الكثيرة فى البيئات الأفريقية والمناخ الأفريقى خصوصا الاستوائى . وانتشرت منها ارساليات فى أنحاء الهند ، والهند — مع ما فيها من كثرة الأديان واللغات — كانت دائما مراد المبشرين ومسرحا لنشاط هيئات كثيرة منهم ، وكان المقبلون منهم على جماعة الميثوديزم قليلين أول الأمر ، ثم أخذوا فى الزيادة منذ سنة ١٨٨٠ ، حيث وفدت ارساليات وجماعات عديدة للتبشير شملت أجزاء كبيرة من الأرض ومساحات من البقاع واسعة فكثر الاتباع كثرة بالغة ، والأمر كذلك فى الصين الوثنية والشيوعية، وآخر بعثة انجليزية منهم للصين كانت ، سنة ١٩٤٩ .

وأظهرت الكنائس الأمريكية حماساً أكثر للارساليات شجعهم عليها دخلهم المالى الكبير ، وثراء المصادر التى تمدهم به ، فلهم ارساليات فى شمال الهند وفى المكسيك وكل أنحاء أمريكا اللاتينية ، وكوبا وكوريا واليابان وتايوان . وهى تستعين فى كل أعمالها بالنشاط الاجتماعى وتقديم الخدمة الاجتماعية للشعب ، من المستشفيات والمدارس ، وهى ذات نشاط لا تشارك فيه من اعداد النشرات والكتب الصغيرة التى توزع بالمجان ، ولهم فوق المدارس الابتدائية مدارس ثانوية وكليات جامعية ، ودورهم التعليمية فعالة وذات أثر كبير فى حياة الناس وهى التى تجعل الاقبال على هذه الطائفة شديدا .

وأصابت هذه الكنيسة نجاحا محدودا لدى الأمريكيين السود ، فهم أول الأمر لم يقبلوا عليها ، ولسوء الحظ انقسمت إلى كنيسة شمالية وأخرى جنوبية سنة ١٨٤٥ وأثناء الحرب الأهلية زادت كراهة السود لها ، إذ كان شبح الاسترقاق يخيفهم من البيض دائما وبعد الحرب الأهلية انتعشت الكنيستان بزيادة الدخل المالى وخفف السود من نفورهم منهم بعد حركة التحرير ، ثم انضمت الكنيستان ثانيا .

وكان هناك الفرقة التى تسمت باسم «النظاميون البروتستانت»، وكانت مجموعة صغيرة أخذت من دعوة لوثر ، ولكنها عادت إلى جماعتها بعد ذلك ، ثم انضمت اليهم كنائس أخرى فزاد نمو هذه الطائفة حتى صار عدد أعضائها سنة ١٩٧٠

نحو ١١,٠٠٠,٠٠٠ عضوا ــ وهو عدد كبير جدا ، يتم عن أتباع كثيرين .

وفى الوقت الحاضر تتنافس جماعاتها وجماعات الفرنسيسكان والانجليكان والأدفنتست تنافسا كبيرا ، مما دعا إلى ظهور دعوة جادة تنادى بوحدة الكنائس ليكون ذلك أنجح للدعوة المسيحية فى البلاد الشرقية .

ونالت دعوة الوحدة هذه حظا كبيرا من النجاح فى المؤتمر المسكونى الذى عقد فى كليفورنيا سنة ١٩٧٨ ، ولكن لايبدو أنه من السهل أن تقوم وحدة بين هذه الجماعات العديدة ، لأن لكل جماعة نظامها وطرق تكوينها وإنما يربطها جميعا رباط وثيق وشعور مشترك عام ، وهو كراهة المسلمين ومحاربة الاسلام .

وقد كان خروج هذه الجماعة على الكنيسة وتعيينها قسسا من غير الرجوع إلى البابا مقبولا عند الكثيرين ، وقد سبق أن فعل شارلمان ذلك ، إذ كان يعين الأساقفة ويدعو إلى عقد المجامع ويرأسها بنفسه [١] والصفة البادية عليه هى الامبراطورية أما هذه الجماعة فصفتها الأساسية هى العمل الدينى .

---

(١) أوروبا العصور الوسطى ٢٠٠/١

(٦) جماعة الادفنتست

Adventists

ليست هذه الجماعة ذات شهرة واسعة كالتى للجماعات الأخرى ، ولكنها آخذة. فى النمو والانتشار بسرعة كبيرة وبنشاط مرموق ، وترجع قلة شهرتها إلى أنها مستحدثة وليس لها فى التاريخ العام آثار كالتى لزميلاتها ، ثم أنها نالها بعض التوقف والضمور بعد أن أعلنت نبوءات لم تتحقق .

وتسمية هذه الجماعة مأخوذة من كلمة أدفنت Advent بمعنى عودة أو رجوع لأنها تقوم على عقيدة عودة المسيح إلى الأرض واقامته بها مملكة تستمر ألف عام ، يقضى فيها على غير الصالحين ويبقى بها الاتقياء فقط . ويقترن اسمها بجماعة أصيلة منها تسمى ادفنتست اليوم السابع ، واليوم السابع هو يوم السبت ، وهذه الجماعة الفرعية تقدس السبت وليس الأحد . ويسمى أتباعها بالسبتيين .

لم تظهر هذه الجماعة إلا فى القرن التاسع عشر ، وكان قيامها رد فعل لاحداث ونبوءات من المورمون والشيكرز Shakers ولانفعالات خاصة قامت فى نفس مؤسسها وهو وليم ميللر (١٧٨٢ — ١٨٤٩) كان يعمل فى الجيش الأمريكى أثناء حربه ١٨١٢ ، وكان من الشكاكين ويظهر أن ظروف الحرب كان لها أثر على تفكيره فاتجه إلى قراءة الكتاب المقدس ، وكان شديد الاهتمام بسفرى دانيال والرؤيا، وكان أبوه معمدا فعمل هو معمدا أيضا [١] ، وأدت به دراسته إلى عودة المسيح إلى الأرض ليقيم مملكته المسيحية بسرعة جدا ، وحدد لها موعدا يوم ٢١ مارس سنة ١٨٤٤ ، فأعلن بعض القسس صحة هذه النبوءة وأيدوه فيها ، مما جعل أتباعه يزيدون حتى بلغوا مائة ألف ، ولكن آخرين عارضوه واتهموه بالتطرف ، فأجابهم باصرار بالغ وأعلن أن مجىء المسيح سيصحبه حريق هائل مدمر ، فأزعج هذا آخرين وجعلهم يذعنون لنبوءته لينجوا على الأقل من هذا الحريق ،

---

(١) التعميد غسل الاطفال بماء المعمودية ، ويطهر به الكبار أيضا ويسمى القائم بهذا العمل المعمدان أى المعمد — كما كان يحيى عليه السلام يعمد الناس من ماء نهر الأردن .

وجاء الموعد المحدد قبل وفاته بأربعة أعوام ولم يعد المسيح ولم يحدث حريق ، فوضع تاريخا آخر لنبوءته أجلها فيه بضعة شهور إذ جعل عودة المسيح فى ٢٢ أكتوبر ، ولما لم يعد فى التاريخ الثانى أيضا انفض الكثيرون من حوله حتى أطلق الناس على هذا الموعد الثانى اسم الخيبة الكبرى The Greatdisappointment ودعى رجال الجماعة لعقد مجلس للنظر فى أمرهم فاجتمعوا سنة ١٨٤٥ ، فوجدوا أنه من الصعب أن يكونوا لهم اتحادا أو منظمة دائمة ــ لكن بعضا منهم ثبت على عقيدته وتأولوا كلام ميللر ، ومن هؤلاء الذين ثبتوا يوسف بيت Bate (١٧٩٢ــ ١٨٧٢) ، وجيمس هوايت (٢١٨٢١ ــ ٨١) ــ وكذا زوجته ألين هارمون هوايت (١٨٢٧ ــ ١٩١٥) وكان نشاطها فى الجمعية أبرز من نشاط الآخرين وسمى الذين ثبتوا باسم الميللرين Millerirts أى أتباع ميللر ــ وقد قرر هؤلاء أن ميللر كان على حق فى رأيه وتقديره ، ولكنهم هم الذين أخطأوا تطبيق الموعد ، وعادوا من جديد يدرسون الفصل الثامن من سفر دانيال [١] فخرجوا بقرارات جديدة ــ فحواها أن الله قد بدأ بالفعل يظهر قدسه ، وأن هذا التطهير يبدأ بانذار ثم تأتى بعده كلمة التنفيذ ، وقرروا أن تاريخ ١٨٤٤ كان موعد الانذار وليس موعد التنفيذ ، وأنهم كانوا مخطئين إذ توقعوه موعد نزول المسيح ، وأن ما أعلنه ميللر كان اختبارا عاما للناس جميعا يتبين به المؤمن من الكافر والمفسد من المصلح ، أما مجيء المسيح ليبدأ مملكته الألفية فهو أمر مقطوع به ، ولكنهم لم يضعوا له تاريخا محددا . وأكدوا أن ظهور المسيح سيكون شخصيا ، وأنه سينزل بجسده، فيرى ويسمع ، ولكنهم قرروا أن يوم العطلة ويوم العبادة المقدس هو يوم السبت وليس يوم الأحد وذلك طبقا لما جاء فى سفر التكوين من أن الله خلق الخلق فى ستة أيام واستراح فى اليوم السابع ، والاحتفاظ بهذا التعليم مما يساعد على ظهور المسيح ، أو تعجيل ظهوره .

ومما يظهر فى هذا الصدد أن هذه الجماعة أخرجت لها مجلة تقوم برسالتها وتوضح فكرتها سنة ١٨٥٠ ، وسموها : مجلة « الادفنتست ونداء السبت » ، وهى لاتزال باقية ولكن غير اسمها فسميت اختصارا « المجلة والنداء » . واتخذت مقرها

(١) لأنه يحوى تأويل رؤيا رآها دانيال . ومن هذه الرؤيا أيضا اشتق يوحنا اللاهوتى رؤياه ، أنظر هذه الرؤيا فى آخر العهد الجديد .

الرئيسي فى مدينة «بتل كريك» فى ماتشجان سنة ١٨٥٥ ، واتخذت هذه الفئة لنفسها اسما جديدا أيضا هو « الادفنتست السبتيون » .

وفى سنة ١٨٦٣ — أى بعد ما يقرب من عشرين عاما من عقد مؤتمرهم الأول أعلنوا أن مسز هوايت قد منحت النبوة ، وأن الرؤى قد تجلت لها وروح المسيح قد تقمصتها ، فذهبت هى تلقى محاضراتها عن المذهب فى الولايات المتحدة وفى أوروبا واستراليا ، فأكسبت المذهب رواجا بما أعلنت عنه وعرفت بمنهجه ، ومما يذكر أنها كانت قبل ذلك من أتباع مذهب الميثوديزم « المذهب النظامى » .

وفى القرن التاسع عشر ظهرت هيئات أخرى من هذا المذهب ، وكان ظهورها ، بتأثير مباشر أو غير مباشر من كلام ميللر ونبؤاته ، ومن بين هؤلاء طائفتان لهما بعض البروز فى عالم الأديان هما :

جماعة الأدفنتست الانجيليين ١٨٤٥ ، واتحاد الادفنتست والحياة ١٨٦٢ يريدون ظهور المسيح وحياته فى الكون رغم عدم رؤيته ، ثم ظهرت كنيسة الله ١٨٦٦ أى الكنيسة التى تعنى باحياء وقداسة اليوم الذى اختاره الله للراحة . وربما سميت كنيسة الله واليوم السادس وفى سنة ١٨٨٨ ظهرت « كنيسة الله ذات الاجتماع العام » تعنى الكنيسة التى تقوم على عقيدة ابرهيم ، وأنه لايخص عنصرا معينا . وفى سنة ١٩٦٠ ظهرت جماعة « الادفنتست المسيحيون » وهذه أكبر هيئات الادفنتست ، أسسها يوناثان كيومنجس « كيومنس » Y. Cumnges وتقوم فلسفة هذه الجماعة على فكرة الخلود ، وأن جسم الانسان بعد موته يكون فى حالة لاشعورية وأنه يظل كذلك حتى تأتى مملكة المسيح الثانية ، وحينئذ يعود الصالحون إلى الحياة ويبعد عنها المفسدون ، وكيومنس من أتباع ميللر ولكنه يرفض تعاليم مسز هوايت وفكرة قداسة يوم السبت ، ويجعل الراحة الاسبوعية هى يوم الاحد كبقية المسيحيين ، كما يرفض فكرة الحمية بتحريم الاطعمة والمنومات أو المهدئات التى تحرمها الفرق الادفنتيسية الأخرى ، وتسود بينهم فكرة المساواة فى السياسة وفى الأعمال ، وهى فلسفة خاصة اجتذبت اتباعا كثيرين .

وفى سنة ١٩٦٤ اتحدت هذه الكنيسة « الادفنتست المسيحيون » مع كنيسة

اتحاد الحياة والادفنتست فقللت عدد الكنائس الفرعية .

ومن التموجات الحديثة فى هذه الجماعة أن تشارلس تيز راسل Charles Teze Russel (١٨٥٢ ـــ ١٩١٦) وهو فيلسوف دينى ومؤسس جماعة « وثائق يهوه» Jehova's witnesses بمعنى الشهادة والاقرار بيهوه . إله اليهود ـــ هذا الفيلسوف استهوته تعاليم الادفنتست وأفكارهم ، فانضم اليها هو وأتباعه ، وسميت هذه الجماعة « ميللنيال دونست » من كلمة Dawn « الفجر » إذا اعتبروا فجرا جديدا لدعوة ميللر ـــ وأهم ما تميزت به هذه الجماعة هو أن الحياة الدنيا ـــ حياتنا الحاضرة ـــ هى مملكة الشيطان ، وهى متعارضة مع قانون الله ، وأنها تصلح يوم أن ينزل المسيح ليقيم مملكته ، وقد استفادت كنيسة الادفنتست من هذه الجماعة نشاطا تبشيريا ، لأنها تقرر أن من مسئوليتها أن تبشر بمملكة المسيح الثانية ، وعلامتها موقعة حربية ينهزم فيها الشيطان وأعوانه ، وينتصر المسيح وأتباعه وهى موقعة أرماجدون Armageddon أى موقعة أريما .

وإذا أردنا أن نتعرف على عناصر الفلسفة الادفنتستية ومعظم قادتها من دارسى الفلسفات الدينية ـــ نجد أنها تنمى عناصر عديدة من ديانات وفلسفات قديمة ، ففكرة « اتحاد الادفنتست والحياة » مستمدة من أفكار اليهود عن عيد الحصادRentacastal وجماعة القداسة المسيحية التى تفسر فيضان الروح القدس على الكون كله ، ثم أنها استفادت أفكارا اسلامية من بعض الفرق الاسلامية ، وأفكارا يهودية من دراسة الكتب المشتركة بين اليهود والمسيحيين ، وواضح من كل تعاليمهم أنهم اتخذوا سفر دانيال وسفر الرؤيا أساسا اعتمدوا عليـــه فى قواعـــد المذهب ، وأن ميللر الذى كان متشككا لم يعد لحظيرة المسيحية الا بهذين السفرين (١) .

وعقيدة ظهور المخلص عقيدة قديمة فى أديان كثيرة ، وقد كانت عند البابليين واتخذت مكانتها فى الفكر اليهودى منذ السبى البابلى ، وربما استقوها من البابليين.

---

(١) فى الاصحاح السابع من دانيال أنه رأى فى نومه أربعة حيوانات عظيمة خرجت من البحر، وجاء آخر فأكلها ، وفسرت بأنها ممالك تقوم وتندثر ثم تأتى مملكة القديسين إلى الأبد وفى سفر الرؤيا ما هو قريب من هذا .

ومما هو مألوف فى التاريخ أنه فى أوقات الأزمات والشدائد ، وفى حال العجز عن التغلب عليها يترقب الناس ظهور مخلص تمده السماء بقوة فوق قوى البشر ، وكان اليهود أثناء سبيهم فى مثل هذه الحال ، وشاع بينهم الاعتقاد بظهور المسيح الذى يقيم مملكة لاسرائيل فى أرضهم المقدسة ، وأنه سيعيد بناء الهيكل فى أورشليم ويستمر ملكه ألف عام ، ولما ظهر المسيح عيسى بن مريم بدعوته اعتبره أتباعه هو المسيح المنتظر خصوصا وأنه ولد من غير أب فآمنوا به واتبعوه ، ولم يؤمن به اليهود فظلوا يترقبون المسيح الذى يقيم مملكتهم ، وظلوا إلى الآن — وحتى بعد قيام دولة اسرائيل — عندما يحتفلون بعيد الفصح — Pass over — وهو عيد نجاتهم من فرعون وخروجهم من مصر فى القرن ١٣ ق م — يتركون كرسيا خاليا لا يجلس عليه أحد لأنه كرسى النبى الموعود وهو عندهم النبى اليجا الذى عاش وعاشت تعاليمه فى القرن التاسع ق م ، وهم يعتقدون أنه رفع إلى السماء ، وأنه سيعود إلى الأرض ليقيم مملكة اسرائيل التى تمتد حتى تشمل العالم كله .

ولدى غير المسيحيين واليهود ظهر اشخاص كثيرون ادعوا أنهم هم المسيح الموعود ، ومن هنا رأى بعض الكتاب المسلمين — ومنهم المرحوم أحمد أمين — أن إيمان الشيعة بائمة الستر ، وترقبهم عودة الامام المختفى مستمدة من هذا التيار وبالاخص من المسيحية . ومن المشهورين الذين انتحلوا شخصية المسيح شابتاى تزفى Shapty Tosvey (١٦٢٦ — ٧٦) الذى ادعى أنه هو المسيح الموعود المنتظر ، ونادى بأن سنة ١٦٤٨ ، هى سنة الخلاص واسترجاع الملك — وحيث أن المسيح — عليه السلام — لم يعمر الا قليلا — كانت الكنائس المسيحية الأولى تبشر بقرب عودته بعد موته ، وفى القرن الثانى الميلادى حين كانت الدعوة المسيحية لا تزال تتعثر فى سيرها — ظهر فى آسيا الصغرى نبى أدعى أنه هو المسيح ، وكان يدعى مونتانوس ، وساعده فى ادعائه ودعوته إذ ذاك سيدتان هما بريسلا وماكسملا — أدعت كل منهما أنها نبية ، وكان لهما أثر كبير فى ايقاظ فكرة ظهور المسيح وشغل الاذهان بها ، وكان لهما أثر أيضا فى الفكر المسيحى ، وظلت دعوتهما والأفكار التى بشرا بها حية حتى القرن التاسع ، ونتج عن تبشيرهما ظهور طائفتين مسيحيتين تنتسب كل طائفة منهما إلى احدى النبيتين ، وهما طائفة البريسيليين — نسبة إلى بريسلا ، وطائفة الماكسمليين نسبة إلى

ماكسملا — وفى القرن الرابع — بوحى من هذه النبوءات — ظهرت فى أسبانيا فرقة صوفية تتبع بريسلا ، وتجرى على مذهب التطهير بالنار الذى كان سائدا فى العصر الوسيط ، وظل إلى ما بعد القرن الرابع عشر ، وعليه جرى قسس أسبانيا من الدومينيكان والبندكت فى احراق آثار المسلمين هناك تطهيرا للبلاد منها، وبوحى من تعاليم هذه الجماعة الصوفية ظهر فى أسبانيا مذهب أدفنتستى ينكر تعميد الاطفال ، وكان ميلاد هذا المذهب سنة ١٥٣٤ ، وقبيل منتصف القرن السابع عشر ١٦٤٠ ظهر فى انجلترا نداء بالمملكة الدينية الخامسة للمسيح .

ولكل هذه الفروع الادفنتيسية والفرق التى جرت فى فلكها بدا أمران هامان :

١ — أنها تتعارض مع العقيدة اليهودية التى تترقب قيام مملكة بنى اسرائيل المقدسة العامة التى يقودها مسيح يهودى غير عيسى بن مريم ، فهى شيء يخالف مملكة الالف عام التى يدعو اليها المسيحيون .

٢ — أن قيام هذه الفرق كان يحمل توهينا للمذهب الكاثوليكى ولمركز البابوية ، وبعد هذا وفى القرن ١٧ ، ١٨ ظهرت دعوة لوثر البروتستانية .

ونظراً لأن فكرة عودة المسيح لم تفارق خيال المسيحيين أيا كان لون ثقافتهم تناولها كثيرون بالكتابة والشرح واختلفت فيها وجهات نظرهم ،فقد كتب عنها القديس الفيلسوف أوغسطين فى كتاب له اسمه « مدينة الله » وكتب عنها العالم الانجليزى اسحق نيوتن فى ملاحظات له على نبوآت دانيال ورؤيا يوحنا اللاهوتى.

وفى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، ظهرت توقعات قوية عن قيام مملكة المسيح الثانية ، وشاعت فى آيرلاند أولا بسبب دعاة من قسس الادفنتست ذوى اليوم السابع — ثم انتشرت فى أوروبا كلها ، وهؤلاء درسو نبوآت الكتاب المقدس عن عودة المسيح ومملكته الثانية ومقدار ما تحقق من هذه النبوآت وما سيتحقق ، فهدتهم دراستهم إلى قرب قيام هذه المملكة وأنها عند أطراف اليد ، وبعض اللاهوتين رأى فى قيام الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية بداية لسقوط البابوية ، ووازنوا بين ما جاء فى تعاليم لوثر وما جاء فى رؤيا يوحنا اللاهوتى، فبشروا ببداية العهد العادل ومملكة المسيح التى فيها يدخل الناس جميعا دين

المسيح، ولكنها تأتى تدريجيا، ويتم دخولهم فيها بعد الف عام، وحينئذ يهبط المسيح، وهؤلاء عرفوا بأصحاب مملكة ما بعد الالف Past Millenialists وهذه الفكرة اذيعت أكثر على يد فرقتين حديثتين هما المورمون والشيكرز أتباع شيكر Shaker ومؤسس هذه الأخيرة هى آن لى Ann Lee (١٧٣٦ — ٨٤) أما مؤسس جماعة المورمون فهو يوسف سميث (١٨٠٥—٤٤) Y. Smith وسيأتى حديثهما.

تعاليم الادفنتست وارسالياتهم :

ترى هذه الجماعة أن عليها واجبات نحو بنى الانسان لابد من تقديمها اليهم وهى فضلا عن هدايتهم إلى المسيحية قيادتهم إلى الرقى العقلى والاجتماعى وتقديم المساعدات المادية لهم لهذا الغرض ، ولعل هذا المنهج الذى جروا عليه من أهم الأسباب فى الاقبال عليهم وسعة انتشار كنائسهم فى زمن وجيز بالنسبة للجماعات الأخرى ، ومع وجود المخالفة للآخرين فى عطلة السبت ، ومع ما كتبته مسز هوايت ضد الحركة المسكونية لم يفصلهم مجلس الكنائس العام ، بل دعا ممثلين لهم ليحضروا مجلس الكنائس العالمى (المسكونى) ولبحث صلتهم بالحركة المسكونية ، وقد لاقت هذه الجماعة متاعب كثيرة بسبب عطلة السبت لأنه هو يوم الشراء The shooping day فى البلاد المسيحية ، فكان عليهم أن يبحثوا عن وظائف تلائم وضعهم وطريقتهم .

ولنلاحظ أن « أدفنتست اليوم السابع » يشاركون الفرق الأخرى فى عدد من قواعدها الأصلية ، فهم يؤمنون بالكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ، ويشاركون الآخرين فى تفسيرهم كفارة المسيح ، وبأن الله أختار طائفة من الناس وأن موت المسيح شىء مؤقت ، وأنه يستفيد منه الذين يغتنمون فوائده ، أما الذين يغفلون عنها فهم الخاسرون .

ويتميزون بشيئين اثنين هما ، تقديس السبت ، وتحريم اللحوم والمخدرات أيا كان نوعها ، ولكنهم يحرمون المنبهآت أيضا ويعتبرونها ضارة مؤذية ، ويعزون كل ذلك إلى الكتاب المقدس ، ويبررون أعمالهم بأن الجسد إنما هو مقبرة للروح القدس ، ولهذا تجب المحافظة عليه من الاضرار ومن النجاسات .

وفلسفة هذه الفرقة بكل فروعها تبدو فيها عقيدة الحلول ، وهى عقيدة ليست مستحدثة .

أما نشاطهم الثقاف فقد ذكرنا من قبل مجلتهم ، وأشرنا إلى كتابات مسز هوايت وكانت غزيرة جدا ، ثم اتخذت بعد ذلك دور نشر عديدة فى مختلف الاقطار ، وهى توزع معظم نشراتها بالمجان وبواسطة متطوعين يوزعونها على جميع المنازل .

وأما ارسالياتهم فقد زادت جدا فى الايام الأخيرة وفتحوا كنائس عديدة ، وأول ارسالية لهم كانت بواسطة « جون نيفنز اندروس John Navins Androus (١٨٢٩ — ٨٣) ، وكانت الارسالية سنة ١٨٧٤ م وكانت حركة يراد بها الطواف بالعالم كله ثم كانت اجتماعاتهم ودورياتهم الكثيرة ، وحيث تعددت فروعهم فانا نجد لكل فرع نشاطا ، وأدفنتست اليوم السابع أوسع الفروع الآن انتشارا ولها كنائسها فى أنحاء العالم كله وجماعة اللقاء العام Comference Jeneral وهى الهيئة الرئيسية المسيطرة الآن والتى اتخذت مقرها فى « تاكومابارك » فى واشنطن الذى انتقلت اليه من مدينة باتل كريك Battel Creek تعقد اجتماعاتها أربع مرات كل عام ، وهو يتكون من مندوبين من الفرق الأخرى ومن المحليين فى خارج المدينة وهم يتخذون لهم اسم الاجتماع العام أيضا ، وهم يرسلون مراقبين رعويين (رعاة الكنائس) للكنائس المحلية ، وهذه يحكمها منتخبون من المسنين ومن الشمامسة ،وفيما بين المؤتمر وتاليه تعد الأعمال وتعلن بواسطة رئيس الهيئة ومساعديه — وفى مؤتمر عقد لهم سنة ١٩٦٨ بلغ عدد الكنائس التى ملئت فيه ١٥٧٤٤ كنيسة ، وبلغ عدد الحاضر ١٨٤٤٢٨٣ شخصا وأشرف المؤتمر على كتاب انجيلى نشر فيما يزيد على ألف لغة ، ووزع فى المدارس ، وللجماعة مدارسها ومؤسساتها الصحية التى أطلق عليها اسم سناتوريام Sanitariums أى مصحات ، وقد بدىء بها فى مدينة باتل كريك سنة ١٨٦٦ . من هذا ترى أن الجماعة على حداثتها قد امتدت كثيرا وكثر اتباعها .

أثر قيام دولة اسرائيل :

كان لقيام دولة اسرائيل سنة ١٩٤٨ تأثير بالغ فى نفوس الادفنتسيتين ومن

أخذ بنبوءاتهم عن مملكة المسيح ، فاليهود من قبلهم فسروا قيام دولة اسرائيلية بعد ألفى عام من التشتت فى أنحاء الأرض بأنه نهاية تشتتهم ، وبداية قيام الدولة الاسرائيلية المرتقبة التى وعد بها الكتاب المقدس ، وقالوا قد وفى لنا الله بوعده . وبعض المسيحيين مال إلى تفسير هذا الحادث بأنه وفاء بعهد الله لليهود ولكنه أيضا علامة على عودة المملكة المسيحية الكبرى ، هذا لأن يسوع جاء ليحل ديانته محل اليهودية ، فهو سيأتى بعد هذه المملكة ثم جاء انتصار آخر أكبر لاسرائيل سنة ١٩٦٧ فأثار اهتمامات وتساؤلات أكبر ، تمسكت اسرائيل أكثر بما ذهبت اليه حتى أن بعض ربانيها قال : كنت أمسك الجريدة بيد والكتاب المقدس باليد الأخرى ، فأجد فيه وعد الله بنصر اسرائيل على سبعة أعداء ، وعقد فى سنة ١٩٧١ مؤتمر عام فى القدس Jerusalem تحت رياسة كارل . ف هـ . هنرى وهو أحد القادة الدينيين المحافظين فى أمريكا وكانت مهمته هى درس هذه المسألة وتفسير هذا الانتصار، ذلك أن اليهود والمسيحيين على السواء يترقبون عودة المسيح الموعود ، ولكل منهم مسيح غير الذى ينتظره الآخر ، وكل له آمال خاصة به ودولة يترقبها ، ولما تتحقق بعد. وانتهى المؤتمر بما بدأ به من بقاء كل على رأيه ، لكن تفاؤل اليهود كان أكثر . وذهب قوم فكتبوا بخط كبير أضىء بالكهرباء آية قرآنية هى : «وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » وهى الآية ١٢٧ من سورة الاعراف ، ومع أن الغرض البادي منها كان اغاظة العرب ، كانت أيضا اغاظة للمسيحيين الذين يترقبون دولة المسيح .

ولا يتفق الاسرائيليون جميعا على أن دولة اسرائيل الحالية هى بداية الدولة الكبرى الموعود بها ، كما أن المسيحيين لايعترفون بهذا أيضا .

ومعظم الكنائس التى كانت فى فلسطين كانت رومانية كاثوليكية كما كان بها كنائس شرقية ، وحين كانت تحت الانتداب البريطانى تركت للكنائس كلها ممارسة نشاطاتها وسمح نظام التعليم بدرس الاسلام للمسلمين لكن مدارس الارساليات فى فلسطين وسوريا ولبنان كانت فاشية وممتعة برعاية ومزيد من النفقات ، ومنذ قامت الجامعة الأمريكية فى بيروت ، وتبعتها مدارس أخرى ، كانت

حصنا للتبشير وينبوعا لدراساته والدعاية له .

وللادفنتست الآن فى مصر كنائس فى القاهرة منها اثنتان سبتيتان وفى الاسكندرية واحدة ، وقيل لى أن هناك كنائس أخرى ، ولكنى لم أعرف بعددها ، أما ارسالياتها فتكاد تشمل العالم كله .

وأطلعت من كتبهم على كتاب « يوم الرب » أى يوم السبت الذى قدسه الله تعالى واستراح فيه طبقا لما جاء فى سفر التكوين ، وهو اليوم الذى قدسه المسيح فى حياته ، وظل كذلك حتى أصدر قسطنطين الأكبر أمره بحفظ يوم الأحد سنة ٣٢١ م وفرضه على كل المواطنين عدا الزراع (١) — وفيه أيضا أن القسس الكاثوليك كانوا قد استباحوا التغيير وأعطوا أنفسهم هذه السلطة ، وهو تغيير غير شرعى . والكتاب فياض بالحجج على أن يوم السبت هو يوم القداسة ، أما لماذا فرض قسطنطين يوم الأحد فذلك مرده إلى أمور سياسية ، إذ كان بالامبراطور كثرة تؤله الشمس وتعبد الاله سن Sinn الشمس . وكان عمله قائما على توحيد مملكته وقد ذكرنا قبل أنه مع فرضه المسيحية دينا مات على وثنيته .

وأطلعت أيضا على كتاب « طريق الحياة » لمسز هوايت ، وهو تسابيح وتعاليم مسيحية تصلح لكل فرقة مسيحية ، وما فيه من دعوة إلى التأمل فى ملكوت السموات والأرض ومن دعوة إلى التسامح وحسن التعامل يصلح لكل انسان .

(١) يوم الرب ٥٧ — وأنظر الفصل السادس كله — والكتاب من عمل الكنيسة

(٧) الجمـــاعة البريسبتارية

The Presbyterians

ذكرنا أهم الجماعات وأشهرها ، وهناك جماعات أخرى ذوات نظام ونشاط تبشيرى ولكنها أقل شهرة وقوة ، ويكفى أن نشير من بينها إلى هذه الجماعة ، وليس من همنا أن نستقصى ، ويكفى أن نعلم أن هذه الجماعات ـــ وأن كانت أقل قوة ـــ لها ارساليات فى الشرق ونشاطها التبشيرى آخذ فى الازدياد والبريسبتاريون من أكبرها .

وهم جماعة تستحق أن تدرس تفصيلا ، لأنها ذات فروع كبيرة ومنتشرة فى أنحاء العالم ، ولها مراكز أساسية فى انجلترا والبلاد الأوروبية الأخرى ثم فى كندا والولايات المتحدة واستراليا ، وغيرها ، ولانتمائها إلى هذه الاقطار الثرية القوية تنتشر ارسالياتها فى شتى البلاد .

والجماعة ظهرت فى انجلترا واتخذت صيغة انجليزية ولعبت دورا كبيرا فى سياسة انجلترا منذ القرن السادس عشر الميلادى عصر النشاط الدينى والفكرى والتطور السريع فى أوروبا كلها ، والاسم مأخوذ من اسم المقاطعة البريطانية « برسبتاريا » التى قامت بها هذه الجماعة وترجع بدايتها إلى النزاع الذى قام بين الملك هنرى الثامن وبين البابوية ، فحين أراد هذا الملك الذى سبق شيء عنه أن يجعل الكنيسة امبريالية لا بابوية ، تردد الشعب كثيرا واكره على طاعة ملكه ، وكان هذا الانفصال نهائيا سنة ١٥٣٤ م ، ولم يتم إذ ذاك مذهب انجليكانى وكانت البروتستانتية تتأرجح على يد لوثر وأتباعه ، يرغب فيها قوم ويرهبها آخرون حتى سنة ١٥٥٨ فاستقرت نهائيا ، واستقى المذهب البرسبتارى منها كثيرا ، إذ أخذ معظم القانون الكنسى الذى كان فى سويسرا ، ولكن المذهب فى سويسرا أيضا سمى باسم « البرسبتارى » وأطلق الاسم على القانون السويسرى .

والواقع أن كنائس هذا المذهب لم تثبت على اسم واحد بل سميت فى الاقاليم العديدة باسماء تناسبها وغلب مع اسمها الاصلى اسم الكنائس المعدلة Reformed

Churches وبقى فى انجلترا اسمها كما هو إلى الآن ، وبعد سنة ١٥٢٩ــ١٥٣٠ تقاربت الكنائس البروتستانتية فى شمال ألمانيا مع الكنائس الاسكندنافية . وتحت لواء الفكر البروتستانتى اللوثرى عملت على ترجمة الكتاب المقدس إلى لغاتها المحلية، واتحدت تقريبا فى طريق العبادة والقربان إلى الله ودعت إلى تعديل النظام الكنسى القديم ، وأخذت من مذهب كالفن Calvin أكثر حتى سميت أيضا الكنائس الكالفنيه[1] وفى انجلترا كانت الكلمة تكاد تكون معادلة لاسكوتلاند أو اسكوتلاند وأيرلاند ــ لأنها نشأت فى الأولى ثم انتشرت فى الثانية .

أما مصادر هذا المذهب غير لوثر وكلفن ، فهى بروتستانتية شمال سويسرا والمذهب الانسانى المسيحى ومن أوائل الذين نادوا به فى انجلترا وليم تندیل W. Tyndale وجون روجر ، وروبارت بارنس ، وعدد آخر من رجال الفكر والفلسفة ، وكانت اسماؤهم مما أكسب المذهب شهرة وثباتا ، وكانوا جميعا يميلون إلى المذهب الانسانى [2] واللوثرى وحين انفصل لوثر وأتباعه عن شمال سويسرا بقى هؤلاء الانجليز على مذهبه .

ولما جاء أدورد السادس ــ بعد أبيه هنرى الثامن (١٥٤٧ ــ ٥٣) انتعشت البروتستانتية ولكنها كانت مدة قصيرة ، وجاء الرؤساء توماس كرانمر ، ونقولا ريدلى وجماعة معهم جنحوا إلى التوفيق بين الكاثوليكية والبروتستانتية ، فأخذوا من كل مذهب بطرف ولكن لم يقبل رأيهم أى من الطرفين ، وتردد الاتباع أيضا ، وجد كرانمر فى ادخال المذهب البروتبستانتى من شمال سويسرا وجنوب المانيا إلى انجلترا فزاد أتباع المذهب ، ولكن حتى موت أدورد السادس لم يكن المذهب البرسبتارى ، والمعدل قد ظفر باستقرار كاف فى انجلترا .

وفى عهد الملكة مارى (١٥٥٣ ــ ٥٨) هدأ النزاع مع البابا واستعادت

(١) كالفن مثل لوثر ليس المؤسس الأول لمذهبه ، ولكنه هو الذى اشاعه ومده حتى أكسبه شهرته واستقلاله والمذهب بدأ فى جنيف فما لبث أن شمل سويسرا وانتقل إلى ألمانيا وغيرها .

(٢) المذهب الانسانى مذهب عميق الجذور فى الفلسفة والاجتماع ، وهو يعنى برفاهية الانسان واحترام انسانيته وتخفيف آلامه ، وقد نادى به كثيرون ، وقامت أول جمعية رسمية له فى أواخر القرن الثامن عشر ١٧٧٤ م فى امستردام وقامت على غرارها جماعة أخرى فى فيلادلفيا وبطرسبرج ، ومنها تفرعت جمعيات الرفق بالحيوان .

الكاثوليكية حظا من القوة ، ولكنها ما لبثت أن قهرت بقوة الشعب لا بقوة السياسة ، فقد هاجر إلى القارة الأوروبية نحو ٨٠٠ من قادة البروتستانت الشبان فوجدوا فكرة الكنائس المعدلة منتشرة وأعجبهم نظامها فرأوا أن نظام بلادهم جدير بالاهتمام ، وربما حملتهم العصبية الوطنية لذلك ، ورأى آخرون نظام كنائسهم البريسبتارى ـــ هناك أيضا فرجعوا جميعا إلى بلادهم يؤيدون المذهب ويدعون له .

أما الملكة اليزابث الأولى (١٥٥٨ ـــ ١٦٠٣) فمالت إلى هذا المذهب المتوسط وشجعته وأصبح هو المذهب الانجليزى ، وبقيت المذاهب الأخرى أيضا ولم يبق هذا المذهب كما هو بل ناله الانقسام والتشقق ، فهناك جماعة لم يقبلوا هذه الوسطية ولم ترجع للكاثوليكية واتخذت مذهبا مولدا به كثير من التشديد فأطلق عليهم اسم المتشددين أو المتزمتيين Puritanists وسمى المذهب أيضا باسم التزمت Puritanism ثم جاءت حركة توماس كارنت رايت T.Carent write العنيفة التى دعت إلى استئصال كل هذا النظام الكنسى لتحل محله مذهب كالفن ، مع بقائه مذهبا انجليزيا ، فهى اذن ماتزال بريسبتارية جديدة وأهم ما جاء به هو أن يترك للشعب اختيار راعى الكنيسة ، واختيار الرهبان الذين يساعدونه فى ادارتها... وعمله فى الواقع محاولة لوضع نظام جديد ، ولم ينجح فى دعوته وأحبط مشروعه إلا من قلة من الشعب ، واعتبر انقساما على أى حال ، وبعد مدة غير طويلة شرع نظام قريب منه مستمد أيضا من كلفن وكان أيضا صارما .

انتشر هذا المذهب انتشارا واسعا بعد الحرب الثانية ، وساعد على امتداده مابذلت له الولايات المتحدة من مساعدات ، فقد أرادت أمريكا بعد هذه الحرب أن يكون لها فى العوالم الشرقية ما كان لانجلترا من قبل ، ورأى الانجليز من جانبهم أن الدعوة الشيوعية المادية تحاول أن تتخذ لها مكانا فى الشرق فبذلت جهدا أكبر لمساعدة الكنيسة البريسبتارية ولأنها أيضا انجليزية النشأة ، وفى الواقع كانت هذه الجماعة تمتاز بنشاط كبير لنشر دعوتها فى الشرق ومن قبل الحرب الثانية كانت موجة امتدادها مستمرة ، ولكنها بعد الحرب ظفرت بمعونات هائلة ، من الأموال ومدت بفتيات وفتيان وأساتذة ، ولكنها مع كل ما كان يأتيها من الخارج من امداد اتخذت موقفا استقلاليا ووجهت نفسها بنفسها ، أو على الأصح أراد لها

مساعدوها من الأمريكان والانجليز والكنائس القديمة أن تكون مستقلة ، وهذا هو الاتجاه الذى تنزع اليه الكنائس العديدة ، ولهذا ترغب كلها أن يكون لها رؤساء من المواطنين ، وهذا الاستقلال لا يؤثر فى المعونات المبذولة بل هى متدفقة دائما. والخطوة الجديدة أن هذه الكنيسة فى عدد من أقطار الشرق الأدنى والأقصى ، اتخذت وحدة مع المذهب البروتستانتى فى دعوتها وأغضت عن الفروق التى بينهما .

ومذهب كلفن فى جملته يعتمد على الأسس الأولى للمسيحية ، وهى أن سمو المسيح شىء قرره الله لمساعدة العقيدة وانعاشها ونشرها ، وهى قد ثبتت بموت المسيح على الصليب وهذه النهاية أعلنت بوضوح أن الله قد وفى بما وعد ، وأن بنى آدم قد أتموا الخلاص وعفى عن اثمهم ، ولكنها أيضا تدعو جميع الناس أن يتسلموا هذه الرحمة المهداة ، وأداء العشاء الربانى يعنى اعتقاد الشخص أن الله حقا قد أدخر له شيئا فيه ، وأنه تسلم فيه العفو والرحمة وأنه سيظل على صلة بربه أما الخبز والخمر فليس لهما أثر كبير سوى الرمزية والذكرى التاريخية والاعتقاد بأن المسيح يكون حاضرا أثناء العشاء الربانى كما يكون حاضرا أثناء الدعوة والوعظ أو التعميد . وحضوره يعنى أنه مع أتباعه ومصاحب لهم فى أعمالهم . وحيث أن المسيح هو الذى سن هذا العشاء فيجب أن يكون مستمرا ، والعشاء عند كلفن يقدم على مائدة رمزا إلى أن الله يقدم للانسان معرفته ورحمته ، وليس الانسان هو الذى يقدم لله عبادة أو قربانا .

ومعظم مبادىء كلفن قبلت لدى البروتستانت والبريسبتاريين .

وهذه الكنائس تأخذ فى أفريقية وآسيا وعلى الأخص جزر أندونيسيا حظا كبيرا من الكثرة ومن النشاط .

والكنائس الانجليزية العديدة تلاقى تشجيعا وارسالياتها فى المستعمرات البريطانية تمد بمعونات طائلة ، وكل فروعها تحظى برعاية الحكام البريطانيين ، وهم من جانبهم يمدون بلادها بتقارير خافية ومعلومات دقيقة عن الشعوب التى تعيش فيها .

أشهر وأهم الكنائس الانجليزية

تفرعت من الكنيسة الانجليزية الأساسية التى سبق ذكرها فروع أهمها مايلى:

١ ـــ الهيئة الانجليكانية :

هيئة دينية ذات قومية ولها كنائس مستقلة انفصلت من الكنيسة الانجليزية ، ولكنها تتبع رئيس الكنيسة التى فى كانتبرى ، وذلك بمقتضى اتفاق حدث خلال القرن السادس عشر ، وقد صدر فى النصف الثانى من هذا القرن كتاب يسمى « الصلوات العامة » وفيه تفصيل شامل لتاريخ هذه الهيئة وتعاليمها ـــ واسمه بالانجليزية « العقائد والوضع الاخلاقى » Bebeves & Ethical Position .

٢ ـــ الكنيسة الافانجليكانية Evanglican Church :

أسسها يعقوب البرايت (البريخت) فى بنسلفانيا ، سنة ١٨٠٠ ، وكان قانونها ومنهج تعليمها يعتبر إلى حد كبير صورة من منهج النظاميين ـــ (الميثوديستس) ثم دخله بعض التغيير سنة ١٨٠٨ حين مات مؤسسها البرايت وفى سنة ١٩٤٦ قامت جماعة الاخوة المتحدة فانضمت هذه اليها .

٣ ـــ اتحاد الافانجليكان :

وأتباعه يسمون أيضا « الموريسنيون » Morisonious نسبة إلى مؤسسها موريسون وهى نشأت فى اسكوتلاند سنة ١٨٤٣ ، شارك فيها جماعة من كبار القسس ـــ ولها مبادىء وعقائد خاصة أهمها الايمان بحرية الارادة فى الانسان ، وعالمية التوبة التي نادى بها من قبل علماء مسيحيون ، أى أن كل شخص يستطيع أن يطهر نفسه بنفسه فلايحتاج المذنب إلى قسيس يعترف أمامه ، وكان مؤسسوها على اتصال بكبار القسس ذوى الاجتماعات المسكونية الذين يؤمنون بمبادئها ولكنها فى سنة ١٨٩٦م انضمت بمعظم كنائسها إلى الاتحاد الجماعى ، ولايزال بعض منها على استقلاله .

٤ ـــ الانجليكان والكنيسة المجددة Englecan & Afomed Chuch :

هذه هيئة بروتستانتية حديثة ، ألفت فيما بين عامى ١٩٣٤ ، ٤١ ، قامت

فى أمريكا الشمالية ، واتحدت مع الكنائس ذات الاجتماعات العامة ، ومبادئها وأسباب قيامها لم توضح جيدا فى دوائر المعارف التى ذكرتها ، ويبدو أن غرضها هو انشاء وحدة بين الكنائس والجماعات لتكون ذات أثر تبشيرى .

٥ ـــ اتحاد الاخوة الانجليكانيين :

وتسمى الاخوة المتحدة فى المسيح ، وأهم ما قامت عليه هو عالمية الدعوة المسيحية عملا بما جاء فى الاناجيل من دعوة المسيح تلاميذه أن يبشروا جميع الأمم ، وقد ذكرنا قبل ما جاء فى آخر انجيل متى من وصاته ، وهى : فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس ، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيكم به وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر ، آمين .

وقد رأت هذه الجماعة تنفيذا لمبدئها أن المبشر الانجليكانى لايكون مرتبطا دائما بما فى اقليمه أو بلدته من نشاط كنسى ، لأنه عالمى يدعو فى كل مكان ، واسم الاخوة كان يطلق من قبل على الدعاة الذين جاءوا بعد الرسل وكانوا يقرأون الاناجيل ويشرحونها للناس فى الصلوات العامة .

٦ ـــ اخوة بلايموث :

جماعة حديثة سميت باسم البلد الذى قام فيه أول اجتماع لها ، وفكرتها الأولى بدأت فى دبلن فيما حول سنة ١٨٢٥ ، قام بها جماعة من الشباب المثقف ، أحبوا أن ينتموا إلى الكنيسة ويندمجوا باللاهوتيين والأساقفة من غير أن يتقيدوا بتعاليم طائفة معينة وبرغبة فى اعادة البساطة إلى الكنيسة وصبغها بصفاتها الأولى ، وعقد أول اجتماع لهم فى مدينة بلايموث (بانجلترا) سنة ١٨٣١ ، وتسمت باسم هذه المدينة .

كان قائدها البارز هو بنيامين ولزنيوتن B. Willsneuten . ومعه صديقه صمويل بريجللرز Samuel Bridenex Tregellers ومعهما اخوان لهما ، وظلت حركتها بطيئة حتى سنة ١٨٤٥ ، حين عاد إلى انجلترا جون نلسن داربى (١٨٠٠ ـــ ٨٢) وكان قد أمضى نحو سبعة أعوام خارج انجلترا لدراساته اللاهوتية (١٨٣٨ ـــ ٤٥) فاكسب هذه المجموعة نشاطا وحيوية ، فنمت بسرعة واتخذت لها فروعا فى أنحاء

الجزر البريطانية وفى القارة الأوروبية كلها خصوصا فى فرنسا وسويسرا ، ولكن أعمال داربى سببت انقساما فى الجماعة إذ كان له اتجاه يخالف اتجاه نيوتن ، فانضم فريق إلى هذا وآخر إلى ذاك ، ولا تزال الجماعة كلها قائمة باسمها الأصلى.

هذه أهم الجماعات التبشيرية التى لها ارساليات فى العوالم الشرقية ولها أيضا كنائسها فى الغرب .

وفى شرق القارة الاسيوية وجزر اندونيسيا والفلبين ، وفى قارة استراليا وأمريكا الجنوبية والوسطى ، وغابات المسيسبى ... يحظى المذهب الانجليكانى وفروعه بكثير من القوة والثبات ، وتحظى ارسالياته بامدادات سخية من أمريكا ، ومساندة من بريطانيا العظمى ولهذه الارساليات عمل آخر سياسى من طريق مباشر وغير مباشر ، وهو مقاومتها التيار الشيوعى الذى تمده روسيا بامداداتها السخية أيضا.

ومع أن الاسلام من جانبه مقاوم للشيوعية ، لا تستريح اليه الارساليات ولاالحكومات التى تساندها ، ولا الشيوعية وأعوانها ، وهذا أمر طبيعى ، لأن الاسلام مقاوم للاستعمار مقاوم للشيوعية وطبيعته وأفكاره لا تتفق وأفكار المسيحية ، وحقا أنه ليس عدوا للكتابيين ولكن الكتابيين يحاربونه ويجدون فيه عائقا كبيرا .

ومن هنا تنضم الصهيونية إلى أعداء الاسلام ، وتجد من الأوفق أن تساند الارساليات إذا دعا الأمر ، لا حبا فيها ولكن كراهة للاسلام .

وهناك جماعات أخرى صغيرة منها ما هو مستقل ، ومنها ما تفرع من الجماعات الكبيرة ولكنه خالفها فى بعض الآراء مع تمسكه بأصولها الأولى ومؤسسيها ، وفيما ذكرناه كفاية .

جيش الخلاص

Salvatim Army

ليست هذه الطائفة جماعة مستقلة ذات مذهب خاص ، فهى تابعة للمذهب الانجليكانى ، ولكنها منظمة دينية تقوم على الاحسان وعمل الخير للانسانية . أسسها وليم بوث W. Booth فى سنة ١٨٦٥ ، وبدأت بداية متواضعة فى لندن ثم أمتدت تدريجيا حتى كان لها فروع فى أنحاء العالم كله ، واتسعت أعمالها الخيرية اتّساعا كبيرا وتنوعت فروع نشاطها .

كان بوث خطيبا ، وقد بدأ دعوته بعقد لقاءات تبشيرية فى الأمكنة العامة فى لندن ، فكان يخطب فى الشوارع والحدائق وصالات الموسيقى والمسارح وحيثما وجد مجمعا من الناس أو فرصة للخطابة أعلن فكرته وشرحها . وثابر على هذا النشاط والناس بين مستمع إليه ومعرض عنه ، ولكنه مع مثابرته أُلِفَ وتكون له أتباع . وفى سنة ١٨٧٨ حيث كثر الأتباع شرع فى تكوين منظمته ، فوضع أسسها والقانون الذى تقوم عليه . وكانت فكرتها حينئذ قد عرفت وانتشرت فى أنحاء الجزر البريطانية .

اختار لها اسم « جيش الخلاص » لأن رسالتها فيما حددها هى تخليص الناس من الاثام وهدايتهم إلى الحق عن طريق البر ومساعدة المحتاجين أيا كانوا ، ووضع لها نظاما حكوميا أدنى إلى العسكرية . فهو بحكم موقفه كان الرئيس الأعلى لها ، وله نائب وولى عهد ، وكان ابنه الأكبر ، ويسمى وليم أيضا — هو ولى عهده فى حياته ويتولى منصبه فى الوقت المناسب بموافقة الجمعية عليه ، وكان له سكرتير أو وزير للشئون الخارجية ، وسفراء ورؤساء للجماعات الفرعية يوكل إليهم تبليغ القرارات التى يتلقاها من الهيئة العليا .

ونظام الحكومة نظام أوتوقراطى يقوم على الطاعة العمياء بدون أى مناقشة ويخضع له كل الطبقات المنتمية إلى الجمعية لا فرق بين رفيع ووضيع ، وقسمت البلاد إلى مناطق كبيرة ، وكل منطقة بها عدد من المراكز الفرعية ، ولكل مركز

رئيس ، وهؤلاء الرؤساء يخضعون لأمرة رئيس الاقليم ورؤساء الأقاليم يتصلون بسكرتير الشئون الخارجية ويتلقون منه القرارات والتعاليم ، ثم يوزعونها على أتباعهم وبكل كنيسة جنود يختارون من جميع الطبقات ، وكل جندى — فضلا عن كل رئيس داعية مكلف بالاعلان عن المؤسسة والدعوة لها . وأهم ممارساتها الروحية هو تأكيد وجود الاثم فى ذرية آدم منذ ارتكب خطيئته الأولى . ثم إزالة المسيح هذه الخطيئة بدمه ، والواجب الاسمى لديهم هو تكريس الداعية حياته لتخليص الآخرين من آثامهم واعدادهم للتوبة وعمل الخير .

وممتلكات الجمعية فى لندن مخصصة لخدمتها وأداء أغراضها تحت اشراف الرئيس العام ، أما فى الاقاليم فهى تحت إشراف رئيس الاقليم ، ويختلف النظام العام بين إقليم وآخر تبعا لظروف البيئة وحال الشعوب ، ونجحت الجماعة واستهوت دعوة الاحسان التى تدعو إليها كثيرا من الأغنياء والفقراء .

وعندما مات مؤسس الجماعة وافقت الجمعية العامة على تثبيت ابنه .. وليم براموبلى بوث فى منصب الرياسة طبقا للدستور الذى وضع سنة ١٨٧٨ ، ولم يكن للرئيس الجديد مثل كفاية أبيه ، لذا تذمرت الجماعة وقررت إقالته ، وفى سنة ١٩٠٤م انعقد المجلس العام وكان من بين أعماله إقالة هذا الرئيس لعدم كفايته ، ولكنه لم يقبل هذا القرار ، ورفع الأمر إلى الملكة فقضت ببطلان القرار لأن الرئيس لم يعلن به ، ولم يكن لا هو بنفسه ولا ممثل له حاضرا للدفاع عن نفسه، فظل فى منصبه على غير ارتياح له من المجلس ، ولذا ما لبث المجلس أن كيف موقفه تكييفا قانونيا ، وقرر إقالة بوث الثانى وانتخاب أدورد ج. هيمنس رئيسا عاما للجماعة ، ومرة ثانية لم يوافق بوث ، وقرر مواصلة نضاله لاستعادة منصبه ، ولكن المنية عاجلته .

وفى سنة ١٩٤٣ م ، انتخبت ابنة وليم بوث مؤسس الجماعة ، رئيسا عاما ، وكانت من قبل رئيسا للجماعة فى أمريكا ، وكان أتباع الجمعية هنا وهناك قد آلمهم خلو الرياسة من أسرة مؤسسها وكان لذلك أثر على نشاط الجماعة ، كما أنها نالها بعض الفتور خلال الحربين العالميتين شأن المنظمات الأخرى ، وبعد الحرب الثانية

أعادت الجماعة نظامها ، وعنيت فى نظامها الجديد بتعليم الناشئين من الجنسين واختيار معلمين من الجامعيين لهذا الغرض .

وتدريجيا اتسعت أعمال الجماعة وتعددت فروعها خارج ، انجلترا وزاد عددها أكثر فى أمريكا وشرق وجنوب آسيا ، وكانت مستشفياتها واستعدادها لعلاج الأمراض المستعصية مثل الجذام والدرن الرئوى بجانب الطب للأمراض الأخرى مما رغب فى الانضواء إليها وبذل المعونات لها ، وساعدتها أولا حكومة انجلترا ثم الحكومات العديدة الأخرى .

وظلت أعمالها الروحية مقتصرة على الدعوة إلى دخول الافانجليكان ، وهذه الدعوة ـــ ربما نظرا لأسباب تاريخية ـــ لا تلقى إقبالا واسعا ، وربما قام الكاثوليك بدعاية ضدها ، ولكن أعمالها الخيرية اجتذبت إليها الكثيرين ، وخصوصا الشعبيين ، وكانت هذه الأعمال منوعة حسب البيئات والظروف ، فقد تكون مجرد وجبة طعام أو إفطار خفيف وقد تكون إيواء غريب لايجد مأوى أو تعليم من لايجد سعة ليقتضى وقتا فى التعلم كما عنيت أكثر بالأيتام والمشردين ومجهولى الآباء والأمهات غير الشرعيات ، ومما يذكر فى هذا الصدد أن زوجة « بوث » الابن كانت القائمة بترتيب هذه الأعمال والمسئولة عنها منذ عهد زوجها واستمرت بعده حتى سنة ١٩١٢ .

ودعوتها التبشيرية تقوم على هذه الخدم الاجتماعية ، وتلقى الآن نجاحا ولها الآن ارساليات تبشيرية فى مختلف أنحاء العالم . وهى تدخل المسيحية أعدادا كبيرة من اللقطاء وأولاد الشوارع والفقراء .

(٩) طوائف مستحدثة

هناك طوائف مستحدثة حديثة النشأة وليست بذات نشاط تبشيرى واسع، ولكنها آخذه فى النمو تدريجيا ولكل منها خصائص ومعتقدات . وقد سبقت الاشارة إلى بعض منهم ، ونوجز القول هنا عن بعض ممن لهم أهمية .

(١) جماعة المورمون

نشأت هذه الجماعة فى أمريكا أوائل القرن التاسع عشر ، ويبدوأنها آخذة فى النمو السريع فقد قرر مؤرخ الأديان الكبير كلت E.E. Kellet عدد أتباع هذه الكنيسة فى كتابه الذى طبع لأول مرة سنة ١٩٣٣ م بنحو مليون شخص ، وكانت المدة التى مرت على نشأتها تزيد قليلا عن مائة عام ، وفى بعض منشوراتهم التى وزعت هذا العام أن عددهم نحو خمسة ملايين . فقد زادوا حول أربعة ملايين فى نصف قرن أو نحوه [١] .

وأهم ما يعنينا هنا هو نشاط هذه الجماعة التبشيرى ، ولكننا مضطرون أن نلخص حياة المؤسس الأول لهذه الجماعة أو النبى الذى جاء بكتابها المقدس ، على حد تعبيرهم واعتقادهم ومؤسسها هو يوسف سميث الذى يسمى النبى الأبيض ، لأنه أمريكى وليس شرقيا كالأنبياء السابقين .

من يوسف سميث :

ولد هذا الطفل الأمريكى من أبوين أمريكيين فى مقاطعة نيويورك فى آخر سنة ١٨٠٥ ، فى شهر ديسمبر وهو الابن الثالث لهما ، وأسرته متدينة ، وسمى باسم يوسف ، تيمنا بيوسف الصديق — عليه السلام — وكان جده لأبيه يحمل هذا

(١) فى صيف سنة ١٩٦٦ زار مصر فوجان كبيران منهما . ودعيت من وزارة الأعلام لالقاء محاضرة عليهم فى فندق شبرد ، فأملونى بمجموعة من كتبهم ، ولا تختلف المعلومات العامة بها عما فى كتب الأديان التى تحدثت عن هذه الطائفة الا فى التفاصيل الدقيقة كوصف الملاك التى تمثل ليوسف سميث وعدد مرات رؤياه وتفاصيل طقوسهم ، وصفات سميث وزواجه وأسرته ، وأهم ما فى هذه المجموعة هو كتابهم المقدس .

الاسم ، وكانت الأسرة فقيرة تشتغل بالزراعة ، ويبدو أن ضيق المعيشة هو الذى حملها على ترك قرية فرمونت Vermont التى ولد بها يوسف إلى مدينة منشستر ، عندما كان الطفل فى العاشرة من عمره ، وكانت منشستر تمتاز بنشاط دينى وتنافس بين المذاهب ، ولم تكن العقائد التى تحمسوا لها ذات قرار فى نفوسهم ، وإنما هى حماسات ظاهرية ولذلك لم تلبث أن خمدت ، ولكنها تركت فى نفس الصبى بلبلة وحيرة ، بل أن الكبار أيضا كانوا على غير استقرار ، ولذا خلا الميدان لمهاترات القسس واتهام كل منهم الآخر ، ويظهر أنه نتيجة لهذه البلبلة تحولت أم الطفل وثلاثة آخرون من الأسرة إلى البريسنبتارية . وكان هو مايزال صبيا فى الرابعة عشرة من عمره ، وكانت حيرته واضطرابه بين هذه المذاهب قد جعله دائم التفكير فيما يقولون ولايدرى أيها الصحيح ، وصادف أنه قرأ فى بعض الأسفار المقدسة هذه العبارة « إذا كان أى شخص تنقصه الحكمة ، فليتجه إلى الله الذى يمنح كل العباد إنارة العقل ، ولايمنحها غيره ، وسيجد هذه المنحة » .

هذا ما جاء فى مذكراته ، ولم يذكر أين وجد هذا النص ، ولكن العبارة كانت بالغة الأثر فى نفسه ، وملكت عليه كل وقته وتفكيره ، وبينما كان فى احدى الحدائق أو الغابات هبط عليه الوحى لأول مرة : ملكان مضيئان وقفا أمامه ، وقال له أحدهما أن كل هذه الطوائف على خطأ ، وأنه يتحتم عليه ألا يتقبل أيا منها ، ثم انصرفا ، وشعر بالاجهاد والاضطراب ، وعاد إلى بيته فلما سألته أمه عما به أخبرها ألا شيء إلا أنه تهدى من تلقاء نفسه إلى أن المذهب البريسبتارى مذهب فاسد ثم قابل قسيسا منتميا للمذهب النظامى « الميثوديزم » فتحاورا حول هذا المذهب ولم يسع يوسف سميث إلا أن يخبره بما رأى فقال القسيس إنه لم يكن الا شيطانا لأن الوحى قد انقضى زمنه وشاع حديث هذه الرؤية فاحتقره قوم وكذبه آخرون ولكن أباه صدقه وقال إنه وحى من الله . غير أن هذا الحادث أثار ضده وضد أسرته كلها كراهة واضطهادا ..

وبعد ثلاثة أعوام عندما كان فى الثامنة عشرة من عمره ، تجلى له هذا الملاك فى حجرة نومه ، فأخبره أنه رسول من الله إليه ، وأن اسمه مورونى Moroni . وأن الله يدخر له رسالة يقوم بها لجميع الناس فيمدحه بها بعض ويعيبه آخرون ، ثم أخبره

أنه يوجد فى التل القريب منه كتاب قديم محفور على لوح من الذهب وهو أثر من الأمة القديمة .

هذه هى بداية النبى ، وقد تكررت هذه الرؤى فأثارت حوله ضجة وسببت له متاعب حتى اضطر هو وأتباعه أن ينتقلوا من مكان إلى آخر فيجدون فى كل بلد أتباعا قليلين وأعداء كثيرين ، وأخيرا فى سنة ١٨٤٤ قدم للمحاكمة ، وقد سجل فى مذكراته حين قبض عليه مع أخيه حيروم Hyrom أنه يعرف أنه كالحمل الذى يساق إلى المذبحة ، ويظهر أن قتلهما كان مدبرا ، فقد دخل عليهما أشخاص طليت وجوههم بلون أسود فاغتالوهما معا . وبهذا اعتبرهُ أتباعه شهيدا .

هذه هى نهاية النبى الأبيض ، وهو يختلف فيها عن جميع الأنبياء ، أوحى إليه صبيا فى الثامنة عشرة ومات قبل أن يصل إلى الأربعين .

قصة كتاب المورمون المقدس :

كتب يوسف سميث حياته ووصف حيرته واضطرابه أمام اختلاف الكنائس ثم تلقيه الوحى ثم تبشيره بدعوته حتى اقتياده إلى المحاكمة وشعوره بأن هذا الموقف آخر حياته ، وجميع المعلومات التى دونت عنه وعن أسرته مستقاة من هذه المذكرات . وجاء فيها وصف لكتابه المقدس الذى كان دفينا تحت التل .

أخبره الملاك مورونى أنه يوجد مع اللوح الذهبى لوحان آخران من الحجر الشفاف يحيط بكل منهما إطار من الفضة ، اسم أحدهما يورم Urim . واسم الآخر ثيوم Thummim والغرض منهما هو المساعدة على ترجمة الكتاب ، وهذه الاسماء من لغة أمة قديمة قد اندثرت ، وأخبره أن هذه الأمة البائدة التى كانت تمتلك وتستعمل اليورم والثيوم كانت تعرف باسم سيرس Seers واقتبس له قطعا من العهد القديم ، ولكنها ليست منطبقة تماما على باقى الكتاب المقدس الشائع بين اليهود والمسيحيين .

ومما اقتبسه له نبوءة ، ملاخى التى تنص على أن الرب قبل أن ينزل إلى الأرض ليحكم هذا العالم سينزل النبى أليجا ليوحى بالقسوسية ، ويبث فى قلوب الأطفال

مواعيد الله لآبائهم ، ويحرق الشريرين نهائيا لهذا لاينزل الرب إلا والأرض كلها طاهرة . (أنظر الاصحاحين ٣ ، ٤ ، من ملاخى) .

ولكن الملاك عندما عرفه مكان الألواح واقتبس له ما شاء من العهد القديم أخبره أن الوقت لما يحن بعد لاستخراج الألواح ، وأنه عندما يحين هذا الوقت يستخرجها وحده ولا يطلع أحداً عليها ، وإلا هلك .

وهذه فى الواقع نقطة ضعف ، وقد حدث أنه حين استخرجها اصطحب معه ثلاثة شهود ، أذن له فى ذلك .

وقصة استخراج الألواح كما نقلت من مذكراته أدنى إلى القصص الروائى ، فقد ذهب إلى الجبل وقريبا من قمته وجد الصخرة التى وصفت له وقد دفن بعضها فى التراب فأزاله منها ، ثم استعمل رافعة حركتها فوجد الألواح تحتها ولكنه لم يستطع اقتلاعها ، وأخبره الملاك أنها لا تقتلع إلا بعد أربعة أعوام ، ولكن عليه أن يحضر كل عام فى الوقت نفسه ليرى الألواح ويقابل الملاك فى المكان نفسه . وقد ظل يتردد على هذا المكان ويرى الحجر والألواح حتى جاء الوقت المعين .

تقدم الملاك فانتزع الألواح ووضعها فى يد سميث . وحذره من ضياعها أو التفريط فيها والا سيكون جزاؤه أن يقطع اربا اربا، ولكن عليه أن يستفيد منها حتى يأتى الملاك فيتسلمها منه . وقد حدث فعلا أن جماعة من جيرانه حاولوا اغتصابها منه فلم يفلحوا ، وظلت لدى سميث حتى حان الوقت المعين وجاء الملاك فأخذها.

أما الترجمة فلها أيضا قصة أخرى .

قضى يوسف سميث عامين — وهو تحت أعباء معيشته ومضايقات أعدائه — يعمل مع زوجه ، وأنضم اليهما صديق فترجموا قدرا من هذه الألواح بلغ ١١٦ صفحة ، ولكن هذا الصديق الذى بذل معهما هذا الجهد كان مهملا فضاعت الأوراق كلها منه، ثم أتيح له صديق آخر من أساتذة الجامعة تعاون معه فى ترجمة الألواح بدقة حتى ترجمت كلها .

ولم تذكر المراجع نوع اللغة التى كتبت بها الألواح ولا كيف اهتدى المترجمون إلى أبجديتها (١) .

وجاء فى المذكرات أن الملاك إذن له باطلاع ثلاثة أخرين على الألواح ، فأحضر شخصا ثالثا مع مساعديه الأولين . ثم ذهب ثلاثتهم إلى الغاية يُصَلّون ويضرعون إلى الله حتى رأوا نورا يسطع عليهم وسمعوا صوتا يقول لهم : « هذه الألواح كانت وحيا بقوة الله ، والترجمة التى قمتم بها صحيحة . وإنى أوصيكم أن تسجلوا كل مارأيتم هنا وما سمعتم » ومن ذلك كان كتاب المورمون » سنة ١٨٣٠(٢) .

وكتب الثلاثة وثيقة أشهدوا فيها على أنفسهم أنهم رأوا ذلك كله وسمعوه . ثم كان عليه وعليهم أن يذيعوا الكتاب وتعاليمه بين الناس . ومن هنا بدأت الرسالة تمتد فى حياة سميث وبعده .

هذا الملاك كان نبيا لأمة تسمى نيفايت Nephite . وكان بها أنبياء قبله وهو آخرهم . وكانت هذه الأمة تعيش فى أمريكا ، وهو آخر شخص له كتابة فى كتاب المورمون . وهو الذى دفن الكتاب فى الجبل . وقد بعث فى الوقت المناسب ليحيى هذه الرسالة ، وكان أبوه أيضا نبيا يسمى « مورمون » ، وهو الذى حملت الجماعة اسمه .

ماذا فى كتاب المورمون :

يتحدث الكتاب أساسا عن قبائل يهودية هاجرت من فلسطين إلى أمريكا لأسباب وأحداث دعت إلى هذه الهجرة ، وقد حملت هذه القبائل المهاجرة معها كتبها الدينية ، وأقامت عليها هناك ، وكان بين كل قبيلة أنبياء ، يوحى إليهم كأنبياء العهد القديم فى فلسطين ، ومن هؤلاء المهاجرين من أقام على ديانته ، ومنهم من أهملها حتى ذهبت الرسالة منهم نهائيا وكان آخر الأنبياء يسمى « مورمون » ، فحملت هذه الجماعة اسمه لقبالها فقط أما اسمهم الأصلى فهو « قديسو اليوم الآخر » The Latter day Saints .

(١) جاء فى نشراتهم أن « يورم » و « ثيوميم » آلات مساعدة على الترجمة ، ذكرت فى العهد القديم ، وقد استعملها هرون أخو موسى ليتلقى بواسطتها وحيا من الله What is the book of Mormonl .

(٢) أنظر The Reljious Expiricuce of Mankind .

والكتاب على نسق الكتاب المقدس كتب بأيد عديدة . فهو أسفار، وكل سفر يحمل اسم النبى الذى كتبه ، وهو فى نظرهم كله من كلام الله . ويتكون من خمسة عشر قسما رئيسيا كل قسم به عدد من الأسفار . وليس الغرض منه أن يحل محل الكتاب المقدس ، ولكنه ملحق مكمل له . فالكتاب المقدس — بقسميه — ينقصه ما كتبه الأنبياء الذين كانوا فى أمريكا ، ولذلك اعتبر المورمون جميع الكنائس فاسدة بسبب هذا النقص .

أما الهجرات اليهودية حسبما ذكر الكتاب فهى ثلاث هجرات :

الهجرة الأولى لقبيلة تدعى جريدتس Jeredites وكانت من نحو أربعة آلاف سنة ، بعد بلبلة الألسن عند بناء برج بابل . ففى هذا الوقت أمر الله هذه الجماعة أن ترحل بقيادة شخص يدعى جارد Jared كان يساعده أخ له ، فتجولا بقومهما على نحو ماحدث لموسى وهرون بعد خروجهما ببنى اسرائيل من مصر . حتى وصلا إلى ساحل المحيط فأمرهما الله ببناء سفينة كبيرة حملت القوم جميعا وأبحرت إلى أمريكا ، وهناك استقر القوم وأسسوا حضارة استمرت نحو ألفى عام . ثم دبت بينهم الخلافات ونشبت حروب داخلية دمَّرت هذه الحضارة ، وتحول القوم بعد ذلك إلى همج كان منهم الهنود الحمر الذين وجدهم الأوروبيون عند كشفهم القارة الأمريكية .

والهجرة الثانية كانت قبل ميلاد المسيح بنحو ٦٠٠ عام عندما غزا البابليون مملكة يهوذا فى عهد الملك صديقيا (Zedikia) (٥٨٦٨ ق . م) . وكان نبى هذه الجماعة يسمى ليهى Lihi. وقد تجول بقومه على نحو مافعل جارد . ثم أبحر إلى أمريكا أيضا . وهناك أقاموا لهم حضارة ودينا .

والرحلة الثالثة قامت بعد سابقتها بزمن غير بعيد ، قادها ابن الملك صديقيا إذ لم يطق الاقامة فى فلسطين بعد أن حطمت مملكة أبيه وأسرته ، فلحق بالمهاجرين.

واندمج أصحاب الهجرتين الأخيرتين ، وكان فيهم أنبياء أيضا ، ولكنهم ظلوا يتناقصون بسبب الذين هجروا الدين وتحولوا إلى الحياة اليدوية الهمجية ، ثم تلاشى الجميع حضارة ودينا ونسيت الرسالة الموسوية من بينهم ، وكان آخرهم أنبيائهم

النبى مورمون .. وبعده ذهبت الحضارة نهائيا ، وكان هؤلاء أسلاف الهنود الحمر . وحدد فناء حضارتهم الدينية هناك بسنة ٤٢١ م ، وكان مورونى الذى دفن هذه الألواح ابنا للنبى مورمون كما سبق .

وتمت ترجمة الألواح سنة ١٨٣٠ وأعلنت الدعوة وأنشئت الكنيسة فى العام نفسه ، وأذيع الكتاب على أنه مستند ونصوص مقدسة من كلام الله .

ومن الفصول الهامة فى الكتاب حديثه عن ظهور المسيح فى أمريكا بعد قيامه من قبره وارتفاعه إلى السماء ، ويظن أن هذه الفصول من عمل سميث بمساعدة صديقه ريجدون (١) .

كذلك تحدث الكتاب عن العقيدة والعهود الالهية . ولعل ذلك كله بما قرأه صمويل بجدون .

الحكم على الكتاب :

يقدم المورمون أدلة على صحة الكتاب وصحة قصته كلها ، ومن أدلتهم أن ثلاثة من الناس اختارهم الله ليكونوا شهداء عليه ، وقد رأوا ألواحه كما رأوا الملاك نفسه فأكد لهم صحة ما فى الألواح ، بل سمعوا صوت الله فى غمرة وفيض من النور يعلن صحته (٢) ، كذلك أطلع سميث ثمانية آخرين على الألواح (٣) ثم يثيرون تساؤلات منها أنه إذا لم يكن سميث هو الذى ترجم هذا الكتاب فمن الذى ترجمه ومن أين جاء . ويضيفون أن سميث حين أعلن هذا الكتاب كان بين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين من عمره. وهى سن لا تؤهله لكتابة مؤلف ضخم يتألف من ٢٣٩ فصلا منها ٥٤ عن الحروب ، و ٢١ عن التاريخ ، و ٥٥ عن النبوة ، و ٧١ عن العقيدة ، و ١٧ عن الارساليات ، و ٢١ عن رسالة المسيح ثم هو يصف التاريخ القديم لامريكا لمدة تبدأ من ٢٢٠٠ سنة ق م حتى ٤٢١ م ، وهذا لايحدث من شخص واحد فى مثل هذه السن .

(١) See Killet p 537.

(٢) See what is the book of Mormer p. 4.

(٣) Ibid p 6.

وهكذا تستمر الأدلة فى هذا المحيط ، ولكنها أدلة تعتمد على الدعوة . .

أما معارضوها فيرون أنها ميثولوجيا لا حقيقة لها ، وأن سميث كان دجالا [١] ، ولعله كان مخالطا مضطرب النفس . ويقول نينياس سمرت [٢] إن تفسير هذه الأسطورة The Mythology يرجع إلى الجو الذى نشأت فيه ، ففى هذه البيئة كان اضطراب فكرى ، وخلافات دينية تؤذن بضرورة فكرة دينية جديدة تحل هذا النزاع ، وتريح الشعب الساذج من هذه الخلافات ، وقد كان يوسف سميث ذا شخصية قوية استطاع بها أن يوحى إلى عدد ممن حوله ويرغبهم فى اتباع مذهبه ، أما الكتاب الذى وجده فقد يكون من عمل بعض البرسبتاريين ، ثم أضيف إليه بعض الفصول .

والذى تتجه إليه النفس هو أن هذا الرجل ، وقد نشأ فى بيئة دينية ــ كان كما جاء فى مذكراته يعانى قلقا من ناحية العقيدة ، ثم كان تحول أبويه إلى مذهب غير الذى كانوا عليه مما زاده قلقا ، وقد كانت هذه الرؤى التى تراءت له نتيجة هذا القلق ، ويبدو أنها مجرد رؤى مناميه كانت أبسط وأقل من هذه الصور التى صورت بها ، والذين يكونون فى مثل هذا الوضع ينشأ حولهم عادة هالات من المجد ومبالغات لا أصل لها ، وهذا عام فى حياة الزعماء الدينيين وغير الدينيين .

ومما لم تحكمه الاسطورة أن الكتاب كان بلغة تجمع بين العبرية والمصرية القديمة ، ولم يكن قدماء المصريين يعرفون أنه سيوجد مسيح بهذه الصفات . وأخبار الكتاب كلها لا سند لها من التاريخ ولا يعرف من أى مصدر أن المسيح بعد رفعه ذهب إلى همسفير الشمالية (من مقاطعة نيويورك) . ومما لا ريب فيه أن زيادات وتحسينات كثيرة أدخلت على الفكرة الأولى ، وأن أتباع سميث خصوصا بريجهام . فعلوا ذلك [٤] والكتاب كما يقول كيلت بعيد من أن يكون من عمل الملاك أو من عمل سميث ، ويرجح أن أصله لقسيس خيل إليه أن القبائل الاسرائيلية التى فقدت جاءت إلى أمريكا وكان سميث بقوة شخصيته قد استولى

(١) kellet p 536 .

(٢) The Religieus Xperience of Monkind 637 .

(٣) Kellet p 537 .

(٤) Ibid .

على صموئيل ريجدون ، وهو شخص مثقف ماهر ، وكلاهما أضاف الكثير إلى الكتاب .

سير الدعـــوة :

أعلن سميث قيام الكنيسة الجديدة فى قرية من قرى سنيكا ، وهى مقاطعة فى ولاية نيويورك فى أبريل سنة ١٨٣٠ ، وقامت حولها العداوات من رجال الدين ومن الشعب ومن الحكومة ، فاضطر القوم أن يرحلو فاتجهوا غربا إلى ميسورى ، فقوبلوا بمثل الاضطراب الذى واجهوه من قبل فعبروا نهر المسيسبى إلى نوفو Nauvoo فى مقاطعة اللينويس Illinois فيكونوا قرية من نحو عشرين ألف شخص . نصبوا يوسف سميث حاكما عليهم ، وأقاموا معبدا أنيقا فاخرا ، كما أسسوا جامعة خاصة بهم ، وبعثوا بإرساليات تبشيرية إلى جهات عديدة حتى إلى أوروبا وإلى الشرق وكونوا لهم أتباعا هنا وهناك .

ومن جديد عادت الاضطرابات ، وقامت العداوات ضدهم ، ذلك لأنهم أقاموا دولة فى جوف الدولة ، ومن ناحية أخرى أن يوسف سميث فى سنة ١٨٤٣م أعلن إباحة تعدد الزوجة وكان ذلك مناسبا لهذه الجماعة ، لأنه يوافق ماكان لدى أنبياء العهد القديم . ولأنها طريقة ناجحة لزيادة عدد الجماعة ، ولأنه يقضى على عادة المخالة واتخاذ الخدينات ، ولكن هذا أثار الشعب والحكومة . فأمرت بالقبض عليه وعلى أخيه للمحاكمة ١٨٤٤ وقتلا غيلة قبلها كما سبق وأضفى هذا الاغتيال على سميث صفة الشهيد ، ولم يقض على دعوته بل زاد الاقبال عليها .

وتولى زعامة الجماعة شخص يختلف كل الاختلاف عن سميث . هو بريجهام يانج Brigham Young (١٨٠١ ـــ ١٨٧٧) . وهو لاهـوتى مثقف ذكى ذو إرادة حديدية وخبرة بالقيادة ، ثم هو بعد ذلك ذو نشاط واسع ، وصادف الجماعة وقد دب الخلاف بين أعضائها وانقسموا طوائف ، ولكنه بكل هذه الصفات استطاع أن يرأب صدعهم وأن يجمعهم فى وحدة ثانية .

والواقع أن شخصية ـــ يانج ـــ كما أحسنت قيادة جماعته سوغت للآخرين أن

يتهموه ويتهموا المذهب وقد زعم أيضا أنه يتلقى وحيا ، وأنه أمر أن يرحل بقومه إلى مكان آخر بجانب البحيرة المالحة Salt Leke وهى فى جهة نائية إلى الغرب قريبة من المكسيك ، بعيدة عن حكومة الولايات المتحدة ، وكانت رحلة شاقة بعيدة ، يدل قيام الجماعة بها على مدى طاعتهم وتقديرهم لهذا القائد الجديد . كانوا نحو خمسة عشر ألفا من الرجال والنساء والأطفال ، وقطائع مختلفة من الحيوانات ، قاموا بهذه الرحلة الشاقة البعيدة مع حرارة الجو وكثرة البعوض، (١) وأخيرا استقروا سنة ١٨٤٧ فى قرية يوتا Uta .

وسرعان ما نمت القرية وقامت فيها مزارع وبنى معبد كبير فخم ، ونمت المدينة وكونت حكومة مستقلة ثرية . غير أن بعض القديسين لم يعجبهم منهج يانج ، فاعتبروه وأتباعه مرتدين ، وطردوهم ، ولكن نشاط الارساليات نما أكثر .

ولم تظل الجماعة في عزلتها بعيدة عن أعين الحكومة فى الولايات المتحدة ، فقد أرسلت إليها رسلا بهم ضمت يوتا إلى الولايات . ولكنها أقرت يانج حاكما ، ثم مدت اليها خطوطا حديدية عبر الصحراء البعيدة ومهدت طرقا للسيارات ، وتحت رياسة الخليفة الثانى وودروف Wilford Woodruff تحولت إلى ولاية ، ولكن عادة تعدد الزوجة لم يقض عليها (٢) .

طبيعة الدعوة ومبادئها :

قلنا من قبل أن البيئة التى نشأت فيها هذه الدعوة كانت مقرا اضطرابات دينية وبها عدد من المذاهب مما جعل الناس يترقبون ظهور مذهب جديد ينأى عن هذه الخلافات، وكانت دعوة سميث استجابة لهذه الرغبة، وقد حوت لذلك سمات من اليهودية ومن الأدفنتست ومن غيرها وقد كان قديسو هذه الطائفة ينتظرون أرض المعاد وإلى مملكة الألف عام، ولا يرونها تكون فى فلسطين، بل فى القارة النائية التى لم يتسلط عليها حكام ولا ديانات ، ولعل هذا ما أوحى إلى كتابها أن السيد المسيح

(١) عند كيللت أن ذلك كان سنة ١٨٤٦ .

(٢) هذا ما نجده فى كل المراجع عدا كتاب كيللت السابق ، فقد ذكر أن سميث منع تعدد الزوجة وأن الذى أباحه هو خليفته ريجهام كما يذكر أن هذه العبادة انتهت سنة ١٩٤٠ ، والواقع أنها لا تزال موجودة حتى الآن .

نزل بهذه البلاد . وكان هذا مما حدا بهم إلى الانتقال مرة أخرى لأن الاقليم الذى هم فيه لا يلائم ما يتوقعونه ، ولا يصلح أن يكون بداية للملكة التى ينشدونها ، ورجالها الأولون كانوا يرون أنفسهم وأتباع المذهب من الشعب المختار ، وأنهم يمتازون فضلا عن صحة المذهب بأنهم عنصر ممتاز رفيع . وسبب هذا لهم متاعب ، اذ كرههم الناس ونبوا عنهم لتعاليمهم . ولكن الذين كانوا يرجون الخلاص اعتبروهم جيشه وانضموا إليهم وكان التبشير بمملكة المستقبل وقرب ظهورها من المرغبات فى اتباعهم أيضا .

وتعاليم المورمون شاقة جدا ، فهم يحرمون الكحوليات والتدخين والمنبهات حتى القهوة والشاى ،ومسألة تيسير الزواج وإتاحة تعدد الزوجة ساعدت على تكوين جماعة غاية فى الطهارة والنظافة ، مما جعل المنتسبين إليها بعيدين عن كل الشبه ، وتمتاز أوساطهم بالعفة والرواج المادى ، فهم يدفعون للكنيسة زكاة تبلغ العشر من مالهم ، والكنيسة توزعها على فقرائهم ، وقلما يوجد بينهم فقير .

وتمشى هذه الدعوة فى أمريكا لهذه المبادىء الصارمة ، ولأن معظم الأمريكان من الانجليز يسود بينهم المذهب الانجليكانى ، والنظامى (الميثوديزم) ، وفى البلاد الشرقية تجد هذه الدعوة قبولا ، وللمورمون الآن كنائس فى مختلف أنحاء العالم .

ومن طقوسهم أن الأرواح تظل حية وأن الشخص لذلك يعمد بعد موته ويتوب ويؤذن له عن هذا الطريق أن يدخل الكنيسة الحقة ، وهم يمارسون طريقة غريبة يسمونها الموهبة Endoment وهى ليست بعيدة عن المذهب المورفينى ذى الأسرار والتجسيم وسمات أرفيوس بادية فى أعمالهم وعقيدتهم(١) ، فهم يرون أن الله والشيطان وآدم وحواء أشخاص فى دراما مستمرة ، وهم يميلون إلى النظافة ولديهم أنواع عديدة من الاغتسال والتعميد ، والتصفيق بالأيدى وما إلى ذلك ، ولا يتم الزواج ولا يكون مباركا إلا من خلال هذه الموهبات the Endo ments . وبها يستطيع الشخص أن يرى والده الميت بدون أى خوف (٢) .

(١) أرفيوس شخصية أسطورية يونانية ، كان موسيقيا بارع اللحن ، حين ماتت زوجته تبعها إلى عالم الأموات ، وسمح له « بلوتو » وقد سحرته ألحانه ، أن يستعيد زوجته إلى عالم الأحياء بشرط الا يلتفت وراءه حتى يخرج ، ولكنه عند نهاية المسافة التفت ففقدها .

(٢) Kellet 538 .

والمعجزات والخوارق والوحى دائمة لديهم ، والقسس دائما يتلقون وحيا ويوجهون به ، والرتبة العليا بين القديسين هى رتبة ملكى صديق Malchisedeks أما الرتبة الدنيا — والدنيا هي رتبة هارون — فهى رتبة ويدخل فى الأولى الرسل والبطارقة . والقسس الكبار والقدامى ، وهم يقومون بالواجبات الروحانية وأما الهارونيون مع أن لهم روحانيات ، فمقامهم كمقام الشمامسة ، يعدون للشئون الوقتية .

(١) Inid :

(٢) الشيكرز « المجددون »

The Shakers

هذه التسمية جاءت من كلمة Shake ، الانجليزية وهى تعنى أن يهز بعنف أو يعيد بناء شيء من أساسه . وأطلقت التسمية على هذه الجماعة من باب السخرية والتهكم،ولكن الجماعة طاب لها أن تستبقى الاسم لها ، وهذا حدث فى كثير من الجماعات الدينية ، كما سبق مع آخرين ، وسبب التسمية أنها طالعت المسيحيين بأفكار وآراء جديدة ، ثم هى تدعو بقوة إلى التطهر والنقاء ، فناسب أن تسمى كذلك وأن يسمى أتباعها بالمجددين .

وهذه الجماعة ازدهرت فى أمريكا ولكنها نشأت وتأسست فى انجلترا سنة ١٧٠٠ م . وتمتد جذورها إلى جنوب فرنسا ، ففى هذا التاريخ هاجر جماعة من القسس ذوى الحمية والنشاط إلى انجلترا فكونوا مجموعة صغيرة فى مانشستر ، وحدث أن فتاة تدعى آن لى Aan Lee من مانشستر كانت تحس فى نفسها أنها ارتكبت آثاما ، ورأت فى منهج هذه الجماعة ما يمكن أن تتطهر به من آثامها فانضمت إليها فى سنة ١٧٥٨ ، وبانضمامها هذا تجدد نشاط الجماعة وتغير الكثير من أعمالها وتعاليمها. كانت « آن لى » فى الثانية والعشرين من عمرها. ومنذ دخولها هذه الكنيسة تراءى لها أنواع من الانكشافات والنبوءات ،ثم حدث أنها سجنت وعانت فى سجنها متاعب عنيفة من الجوع وسوء المعاملة، وفى هذه الأثناء زادت رؤاها ونبوءاتها . مما دعا رجال الكنيسة ،أن يتخذوها قائدة لهم . ولكنها تلقت وحيا يأمرها بالهجرة إلى أرض عمانويل Immaniel فى أمريكا فى مقاطعة نيويورك . فأزمعت رحلتها وبصحبتها تسعة أتباع . فاشتروا أرضا وأسسوا لهم بها كنيسة وأعلنوا مبادئهم التى من أجلها أطلق عليهم اسم Shakers . لأن نبيهم قال إنى سأهز جميع الأمم هزا ، وأن رغباتهم ستتحقق، وماتت آن لى سنة ١٧٨٤ واستمرت الكنيسة معروفة فى نيويورك وفى غيرها .

وأهم مبادىء هذه الجماعة أنها تدعو إلى المسالمة ، ولا تشارك فى أى حرب. وهى تلبى مطالب الحكومة فيما عدا الشئون الدينية . وهى تدعو للمساواة بين

المرأة والرجل . وفى مجتماتهم يقوم بالوعظ الرجال والنساء على السواء ، ويقومون برقصات دينية يشترك فيها الجنسان ولكن بعض كنائسهم تحتم عدم التصاق أجسام الرجال بالنساء فى هذا الرقص . كما أنهم فى كل مجتمعاتهم يفصلون بين الجنسين .

ومن ناحية العقيدة يرون أن الله هو الأب السماوى ، والأم السموية ، وأن المسيح ليس إلها وإنما هو ابن الاله ، وقد تجلى الله له كما تجلى لكثيرين وبهم تجلى لبنى الانسان . واذن فهو الأخ الأكبر لنا جميعا ولم تحل فيه روح المسيح الا بعد تعميده . وهو بهذه الروح ذكر وأنثى معا،ويوجد بنات لله فى هذا الكون كما يوجد أبناء له جميعا عمدوا بالروح القدس .

ولا تؤمن هذه الجماعة ببعث الأجساد ولا بأن المسيح سينزل إلى هذه الدنيا نزولا جسديا ، وإنما تنزل روحه . ولا يقرون التوبة والاعتراف أمام القسيس لأن كل شخص مسئول عن نفسه ، وهو يعاقب ويثاب طبقا لأعماله ، وقد منحه الله حرية الارادة فهو وحده يتحمل نتائج أعماله .

والجنة والنار حالات روحية يلقى فيها الشخص جزاء أعماله ، ولكن توجد حالة وسطية بعد الموت وفيها يستطيع الشخص أن يهيىء نفسه لمصير أفضل .

من هذا نجد أنهم روحانيون استمدوا أفكارهم من الكتاب المقدس بقسميه . ويرى بعض الباحثين أنهم امتداد للآسينيين ، وهم لذلك لا يقرون تثنية الاله ولا تعدده .

ولهذه الجماعة الآن كنائس عديدة فى الأمريكتين وفى الدنيا القديمة ، ولكن لايبدو أنها تتمتع بثراء ، ولا هى ذات قدرة على منافسة الأقران أو الخصوم ، كما أنها من ناحية ركونها إلى السلم تبتعد أيضا عن الخصومات ، وأتوقع لذلك أنها لاتطعن الاسلام أو على الأقل لا تغلو فى طعنها كما يفعل الآخرون . والله أعلم .

(٣) الروحانيون والاسلام

الروحانيون جماعة فلسفية تحولت بعد نشأتها ونضجها إلى جماعة مسيحية تبشيرية ، وكان مؤسسها الأول وأعوانه مسيحيين ، وبذلك اعتبرت جماعة مسيحية ، وهى فى واقعها أدنى أن تكون فلسفية ، وقد ظلت جماعة فلسفية نفسانية مدة طويلة،ثم تحولت إلى فرقة تبشيرية كونت لها كنائس وإرساليات .

ويرجع ظهور هذا المذهب إلى وقت قريب لايتعدى فى قدمه أوائل القرن العشرين ، ولكن يرجع أساس هذه الجماعة إلى جمعية البحوث النفسية التى أنشأها سنة ١٨٨٢ عالمان انجليزيان بارزان فى البحوث الروحية والنفسية هما فردريك مايرز F. Mayers ، وأدموند جيرنى Edmund Gurney ، وليس من الجديد به أنهما كانا من ذوى الايمان ، فضلا عن أن يكونا دعاة مبشرين بالانجيل . وكان تأسيس جمعيتهما لغرض فلسفى خاص هو إجراء بحوث موضوعية غير متحيزة فى عـالم الأرواح وفى ظواهر اتحاد الروح والمادة . وتأثير كل منهما على الأخرى،فانضم إليهما كثيرون لشهرتهما العلمية ، ولأن البحث فى جانب الروح الخفى لا يخلو من جاذبية ، ولأن حياة المسيح عليه السلام وتاريخ دعوته يقوم على نوازع روحية كثيرة فاعتبرت هذه الجماعة الناشئة جماعة دينية ، فنشأ لها كنائس ثم تكونت إرساليات تبشيرية،وتعددت كنائسها وامتدت فى جوانب العالم بسرعة جدا ، ففى أوائل الثلاثينات الماضية كان لها نحو ستمائة كنيسة فى أمريكا كلها ، ثم تخطت المحيط فأنشأت نحو أربعمائة كنيسة أخرى فى العالم القديم . ثم ظلت تزداد وتمتد ، ولعلها أن تكون الآن الفين أو نحوهما ، ولكن كما يقول عالم الديانات « كيليت » : إن قوتها لا تقاس بعدد كنائسها . ولكن بقوة الاشخاص الذين ينتمون إليها والقائمين بالدعوة لها ، وهم من المثقفين ودارسى الروحانيات ، والواقع أن قادتها هم المثقفون فقط ، ومعظم أتباعها من السذج الذين تبهرهم الظواهر وتأخذ بألبابهم الخوارق ، وأكثر الكبار المثقفين فيها يميلون إلى اعتبار جماعتهم جماعة علمية نفسية ، وأن الجانب الدينى فيها جزء من فكرها الفلسفى .

وهناك رافد أو أساس لعله أن يكون ذا أثر أوله الأثر الأكبر فى تكوين الجانب الدينى فى هذه الجماعة ، وهو أعمال الباحث الروحى الكبير أندرو جاكسون ديفز Andrew Jackson Davis وكان قد أخرج فى فجر شبابه كتابا له سماه الرؤى الالهية للطبيعة Natiur's Dine Rendetions أخرجه سنة ١٨٤٧ ، قبل أن تنشأ هذه الجماعة بنحو نصف قرن ، وقبل أن تنشأ جمعية البحوث النفسية بنحو خمسة وثلاثين عاما ، ونال هذا الكتاب رواجا واسعا حتى أنه نشر وطبع أربعين طبعة قبل أن تقوم هذه الجمعية ، وليس هذا الكتاب دينيا بحتا ولكنه ليس منفصلا عن الفكر الدينى ، فهو يقرر أن الانسان روح ومادة ، والحيوانات الأخرى كذلك . والروح التى يحيا بها كل حى متصلة بالله . والمادة — وهى الجسد — من الأرض . وهناك وسيط بين الروح والجسد هو الذى يربطهما . وهو النفس . لأن الجسم المادى لايحتمل الربط المباشر بالروح الذى هو قبس من الله ومتصل به ، والنفس فى الأصل شىء حى أما الجسم فهو فى أصله تراب ميت ، والنفس بجانب ربطها بين روح سام وجسم دنىء مادى هى عامل تصعيد وتسام للجسم . وهذا التسامى هو رفعه إلى ما يقرب من الروح .

والجسم حين يقوم بأعماله يبذل مجهودا يختلف قوة وضعفا بحسب العمل الذى يزاوله والزمن الذى يستغرقه ، فيفقد قدرا من نشاطه وطاقته فى هذه الأعمال. وتضعف بضعف جسمه نفسه التى تربطه بروحه ، وهو يشعر بالحاجة إلى الغذاء والراحة ، وبتمثيل طعامه تنشأ له طاقة جديدة يتقوى بها الجسم والنفس جميعا .

والنفس التى يتحدث عنها مادة أثيرية تطابق الجسم الانسانى فى ملامحه وشكله ولونه وأطرافه وطوله وعرضه ، ولكنها بكونها مادة أثيرية تتخذ من الجسم كساء لها ، فهى تلبسه كى تتصل عن طريقه بالعالم المادى ، كما تصله بالروح ، وبهذا التصور فسر نظريته فى الحياة والموت ، فالجسم الحيوانى المادى يحيا بوجود هذه النفس التى تربطه بالروح ، وإذا فارقته انقطعت صلته بالروح فيموت ، والكائن الحى يضعف بمرور السنين وبتعرضه للأمراض. فتنسل منه نفسه تدريجيا حتى إذا ضعف نهائيا انسلت نهائيا منه فى سلام وتركته مادة هامدة تتحول إلى التراب الذى

نشأت منه . وهذا هو الموت الطبيعى . أما موت الشخص بالمرض أو القتل ، وبأى شىء يفسد جسده فاذ النفس تفارقه لأنها لا تستطيع أن تبقى بعد تمزيق الاطار الذى كانت تلتف به ، أو البيت الذى كانت تسكنه .

وهى تجد مشقة فى أول الأمر حين تواجه الجو الجديد الذى تنفصل اليه ، مع أنه فى الأصل جوها .

وقبل أن نمضى مع ديفز فى نظريته نذكر أن هذا الكلام قريب جدا من رأى أفلاطون فى النفس ولعله مستوحى منه ، وقد جرى فى هذا الطلق الفيلسوف الاسلامى ابن سينا فى عينيته التى نظمها فى النفس ، وكذلك أمير الشعر الحديث شوقى ، ويتفق الجميع فى أن النفس روحا هبط من عالم علوى فسكن هذا الجسم المادى ، ولم ير ديفز أنها أكرهت على هذا الهبوط كما قال الرئيس ابن سينا ، ولكن كلا منهما يذكر أنها حزنت لفراقه ، واستوحشت لاستقبال العالم العلوى الذى جاءت منه .

أما شوقى فهو معارض لابن سينا ، وشبه النفس بالشمس تغشى الأماكن المختلفة ، وقد نفخها الله فى آدم والنبيين ثم ذكر بكاء الاجسام لفراقها وبكاءها لفراق الأجسام (١) .

---

(١) قال ابن سينا :

هبطت إليك من المحل الأرفع — ورقاء ذات تعزز وتمنع
وصلت على كره إليك وربما — كرهت فراقك وهى ذات تفجع
ألِفت وما سكنت فلما واصلت — ألِفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهودا بالحمى — ومنازلا بفراقها لم تقنع

وهكذا جرى فى هذا الخيال ، فسمى الأجسام خرابا وطلولا ، وقال شوقى بعد أن ذكر أوصافا كثيرة

يانفس مثل الشمس أنت وأشعة — فى عامر وأشعة فى بلقع
فاذا طوى الله النهار تجمعت — شتى الأشعة فالتقيت فى المرجع
لما نعيت إلى المنازل غودرت — دكا ومثلك فى المنازل ما نعى
أنت الوفية لا الذمام لديك — مذموم ولا عهد الهوى بمضيع
أزمعت فانهلت دموعك رقة — ولو استطعت إقامة لم تزمعى

وتسيان عهود الحمى عند ابن سينا وانهلال الدموع عند شوقى هى المشقة التى جاءت فى كلام ديفز .

ويذكر ديفز حالة عجيبة له ، هى أنه فى حالة من حالات الشفافية التى كان هو موضوعا لها ، شاهد بوضوح عملية موت صورت بواسطة مصور روحى (وهو آلة فوتوغرافية تصور الأرواح غير المرئية) شاهد النفس تنسل بسهولة وهدوء من إطار الجسم ثم تقف معلقة فوقه جسما غازيا مطابقا كل المطابقة للجسم المادى بينما كان هناك خيط كهربى يربطها به . وهو خيط يشبه الحبل السّرى الذى يربط الجنين بأمه . وقد ظل هذا الخيط مدة ثم اضمحل وفنى .

وينتقل من الأفراد إلى الكون كله إذ يقرر وجود صلة تأثيرية تربط العالم الأدنى بالعالم الأوسط ثم تربط الأوسط بالأعلى ، وهذه الصلة كما سبق تقوى وتضعف بالشيخوخة أو الأحداث وأكثر من هذا أنه استطاع أن يحدث حوارا مع بعض الأرواح .

وفى هذا الوقت كان علم الأرواح ودراسة الاتصال بها علما ناشئا ولكنه آخذ فى النمو ، وكان هناك فَتَيات قد شغلن بهذه الدراسة ، وأجرين تجارب روحية عديدة لم يصل دافيز إلى مثلها، وكلهن يعرفن باسم أخوات فوكس FoxSisters وكان لديهن. فيما ذكرن وشاع منهن ما لايحصى من الرسائل التى تلقينها من العالم الآخر . وامتاز هؤلاء الأخوات بالشهرة ، وكان هناك آخرون تلقوا أيضا مثل هذه الرسائل وأكثر من ذلك أن وجدت كتب تحوى ما جاء إليهم من هذا العالم .

فى هذا الجو نشأت فرقة الروحانيين المسيحية ، ولابد أنها تشربت منه كثيرا من آرائها ، ومزجت ما تغذت به بالفكر المسيحى ، وكان من المعنيين بهذه البحوث جماعة فيهم ديفز وخلفاؤه ـــ صور واتدرج انسحاب الروح من محيط إلى آخر أعلى منه فى هدوء ودون معاناة بعد أن تخلصت من إطارها المادى وظهرت فى صورهم هالات متتالية كالتى يصورها الفلكيون حول زحل وبعض الكواكب وقد رأوا تنقل الروح فيها تدريجيا حتى تصل إلى البؤرة، ومع بعد المسافة بين دائرة وأخرى أمكن قياسها بالاميال بل حتى بالأمتار . وكان المشتغلون بعلم الأرواح ذوى ثقافات منوعة مكنتهم من ذلك .

ومهما يكن من شأن تقدم البحوث فى الدراسات الروحية فانها لم تصل إلى حد يقطع بصحة كل ما نتج عنها .

وفى الثلاثينات الماضية من هذا القرن وما بعدها، كان المرحوم فهمى أبو الخير يخرج مجلة الأرواح وكتبا روحية بها كثير من الصور والأحداث ، وكان مما صورته أوضاع الجسم الأثير واتصاله بالجسم المادى بواسطة خيط كالحبل السرى . وصور الهالات التى تنتقل فيها الروح حين الموت أو النوم . وكان رحمه الله يذكر المدارس والعلماء المتخصصين فى هذه الدراسة . ويذكر أنه على عتبة البحث ، ولكن أعماله كلها لم تنل الثقة الكافية ، وأمتازت بحوثه بما أدخل عليها من محاولات تربطها بالدين الاسلامى . فذكر — على سبيل المثال قصة الجسم الأثيرى[1] ، وفسر الآية : الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى » بأن إمساك المقضى عليها هو قطع الخط الذى يربط الجسم الأثيرى بالآخر المادى أو امساك النفس الأثيرية فى العالم العلوى أما التى يرسلها فهى التى تظل مكانها متصلة وكان كثيرا مايذكر الآية : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، ويذكر أن بينه وبين الأوروبيين الذين يدرسون هذا العلم مسافات بعيدة ، وأنهم هم أنفسهم مع كثرة ما درسوا وبحثوا لم يعرفوا الا القليل جدا من عالم الأرواح .

ومما تثبته هذه الدراسات بطريقة علمية ، بقطع النظر عن التسليم بآرائها أو نفيه ، وجود الجنة والملائكة ، وبيان ثقل المادة وخفة الروح ، ووجد فى دراستهم مايعرف بطرح الروح ورؤية الغائب ، والاتصال بأرواح الموتى . وعلاج المرضى من أماكن بعيدة ، وفى مجلة الأرواح وكتب الأرواح أقاصيص من هذا النوع كثيرة .

وعمل كنيسة الأرواح الآن قريب الشبه من ادعاءات أرباب الطرق و«الفقراء» فى القارة الأفريقية ، وبعض ذوى الديانات الآسيويين ، ولكنها بما تذكره من أسماء المثقفين المنتمين إليها تجتذب إليها كثيرا من المثقفين كما تستهوى بجوارها غير المثقفين . وكنائسها آخذة فى الامتداد . ويأوى إليها كثيرون من ذوى الديانات

(١) ويوجد من كتب هذه البحوث كتاب « على حافة العالم الأثيرى » . ويذكر المرحوم أبو الخير عملا كان يسميه طرح الروح ، حيث يستطيع الشخص الروحانى أن يبعث بروحه أو نفسه الأثيرية إلى جهات نائية ، فيرى ما يحدث هناك ، حتى أن أحد العلماء الانجليز ، شفى مريضا فى جنوب أفريقية ثم قابله فى دفنى فتعرف عليه ولما أخبره الطبيب أنه لم يذهب قط إلى جنوب أفريقية دهش الرجل .

غير المسيحية والمسيحيون من الفرق الأخرى .

وتكوين الكنيسة الروحانية يقوم على رئيس أعلى يرجع إليه فى كل شئون المذهب وتلى رتبته برتبة أدنى منها، تشبه رتبة النائب، ولكن صاحبها ليس نائبا ، ولا تؤول إليه الرياسة تلقائيا إذا مات الرئيس ، وصاحبا هاتين الرتبتين يقيمان بالكنيسة ، وتوجد طبقة متوسطة من القسس تنتقل من كنيسة إلى أخرى ، ومهمتها هى الوعظ والتدريس ، وصلوات الروحانيين تختلف عن الصلوات المتبعة فى الكنائس الأخرى ، وهى تعتمد على أدعية وابتهالات أو صلوات مرتجلة . وخطبهم وأناشيدهم ليست بذات روح عالية ولا جدارة أدبية ، والمثقفون الذين ينتمون إليها يشغلهم الجانب الروحى العلمى أكثر مما يشغلهم الجانب العبادى ، وهم فى ثقافتهم أرفع مستوى من القسس وأكثر دراية بالبحوث الروحية ، وأشتهر من هذه الكنيسة أن قسسها ليسوا ذوى أطلاع، ويبدو أنهم شغلوا بدرس النواحى الدينية أكثر مما شغلوا بالنواحى الروحية ، ولا يدرس كتاب ديفز بينهم ، وقليلون منهم قرأوه ، أما الأكثرون فلا يقرأونه ، وإذا جرت لهم قراءته فلا يفهمونه ، وهو لايخلو من غموض .

وعناية الجميع قسساً وأتباعا تتركز على معرفة الحياة الآخرة ، وما يلاقيه الناس بعد موتهم، وعلى صلة الموتى بذويهم وبالأحياء عامة بعد موتهم ، وهم يتوصلون لهذه الغاية بطريق الوسطاء وبالصلاة أثناء الجلسات الروحية ، وبذا يستهوون الناس حتى إنّ جلساتهم تكتظ بالمشاهدين وليس لهم خطر تبشيرى على الاسلام إلا من ناحية منافسته فى دعوة الآخرين ، وقد يحضره الكثيرون ولكنهم لا يتنصرون . ونحن نعرض مذهبهم لونا من ألوان الفكر المسيحى وتيارا من تيارات التبشير . والفرق المسيحية الناشئة أكثر من أن تحصى .

وللموازنة بين آرائهم عن الروح ، وما جاء عنها فى كتب المسلمين مجال للتأمل بعيد .

ما يرجى من الأزهـــر

الأزهر مباءة المسلمين فى مشكلاتهم الدينية ، والمسلمون يتجهون إليه بقلوبهم وعقولهم كلما جد لهم مشكل ، وبطبيعة وضعه ووظيفته وتاريخه يتطلع إليه مسلمو الجهات النائية لقيادتهم ، ولارشادهم إلى طرق عبادتهم ، وتعليمهم أصول الشريعة وفروعها . وتاريخ الاسلام وما يمتاز به — ثم ما يدفعون به شبهات أعدائه وافتراءاتهم عليه ، إلى غير ذلك مما يتعلق بالدعوة الاسلامية .. ولكن الأزهر لايقوم من هذا الا بالقليل القليل .

للأزهر مبعوثون أكثرهم يعملون فى البلاد العربية ، وقلة قليلة منهم فى البلاد الأخرى ، ولكل منهم عمل تحدده وظيفته ، فالذين فى البلاد العربية يدرسون فى دور تعليم لها مناهجها ولايعدو عملهم أن يكون تعليم أبناء المسلمين ، وليس هذا فى الواقع عملا هينا ، فهم عن طريقه يستطيعون تكوين دعاة إسلاميين ، ولا يضيرهم أنهم بعيدون عن التيارات التى تحارب الاسلام ، وكل مايرجى منهم أن ينشئوا دعاة قادرين على وقف هذه التيارات .

أما القلة التى فى البلاد الأجنبية غير الاسلامية فهم يواجهون هجوم العادين ، ووضعهم يستدعى ثقافة أوسع ، واطلاعا على الديانات الأخرى . ثم معرفة جيدة بلغة البلاد التى يعملون بها . وهم غالبا يعملون فى مراكز إسلامية أعضاء مجالسها من رجال السياسة ، ولهذا لايجد هؤلاء المبعوثون حرية كافية فى اختيار الموضوعات التى يعالجونها . ولا فى الحديث عن أوضاع الاسلام هنا وهناك . ولذا كان نشاط الأزهر محدودا فى كلا الجانبين ، ولا مجال للموازنة بين أعماله وأعمال الارساليات التبشيرية .

والاقلال المادى — دون ريب — من عوائق الأزهر الكبرى ، فالدعوة إلى الاسلام تحتاج إلى نفقات طائلة ، والأزهر ينظر إليه من الحكومات المصرية

المتعاقبة على أنه مدرسة . مجرد مدرسة ، وميزانيته المالية عادة أقل مما يستحق ،ومدرسوه أقل راتبا من رفاقهم الذين يعملون فى المصالح الأخرى ، وفى هذا الموقف يضيع جهد من رجاله فى المطالبة بحقوقهم المادية . ويتعرضون بسبب هذه المطالبة لنقد الناقدين ، بل إن الطامحين منهم لا تساعدهم رواتبهم الضيقة على شراء الكتب التى يحتاجون إليها .

فهذا عائق آخر عن أداء الرسالة .

وهناك عائق مميت ، وهو عجز الأزهر الآن عن تكوين الدعاة الفاقهين ، فخريجو الأزهر الآن يعانون ضعفا يجعلهم أقرب إلى الأمية ، وإذ كانوا لم يدرسوا أصول الاسلام وفقهه فهم بسبب نقصهم فى دراستهم الاسلامية أعجز من أن يقاوموا تيارا تبشيريا ، أو هجوما على الاسلام من أى من المستشرقين ، واذن فقبل أن نطالب الأزهريين الخريجين بالدفاع عن الاسلام نطالب الأزهر باعدادهم وحسن تكوينهم حتى لا يخوضوا معركتهم بغير سلاح .

وقد كان للأزهر مناهجه الخاصة التى تقوم على التعمق والتوسع فى درس العلوم الاسلامية من التفسير والحديث والفقه والتوحيد ثم علوم اللغة العربية ، وهى مواد تحتاج دراستها إلى جهد كبير ، وكان الأزهريون يعانون فى درسها مشاق شديدة . ولكن فرض على الأزهر أن يدرس بجانب منهجه الدينى منهج التعليم المدنى . ولا نتسع طاقة طلابه لهذا الدرس المزدوج ، وكانت نتيجة هذا الارهاق أن ضعف طلاب الأزهر فى المنهجين جميعا ، وهذا أمر طبيعى ، ونتيجة محتومة لمن درس هذه الدراسة .

وكان نظام الأزهر السابق يقضى أن يجيد أبناؤه حفظ القرآن الكريم ، ويؤدى من يريد الالتحاق به امتحانا فيه ، ولكنهم الآن لايحفظونه ، والطالب الأزهرى عند انتهائه من دراسته الجامعية لايحفظ من القرآن ما كان يحفظه الشاب الذى يريد الالتحاق بالأزهر ، وهذا نقص كبير . ولا يمكن أن يكون ثمت داعية إسلامى لايحفظ القرآن .

أما إنه عزيز على أن اسجل هذه الحقيقة المرة ، ولكن الحق أحق أن يتبع .

وإزاء هذا الأمر الواقع نبدأ الخُطوة الأولى بوضع منهج للأزهر .

وأمام الأزهر فرصة ذهبية لنشر الاسلام تتمثل فى معهد البعوث الاسلامية ، فهذا المعهد ينمى الآن طلابا من مختلف الأقطار ، فيه طلاب من إفريقية ومن آسيا وجزر الفيليبين وإندونيسيا واستراليا ، وأيضا من الأمريكتين ، وهم يأتون إليه راغبين يملؤهم الأمل فى درس الاسلام وتعمقه ، كى تتكون لهم قوة على رد الشبهات عنه ولكنهم ـــ وا أسفاه ـــ لايجدون ما كانوا ينشدون .

وفرصة المعهد ذهبية لأن المبعوث الوافد عليه من هذه الجهات البعيدة إذا أحسن تكوينه كان داعية ناجحا فى بلاده ، بل هو أنجح بكثير من مبعوث مصرى أو عربى يذهب إلى هذه البلاد وبعضهم من قبائل أو أجناس لا تعرف اللغة العربية . وهم يستطيعون أن يخاطبوا أقوامهم بلسانهم وأن يقدموا إليهم من مبادىء الاسلام مالاتقوى عليه الترجمة من معلم عربى إن وجد .

ومعهد البعوث لايؤدى الرسالة المنشودة منه، وأسباب عجزه كثيرة لا أريد سردها . ولكنه فى حاجة إلى معونات مادية ومدرسين أكفاء ومناهج خاصة تختلف عن مناهج الأقسام الدراسية الأخرى .

ذكرت فى هذا الكتاب وفى غيره أن الكنائس منذ زمن بعيد ، وبعد دراسة وتجارب رأت أن أنجح الوسائل لبث تعاليم الإنجيل هو تنصيب أساقفة فى كل اقليم من أبنائه ، وفى كل قبيلة من أبنائها ، وقد لاقى هؤلاء القسس بين ذويهم نجاحا لم يلقه غيرهم ، وقد دخل المسيحية بدعوتهم أعداد لم تظفر بمثلها الأرساليات ، هذا لأنهم يعرفون لغات قبائلهم وطعامهم وميولهم ، ورأينا أيضا أن الجماعات والفرق المسيحية تنفق على تعليم هؤلاء القسس أموالا طائلة . كذلك رأينا المبشرين يتعرضون لمخاطر كثيرة فى البلاد النائية التى يذهبون إليها . وقد قدم لنا العالم الكبير جورجى زيدان فى كتابه « طبقات الأمم » صورا من جهاد هؤلاء المبشرين ، ومما لاقوه من مشقات وعناء ، وقد لاقى بعضهم حتفه وبعضهم أكله

البدائيون آكلوا اللحوم البشرية ، وإذن فتعليم واحد من هذه القبائل ثم مساعدته للقيام بالتبشير أجدى وأهدى .

وإذن فالأزهر قد وضع يده على كنز ثمين من معهد البعوث ، وعليه أن يستفيد من هذا الكنز .

وإذا تركنا معهد البعوث ففى آفاق الدعوة الاسلامية أضواء أخرى نود أن تجد الدعوة الاسلامية على أضوائها هدى .

نشأ فى الخرطوم معهد أو كلية البحوث الاسلامية ، وهو لايزال فى بداية طريقه والإقبال عليه شديد ، والشعب السودانى كما هو معروف عنه شعب متدين ، ونود أن يظفر هذا المعهد بمعونات من الدول الاسلامية كلها ولايقتصر طلابه على أبناء السودان ، بل يأتى إليه إفريقيون من جهات شتى .

وأنشىء فى نيامى ــ عاصمة النيجر ــ جامعة إسلامية ، هى فرع من جامعة محمد ابن سعود فى الرياض . وهذه الجامعة بحكم موقعها قد تجتذب أعدادا أكبر من الافريقيين . وقد مضى عليها عام واحد وأمامها عقبات كثيرة .

وكلتا المدرستين ــ فى السودان والنيجر ــ تنظر إلى الأزهر وتترقب منه مددا من المعلمين على الأقل ، ولايتسع جهده لأكثر من الإمداد بالمدرسين والكتب .

ونرجع بعد إلى الأزهر ، لنعالج معه موقفا آخر وصعوبة يعانيها .

هذه الصعوبة هى فقره فى متكلمى اللغات الأوروبية ، فالقدر الذى يدرس فى الأقسام الاعدادية والثانوية لايعدو أن يكون أوليات لايستطيع ذووها أن يشرحوا بها الاسلام أو يعرفوا به الآخرين ، وربما كان طلبة كلية التربية وكلية الترجمة قادرين على ذلك ، ولكنهم ليس لديهم ثقافة دينية كافية ، ويستطيع الأزهر أن يتدارك هذا الموقف بوسائل أخرى .

يمكن أن يختار نخبة طيبة من كليات أصول الدين والشريعة والدعوة ليدرسوا اللغات الأوروبية التى تساعدهم على الخطابة بها ، ويخصص لهم زمن معين

ومكافآت سخية ، وبعد نجاحهم فى الامتحانات التى تثبت قدرتهم على الخطابة بهذه اللغات تزاد رواتبهم زيادة تشجع على هذا الدرس . قد تكون عشرين جنيها وقد تكون أكثر ، ويوجد بالأزهر معامل للغات تسهل دراستها على طلابها .

ويمكن أن يحفز أبناءه المبعوثين فى بلاد تتكلم لغات أوروبية أن يدرسوا اللغة المستعملة فى تلك البلاد ، وللأزهر مبعوثون فى النيجر والسنغال وبقية البلاد التى كانت تسمى السودان الفرنسى ، واللغة السائدة فى هذه البلاد ــ بجانب اللغات القبلية ــ هى اللغة الفرنسية ، ومن السهل جدا أن يتعلمها المدرس الأزهرى هناك إذا وجد حافزا يدفعه لذلك ، ولقد قابلت فى جوبوتى فئة من مبعوثى الأزهر ومن الغريب أنه كان بينهم معلمون يعلمون اللغة الفرنسية ، ويوجد مثل هؤلاء فى النيجر والهند وباكستان وماليزيا ... وكل هذه بلاد تتكلم الانجليزية ، فاذا دفع هؤلاء إلى تعلم هذه اللغة وزيد فى رواتبهم إذا درسوها أقبلوا على تعلمها واستفاد الأزهر منهم كثيرا .

وللأزهر فى أوروبا وأمريكا بقسميها مبعوثون مضى عليهم أعوام ، وقد أصبحوا دون ريب يجيدون اللغة الانجليزية . فاذا استقدمهم الأزهر ليبعث بهم إلى البلاد الشرقية التى تتكلم اللغة الانجليزية أمكن أن يستفاد منهم ، ويحل محلهم من هم أقل منهم مقدرة فى هذه اللغة ، وهم هناك تلقائيا تزيد معرفتهم ودراساتهم .

وقد كان الأزهر يجرى مسابقات فى اللغات الأوروبية بين حين وآخر ، وكانت هذه المسابقات تغرى بدرس هذه اللغات وتعلمها ، ولعلها الآن تكون أكثر اغراء وأقل مشقة ، لأن أبناء الأزهر الآن يعرفون شيئاً من اللغات الأجنبية ، وكانوا من قبل لايعرفون منها شيئا .

ومهما يكن من شىء فان حال الأزهر تدعو إلى التفكير والحل السريع ، وطوفان التبشير يطغى على نشاط الدعاة الاسلاميين .

ولا ينبغى أن يترك الأمر لجهد الأزهر المحدود ولكن عليه أن يستعين بكل ذى

قدرة وإذا استيقظ من سباته وبدأ فى شىء ما لتلافى نقصه وضعفه فسيجد المساعدين .

إنى أنظر إلى المعونات السخية التى تقدم للارساليات التبشيرية من الحكومات ومن الهيئات والأفراد والموسرين فأرثى للأزهر الذى لاينظر إليه إلا أنه مدرسة من المدارس ، ودراسة الأزهر بطبيعتها شاقة حتى من قبل أن يثقل بالمنهج المزدوج ، ولكى نوفر لهم شيئا من الزمن يجب أن يكون لهم مساكن على الأقل فى العواصم، ويجب أن تقدم لهم وجبة غذاء كل يوم ، وقد كانت لهم من قبل أوقاف وأطعمة ومساكن ولم تكن المواصلات شاقة ولا الزحام عنيفا كما هو الآن ، ولاينبغى أن يكون الطلاب فى مدارس الارساليات ممتعين بكل وسائل الراحة وطلاب الأزهر يعانون كل هذا الحرمان .

وليس غائبا عن أذهان ذوى التعليم أن الأزهر مدرسة تنمى ضعاف التلاميذ ، فالتلاميذ بعد نهايتهم التعليم الأساسى يتجهون إلى المدارس المدنية وينأون عن الأزهر ، هذا الثقل مواده الدراسية ولطول مدة الدراسة به ، والذين لاتقبلهم المدارس لنقص درجاتهم يتجهون إلى الأزهر ، وأمثال هؤلاء يحتاجون لمساعدات أكثر .

وهذه حالة أخرى تستدعى التفكير والعمل على حلها ، وقد تكون الحوافز السخية المنوعة مما يطب به لهذه الحالة .

وبعد فهذه هى حال الاسلام وحال خصومه المبشرين الزارين عليه والمنفرين منـــه .

وهناك حالة تبعث فى النفس كثيرا من الفأل والتشجيع للدعاة ، وهى أن الاسلام بطبيعته ذو جاذبيّة ، والكثيرون يدخلونه لبساطته وعدله وإنسانيته ، ولكنهم بحاجة إلى من يعرفهم به ، ولقد زرت استراليات وصليت الجمعة فى مسجد «سيدنى» الكبير ، وبعد الصلاة جاء بعض المصلين فقالوا إنهم قرأوا عن الاسلام فأحبوه واعتنقوه ، وإنهم لم يسمعوا قبل اليوم خطبة جمعة باللغة الانجليزية ، وفى

« مالبورن » وجدت مدرسة تعلم اللغة العربية.. وهى تعتمد على أحدث الطرق التكنولوجية ، وناظرها لايعرف اللغة العربية ، والتلاميذ يسمعون كلمات مسجلة بمسامع لاسلكية فيكررون الكلمة ويسمعون معناها بالانجليزية ، ثم تشرح لهم الجملة عن طريق السمع،ورجا ناظر المدرسة وَوَدَّ لو يمده الأزهر أو غير الأزهر بمعلمين، وفى « هاواى » رأيت المدرسة تكتب الآية القرآنية على السبورة، ثم تجرى مع التلاميذ محادثة بلغتهم وبطريقة غنائية . طبعا لم أفهم منها شيئا ، ولكن وجدت التّلاميذ يعيدون الآية بنطق سليم مجود ، وأظن المدرسة نفسها لاتعرف اللغة العربية .

وفى الختام أهيب برجال التعليم والعلم وذوى اليسار ورجال الحكم أن الأزهر ليس مجرد مدرسة ، وأن ينظروا إلى ما يضفى على المعاهد الدينية الأخرى من سخاء مادى ، وإذا لم ينل الأزهر مثل ما ينال مدارس الارساليات فلننظر إلى مايتمتع به المعهد الدين المسيحى فى كانتبرى . وزميله فى باريس وأمثالهما فى البلاد الأخرى .

وأسأل الله سبحانه أن يشمل دعاة الاسلام بعونه ، وأن يعينهم على أداء رسالتهم ، وأن يهيىء للاسلام عزة ونصرا .

وصلى الله على سيدنا محمد الذى أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وأنه لذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين .

خاتمـــة

عرضت أسس التبشير وخلاصة عن أشهر إرسالياته فى حياد تام ووصف صادق . وبهذا قدمت للمسيحيين خلاصة كافية عن نشأة دعوتهم وتطوراتها ، ووضعت أمام الداعية المسلم صورة من الجهاد والاخلاص ، ووضعت أمامه صورا هو خليق بأن يستفيد منها ، وأن يحتذيها .

فهذا كتاب يقرأؤه المسلم والمسيحى على السواء ، ولعلى بهذا أن أكون وضعت صورة للدرس البرىء الذى يصف الحقائق ويتنزه عن التعصب ، والاسلام يكره التعصب ويمقته ، ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وقد رأينا كيف عاش المسلمون والمسيحيون منذ ظهور الاسلام أخوة لكل منهم شرعته ومنهاجه ، وخلال العصور المظلمة والتعصب الصليبى لم تعدم المسيحية أشخاصا ذوى فكر مستنير يدعون إلى إعمال العقل والتفكير ، أمثال بيكون وتوما الإكوينى .

وإنى أقدر جهاد هؤلاء الأبطال ، وما بذلوه من جهد ومال وعمر فى سبيل دعوتهم ونشر عقيدتهم ، وفى تاريخ الدعوة الاسلامية أيضا مثل من هذا الجهاد ، فليكن للدعاة المحدثين مثل من هذا الاخلاص ، وعمل على نشر الاسلام فى سلام وحسن بيان وحسن عمل . ومن نصب نفسه للناس إماما فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره وليكن تعليمه بسيرته قبل تعليمه بلسانه .

ولابد لناشر كل فكرة أن يتزود بالعلم الواسع والمعرفة الدقيقة والأخلاق العالية الرفيعة .

وأود لكل شخص غير سليم أن يقرأ الاسلام ويدرسه ، كما أود لكل مسلم أن

يقرأ الديانات الأخرى ويدرسها ، فهذه الدراسة لابد أن تحدث تقاربا وتدفع إلى الاخاء والتعاون لخير الانسانية كلها .

وما كتبته لايعدو أن يكون بداية بحث ، ولابنائنا الدارسين أو يتوسعوا فى أى موضوع من موضوعاته .

ومعذرة لقرائى أن حوى هذا الحديث شيئا من التكرار ، لأنه كما قلت فى مقدمته كاد محاضرات ألقيت على الطلاب فى سنوات متعددة .

والله أسأل أن ينفع به ويهدى إلى الحق والصراط المستقيم .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم أنبيائه ورسله وآله وصحبه ومن أهتدى بهديه .

عبد الجليل شلبى

أهم مراجـــع البحث

(ا) مراجع عربية :

أصول التاريخ الأوروبى	فشر . ترجمة زينب عصفور وآخرين
أوروبا العصور الوسطى	سعيد عاشور
أوروبا فى مطلع العصر الحديث	عبد العزيز الشناوى
الاعلام	خير الدين الزركلى
التاريخ الوسيط (قصة حضارة البداية والنهاية	نورمان . ف . كانتور ترجمة قاسم عبده قاسم
تاريخ العرب (مطول)	فيليب حتى ت. محمد مبروك نافع
تاريخ سورية (فى جزأين)	» »
تاريخ الأمة القبطية جـ ٢	لجنة
الفهرست	ابن النديم
الدعوة إلى الاسلام	توماس آرنولد . ترجمة حسن ابراهيم وآخرين
حياة المسيح فى الكشوف والتاريخ	عباس محمود العقاد
اللغة العربية أقدم من العبرية واليونانية	عباس محمود العقاد
تسنّ يا تسنّ (أبو الصين)	عباس محمود العقاد
مفتريات المبشرين على الاسلام	عبد الجليل شلبى
محاضرات فى النصرانية	محمد أبو زهر
المستشرقون	نجيب العفيفى
المستشرقون والمعلمون فى العالم العربى	ابراهيم خليل
الغارة على العالم الاسلامى	محب الدين الخطيب
مشتهى الأجيال	منشورات بيروت
يسوع فى زمانه	منشورات بيروت

يوم الرب	مستر هوايت
تفسير النار	الشيخ رشيد رضا
عقيدة الصلب والفداء	الشيخ رشيد رضا

عدا المراجع المقدسة : القرآن الكريم ، والكتاب المقدس بقسميه ، وانجيل برنابا والتوراة السامرية .

(ب) مراجع انجليزية

The Ancent world	H. A. CLEMENT
Catholism	Henery de Luback
The Death of Jesus	Joel Crmenchal
The Jesus of History	T. R. Gloven
The Dead sea Comunity	Kurt Schbert
A History of the Bible	Fred gladistome Bratton
In vitation to the new Testament	W.D. Davics
The life & Time of Jesus the missiah	Alfred Edessheim
Wthime & History	H. G. Wells
A Short History of Religans	E. E. Kellett
The Twelve Apostsrles	
Comparatiue Religion	Teresa Ilogol
	A. C. Bouquet

(حـ) كتب المورمون

Jesus the Christ	Jemes E. Telmge
The Book of Mormon	by the Hands of Mormmon
Srticles of Faith	

ومجموعة مقالات أخرى لهم هذا عدا دوائر المعارف التى أشرت إليها .

رقم الايداع ٨٧/٧١٩٦
الترقيم الدولى ٢ ـ ٣٦٦ ـ ١٠٣ ـ ٩٧٧

هـذا الكتـاب

١ ــ صورة واضحة عن نشأة التبشير وتطوره وأشهر إرسالياته .

٢ ــ يحوى معلومات لم تجمع قبل ذلك فى كتاب .

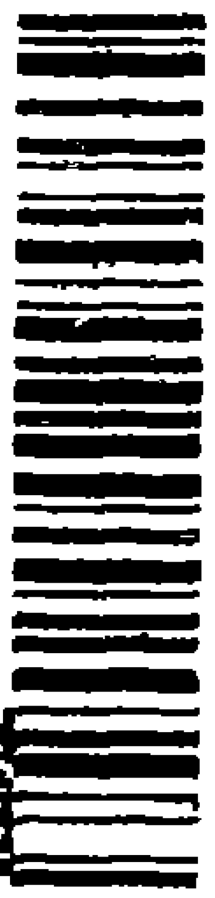
٣ ــ يقرؤه المسلم والمسيحى وغيرهما ، ويجد كل قارىء فيه متعة وفائدة .

٤ ــ يمد المسلمين والمسيحيين على السواء بمعلومات كل منهم فى حاجة اليها

٥ ــ يوضح طريق الدرس الحى البرىء .

٦ ــ يطلع قارئه على آراء المفكرين الدينيين فى العصور الماضية والعصر الحديث .

٧ ــ يدفع تلقائيا الى المزيد من القراءة والتفكير .



٣٠ / ٢٧٣